مكتبة 1315

أدب ياباني

رواية

دار العين للنشر

المُعَلَّب

كوبو آبي

ترجمة: مجدي خاطر

المعلَّب

مكتبة | 1315

مكتبة
t.me/soramnqraa
28 8 23

المعلِّب

رواية

كوبو آبي/ ترجمة: مجدي عبد المجيد خاطر

دار العين للنشر

أسستها د. فاطمة البودي عام 2000

المدير العام

4 ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: 23962475 20+ ، فاكس: 23962476 20+

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الطبعة الأولى: 2022 م

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٢١/٢٧٢١٢

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 630 - 5

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار العين

تعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف

وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار

مكتبة | 1315

المعلَّب

رواية

كوبو آبي

ترجمة وتقديم

مجدي عبد المجيد خاطر

دار العين للنشر

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

كوبو آبي

المعلّب: رواية/ كوبو آبي؛ ترجمة وتقديم: مجدي عبد المجيد خاطر.

القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٢٢

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٦٣٠ ٥

١- القصص اليابانية

أ- خاطر، مجدى عبد المجيد (مترجم ومقدم)

ب- العنوان

٨٩٥,٦٣

رقم الإيداع / ٢٧٢١٢ / ٢٠٢١

الكتاب الأصلي باللغة اليابانية:

箱男

安部 公房

新潮社

1973

THE BOX MAN

A NOVEL

KOBO ABE

© Shinchosha Publishing Co, Ltd, 1973

مكتبة
t.me/soramnqraa

كوبو آبي وسؤال الأزمة

يُعدُّ «كوبو آبي» (1924–1993) أبرز كُتَّاب الأدب الطليعي في اليابان خلال النصف الثَّاني مِن القرن العشرين. فهو صاحب إنجاز أدبي رفيع مضفور بحساسيَّة حداثيَّة وتجلِّيات سرياليَّة كابوسيَّة عن وضعيَّة الفرد بالمجتمعات المعاصرة، عبر نصوص في الرِّواية والمسرح والقصَّة القصيرة تتجسَّد فيها تيماته الرئيسة: الاغتراب؛ العُزلة؛ فقدان الهُوِيَّة؛ الكوميديا السوداء؛ المحاكمات العبثيَّة؛ مُدن التيه؛ النفور الجنسي؛ النوازل الطبيعيَّة وفانتازيا الحيوان. باعت كتبه ملايين النسخ وتُرجمت إلى عشرات اللغات(*). وكثيرًا ما قورنت أعماله بكتابات «كافكا» و«بيكيت» و«ألبرتو موراڤيا»، حتَّى لقد سُمِّي بكافكا اليابان، وظلَّ مرشَّحًا مُنتظرًا لجائزة نوبل حيث تكرر اسمه عِدَّة مرَّات. وقد نُقل عن صديقه الأديب الياباني «كنزابورو أوي» أنَّه أعلن عقب فوزه بالجائزة عام 1994 أنَّه رُبَّما كان آبي هو الأديب الَّذي يستحق الجائزة.

(*) تُرجمت له روايتان إلى اللغة العربية، «امرأة في الرمال» صدرت عن دار الآداب، و«موعد سري» التي صدرت عن المؤسسة العربيَّة للدراسات والنشر، والروايتان من ترجمة كامل يوسف حسين.

غالبًا ما يرتبط الفن التجريبي أو الأدب الطليعي بسؤال الأزمة التي تحدِّق بوطنٍ ما، فيصبح هذا الفنُّ احتجاجًا ضد كل ما هو رديء وراكد وقبيح ومن مسببات الانحطاط، وإشارة على الرغبة إلى التجديد والتحديث والخروج من شرنقة الأسلوب والتفكير التقليديين. وتعود جذور الفن الطليعي الَّذي شهدته اليابان عقب الحرب العالميَّة الثانية إلى أوائل القرن التَّاسع عشر، حيث يُشير المصطلح الفرنسي *Avant-garde* إلى الحركات الفنيَّة التي تنأى بنفسها بعيدًا عن معايير الأسلوب والتعبير المقبولين، وترفض المؤسسات السياسيَّة والفنيَّة والثقافيَّة القائمة. دخلت هذه الفكرة القاموس الياباني خلال فترة حكم الإمبراطور «تايشو» التي اقترنت بالانفتاح على الديمقراطيَّة، وعُزيت إلى بعض الفنانين الَّذين انخرطوا في نقدٍ راديكاليٍّ للثقافة والسياسة اليابانيَّتين. وكانت تجربة الخراب أثناء الحرب وغياب اليقين بعدها وخلال الاحتلال الأمريكي قد تركت خواءً بالنفسيَّة اليابانيَّة، وحاول الكثير مِن المؤلفين والفنانين آنذاك العثور على تعريف جديد للهُوِيَّة اليابانيَّة، لكن آبي تجاوز تخوم الحدود القوميَّة لبلاده ليتصل بهويَّة الفرد الحداثي عمومًا. وقد وفَّرت له تجربته الاستثنائيَّة؛ باعتباره غريبًا يابانيًّا، منظورًا راقب من خلاله الرضوض الوجوديَّة التي أصابت اليابان خلال التحديث، تعدَّاها إلى التحديات التي تواجه المجتمعات الحديثة عمومًا.

وُلد «كوبو آبي» في طوكيو لكنه قضى طفولته وشبابه في إقليم منشوريا الصيني الَّذي كان خاضعًا للاحتلال الياباني آنذاك، حيثُ عمل أبوه أستاذًا للطب في «موكدين». عاد آبي إلى اليابان في سن السابعة عشرة ودرس الطبَّ في جامعة طوكيو بدءًا من عام 1943، لكنه تسرَّب مثل الكثير من الكُتَّاب

والفنانين اليابانيين مِن التقليديَّة الخانقة لنظام التعليم الأكاديمي الياباني وعاش حياة مقلقلة بائعًا على عربة خضراوات ثُمَّ بائعًا للفحم الحجري في شوارع طوكيو المخرَّبة. زوَّر شهادة صحيَّة تُفيد بإصابته بمرض السُّلِّ ليتفادى الموت المحقق على جبهة القتال. وفي تلك الفترة، بدأ كتابة قصائد وقصص قصيرة قبل أن ينشر كتابه الأول على نفقته الخاصة عام 1947، لكن في فبراير مِن العام التالي كان قد نشر المزيد من القصائد في إحدى المجلات أطلق عليها «يافطة في نهاية طريق»، حاز بها عام 1950 على أولى جوائزه وهي جائزة أدب ما بعد الحرب.

التحق آبي مع نهاية الحرب في الباسيفيكي بالحزب الشُّيوعي الياباني الَّذي التحق به تقريبًا كل الكُتَّاب الشباب آنذاك باستثناء «يوكيو ميشيما». آمن هؤلاء الكُتَّاب أنَّ اليابان صارت حُرَّة عقب هزيمتها في الحرب وسقوط النزعة العسكريَّة، وأحسُّوا أنَّ الطبقات الحاكمة عاجلًا أو آجلًا ستستعيد عافيتها وتعود الأحوال كما كانت عليه قبل الحرب، فقرروا القيام بكل ما يستطيعون لمنع حدوث ذلك من خلال الالتحاق بالحزب الشيوعي الَّذي كان يُنظر إليه بوصفه رمزًا للتحرُّر. لكن آبي الَّذي حمل تصورًا بالغ المثاليَّة عن الثورة بوصفها حدثًا فوضويًّا، ظلَّ طوال فترة انضمامه للحزب في حالة صراع دائم مع قياداته، فيما بدا تعبيرًا عن نفور قطاع عريض من المتعاطفين مع المذهب الفوضوي، مِن التشديد الماركسيّ اللِّينينيّ على مسألة قوَّة الدَّولة. أثناء ذلك ساهم في إدارة حلقات العمَّال الأدبيَّة في مدينة «كاواساكي» المطلَّة على خليج طوكيو وعايش حياتهم. كما كان القائد الحقيقي لمجموعة من الفنانين الشباب الراديكاليين؛ كُتَّابا ورسَّامين ومعماريِّين وسينمائيِّين،

سُمِّيَت «نادي القرن» وتأسست في أعقاب انتهاء الاحتلال الأمريكي لليابان بعد الحرب العالمية الثانية، أثناء ما أُطلق عليه آنئذٍ الحرية الجديدة. وكان صديقًا مُقربًا ومساعدًا للمخرج السينمائي «هيروشي تيشيجاهارا»، الَّذي أخرج أربعة أفلام سينمائيَّة عن نصوص لآبي في الفترة بين 1962/ 1968 أُعتُبرت دعائم الموجة الجديدة في السينما اليابانيَّة، قبل أن يُطرد مِن الحزب الشيوعي سنة 1962 بتهمة «الانحراف التروتسكي».

تصف مؤرِّخة الفن الحديث «ألكسندرا مونرو» المزاج الفكري في طوكيو عقب الحرب العالميَّة الثانيَّة بأنَّه: «كانت تستحوذ عليه الماركسيَّة وتيمات نهاية العالم والاغتراب الوجودي». وهي البيئة التي واصل فيها النَّاقد الياباني صاحب التأثير الأعمق على آبي *Hanada Kiyoteru* بناء مجموعته *Yoru no kai*، التي انضم إليها آبي في شبابه، على إرث السُّرياليَّة قبل الاحتلال للتشويش على حدود حرية التعبير. ظهر التأثير السريالي والفانتازي في قصص آبي الأولى مثل «شرنقة حمراء» و«جرائم جناب السيد 'كارما'»، التي لقيت استحسانًا نقديًّا وقت نشرها عام 1951 ونال عنها أكثر جوائز اليابان الأدبيَّة أهميَّة، وهي جائزة «أكوتاجاوا» في دورتها الخامسة والعشرين، وظهر «أندريه بريتون» نفسه حَبْر السُّرياليَّة الأعظم في قِصَّة تالية أخرى، هي «بائع برج بابل المتجوِّل». لم يقتصر دور «هنادا كيوتورو» على الترويج للسرياليَّة في الأدب الياباني، بل تعداه إلى إلهام آبي بطريقة إنماء فلسفته وأسلوبه في الكتابة باكورة فترة ما بعد الحرب، إذْ نادى إلى ضرورة أنْ: «يكون الأدب الجديد قادرًا على تمثيل المتناقضات جنبًا إلى جنب؛

الواقع والوهم؛ الجسد والرُّوح؛ النشاط والخمول؛ الوثائقي والخيالي»، وهو ما بدا واضحًا في روايته الأبرز «امرأة في الرمال».

كشفت تلك الرواية للقراء في اليابان والعالم؛ إذْ تُرجمت إلى عشرين لغة، عن عبقريَّة مكتملة. وهي حكاية سُرياليَّة سوداء عن أستاذ في علم الحشرات يُفتِّش عن خنفساء نادرة، فيصل إلى قرية ساحليَّة نائيَّة مطمورة وراء الرمال ويبتغي مكانًا يقضي فيه ليلته. يدلُّه سُكَّان القرية على مسكنٍ متداعٍ لأرملة شابة تعيش بمفردها في قاع حفرة عميقة وسط الرمال تجتاحها جحافل نمل مُفترس. ينزل إلى قاع الحُفرة عبر سُلَّم طويل مصنوع من الحبال يكتشف اختفاءَه في الصباح، وأنَّه وقع ضحيةَ فخٍّ منصوبٍ برفقة المرأة حيثُ يكدَّان بلا توقُّف لمنع الرِّمال من ردم الحفرة. يكشف البطل في بداية إدراكه للمأزق الوجودي عن إرهاصات للمقاومة، لكنه سرعان ما يُدرك أنَّه لا يملك خيارًا إلا أن يساعد المرأة في مهمتها «السِّيزيفيَّة» التي تستنفد نهارهما كاملًا ويتحوَّل خلال تلك السيرورة إلى قِنٍّ جنسيٍّ لها، كائن يُشبه حشرة بشريَّة سجين عُزلة روحية تزداد في اتجاه موت مُشين.

طُرد آبي من الحزب الشيوعي أثناء كتابة هذه الرِّواية، ورُبَّما لذلك السبب تجنَّب آبي الأحكام الأخلاقيَّة واليقين القاطعين، خلال طرحه لفكرة أنَّه ما من عقيدة فكريَّة أو تأويل منيع ضد عوامل التغيير المستقبليَّة أثناء إجهازها البطيء علينا مثل كثبان رمليَّة، لكن رواياته التالية وكذا باقي أعماله تؤكِّد إحساسَه الخانق بالأزمة الوجوديَّة للإنسان المعاصر وعزلته الشديدة في بحثه عن المُستقرّ الرُّوحي داخل عالم وحشي. تقول إحدى شخصيات

قصته «شرنقة حمراء»: «يُحتضر النهار، أوانٌ يُهرع فيه الناس إلى البيوت، على أنَّه ما من بيت أعود إليه. أُبطئ المشي في الزُّقاق الضيق الَّذي يفصل بين البيوت وأتساءل – أتساءل – أتساءل تُرى كيف توجد بيوت كثيرة، في حين ولا بيت منها، واحد فقط، يخصُّني».

في روايته «وجه الآخر» يُقرر رجل شوَّهته الحروق تبديل وجهه وهُوِيَّته فيلبس قناعًا مصنوعًا من الضمادات ويغوي زوجته، هكذا يصبح عشيقًا قوَّادًا وزوجًا مخدوعًا في «ڤودڤيل كافكاوي». لكن التمثيل لا ينطلي على زوجته، ليظل السؤال عالقًا، هل لا تزال الزوجة تُحبُّه كما كان على حاله الأول، أم كما يزعم الآن؟ أمَّا في «الخريطة الخربة» فيبحث المحقق عن رجل اختفى، لكن بدلًا من ذلك يضلُّ هو نفسه الطريق بهوية تالفة في متاهات مدينة خياليَّة ضخمة تبدو بلا مركز أو قلب حقيقي.

أمَّا رواية «المعلَّب» *The Box Man* فصدرت سنة 1973 وهي واحدة من أشهر أعمال آبي، وتُعدُّ استعارة قويَّة عن الذات المتشظِّية في ظل النمو الاقتصادي سريع الوتيرة الَّذي شهدته طوكيو خلال الستينيات. تستهلُّ الرواية بأولى الصور الفوتوغرافيَّة الكثيرة المنتشرة بين صفحات الكتاب، لكن هذه المرَّة بصورة «نيجاتيڤ» تكشف عن رجل في شارع. إلى جانب الصُّورة قُصاصة من صحيفة تحمل عنوان: «تطهير "أوينو" مِن المشرَّدين– اعتقال مائة وثمانين خلال حملة أمنية هذا الصباح». نتعرَّف بعدها إلى بطل الرِّواية الَّذي يحاول إنقاذ نفسه من التفسُّخ الرُّوحي، فيلجأ للعيش داخل صندوق من الكرتون وعيش حياة ناسك متجوِّل.

إنَّ ما بدا وصفًا تفصيليًّا لطريقة بناء عُلبة مثالية صالحة كمأوًى وأُطروحة عن العقبات والمكاسب التي تصادف رجلًا عاديًّا في سيرورة تحوله إلى مُعلَّب، ينقلب ببراعةٍ إلى «كليدوسكوب» سردي مُربك؛ إذ رُبما لا يكون السَّارد شخصًا واحدًا بل أشخاصًا عديدين، وربما يكون واحد منهم هو أنت أيها القارئ. وأيًّا كانت هوية من كتبوا، فإنَّ لديهم مجموعة مِن الأفكار التي قد تبدو عسيرة على الاستيعاب حول ما يصيغ بشكل واضح هوية مُعلَّب حقيقي وما يؤلِّف هوية آخر مزيَّف، وكيف تُكتسب أيٌّ من الهويتين أو تضيع أو تُسرق أو تُباع.

تأتي «المعلَّب» عبر نصٍّ تجريبي متقلِّب، متلوِّن، مفتوح على تأويلات عديدة حتَّى بشأن هوية الرَّاوي نفسه؛ إذْ يضطر القارئ هنا إلى طرح عدة أسئلة دائمة بشأن هوية الشخصيَّة التي يزعم الرّاوي أنَّه يسرد من وجهة نظرها، وهل يمكن تصديقها. ويفرض التقسيم الَّذي يتبعه المؤلف للنصِّ إلى جُملة مِن المقاطع التي تحمل عناوين فرعيَّة، مَوْضَعة كل مقطع في سياق السَّرد عمومًا، والاستفسار عن ماهية الشَّخصية التي تتكلَّم الآن: هل كانت نفس الشَّخصيَّة التي كانت تروي من قبل أم تبدَّلت؟ وهل هي جديرة بالتصديق؟ هكذا يصير التَّاريخ والهوية الحقيقيان للشخصيَّة محلَّ شكٍّ عبر تقنيات سرديَّة تُعير نفسها إلى أسئلة بشأن الهوية والجِنسانيَّة والتلصُّص.

إنَّ عالم كوبو آبي الممسوخ يتسع للاستعارات المبتذلة التي يقبل بها الأدب البوليسي وأدب المغامرات والجريمة، جنبًا إلى جنب مع الاجترار الفلسفي لأسئلة الهوية وصورة الذَّات والتشظِّي، ورُبَّما لهذا السبب يجد القارئ

صعوبةً في تصنيف عالم آبي الأدبي الَّذي يتأرجح بين الواقعية السحريَّة والوجوديَّة والسرياليَّة، حيثُ تتشعَّب السيناريوهات البيروقراطيَّة غالبًا والكابوسيَّة دائمًا التي يزجُّ بشخصياته إليها مِن الطبيعة العادية للواقع المسكون بلاعبين ثانويين يقبلون، بل يعانقون نتائج منافية للمنطق ولا تتفق مع المقدمات التي يبدءون منها. قد يبدو هذا عبثًا لا يُحتمل، لكن آبي يتجاوز نِطاق هذا السَّخف غير المتناغم عبر لغة مُتقنة تُسجِّل مِن خلالها شخوصه ملاحظاتها واستنتاجاتها كما لو كانت داخل مُختبر: شخصيَّة تتابع حياتها الرتيبة ذات الحيثيات المُضجِرة، يعترضها شبَح أو جنِّي أو ظاهرة خارقة يبدو حضورها عاديًّا مثل عمود إنارة أو صندوق بريد في عُرْض الشَّارع. هكذا يصل آبي بالواقع إلى تخومه الأخيرة وهو يتعاطى مع صيغة، يتزن فيها العبث والسرياليَّة والفانتازيا مع قَدْرٍ مساوٍ مِن رتابة الواقع ووحشيته.

مجدي عبد المجيد خاطر

3
3A
3B
4
NEOPAN SS

تطهير أوينو من المُشرَّدين

اعتقال مائة وثمانين خِلال حملة أمنيَّة هذا الصباح

إبَّان ساعات الصباح الأولى قُبيل فجر الثالث والعشرين، باشَرَت شرطة أوينو بطوكيو القبض عَلى أولئك المتشرِّدين مِمَن يحاولون تجنُّب صقيع الشتاء المقبل عَبْرَ التخييم داخل وجوار ممرَّات أنفاق كايسي لاين، ومحطَّة قطارات وحديقة أوينو، وحيّ تايتو، على أمل الحؤول دون مزيدٍ من عمليات إطلاق الرَّصاص التي يقوم بها الشقي نمرة 109 المطلوب للعدالة مُنذ عهد بعيد. مائة وثمانون شخصًا هي حصيلة مَنْ أُعْتِقلوا داخل ممرات الأنفاق وخلف معهد طوكيو الثقافي الكائن على مشارف الحديقة. أُقْتِيد المُحْتَجَزون للحِين طبقًا لقانون الجُنَح (خَرْق الحَظْر المفروض عَلى التَّسَكُّع والتَّشرُّد) وقوانين المرور (مُمَارسات محظورة على الطُّرق السريعة) إلى مَخْفَر شرطة أوينو، حيثُ التُقطت لهم صور فوتوغرافيَّة وأُخذت بصماتهم. وأرسل مكتب الشئون الاجتماعيَّة بتايتو أربعة مِمَنْ اشتكوا المرض إلى المصحَّة، وأعاد تسعةً للديار نظرًا لسنِّهم الكبيرة. أمَّا الباقون فقد أُطلق سراحهم بعد توقيع اتفاق بعدم

العودة لحياة التشرُّد. بعد ساعة توافرت كل المؤشرات الدَّالة على عودة الجميع تقريبًا إلى أوكارهم الآنِفة.

***

حالتي

هذه دفاتر مُعلَّب.

أستهلُّ هذه الرِّواية داخل عُلْبَة. صُنْدوق مِنْ كرتون يبلغُ، حين ألبسه فوق رأسي، بالكاد وَرِكيَّ.

بعبارةٍ أخرى، فِي هذه المَرْحَلة المعلَّب هو أنا. مُعلَّب، داخل عُلْبَته، يُدوِّن يوميَّات مُعلَّب.

إرشادات لصناعة عُلْبَة

الخامات المطلوبة:

عُلبَة فارغة مِنْ كرتون مضلَّع.

فَرْخ ڤينيل (نصف شفاف) – عشرون بوصة مُربعة مِنْ شريط مطاط (مُقاوِم للماء) – نحو ثماني ياردات سِلك – عارضتان.

سِكِّين مَسْنونة صغيرة (سكين قَطْع).

(اجعل ما يلي قريبًا منك لأنَّك ستحتاج إليه: ثلاث قطع مِنْ خَيشٍ بالٍ وحذاء طويل الرقبة، فضلًا عَنْ ملابس عمل عادية تشتغل في الشَّارع بها).

يلزمك عُلبة فارغة طولها ياردة وعرضها ياردة وارتفاعها نحو أربعة أقدام. على أي حال، يُستحب استخدام الشَّكل الدَّارج المعروف بـقَطْع الرُّبع. والعثور على عُلب عادية ليس بالأمر الصَّعب؛ فأغلب السِّلع التجارية التي تُوضع داخل صناديق عادية الحجم هي في المجمل ذات هيئة غير منتظمة - إذْ تتكيَّف المواد الغذائيَّة على اختلاف أنواعها مع الحاوية - هكذا يكون البناء أكثر ثباتًا. ويكمن السبب الأهم وراء استخدام العلب العادية في صعوبة تمييز عُلبة عن أخرى. وبقدر ما أعرف، يستخدم أغلب المعلَّبين عُلبة قَطْع الرُّبع هذه، وإلا أصاب غفليتها العَوَار في حال كانت تحمل علامات مميَّزة.

ما من داعٍ لاختيار أي نوعيَّة خاصة مِنَ الكرتون المضلَّع؛ إذْ باتت أفرخه التي تنتشر الآن مقوَّاة وشبه مقاومة للماء، إلا في حال كنت تنوي الخروج خلال فصل الشتاء. كما يحظى الكرتون العادي بتهوية أفضل وهو أخفُّ وأيسر استعمالًا. أمَّا بالنسبة إليهؤلاء الَّذين يُخططون للبقاء داخل عُلبة واحدة مُدة طويلة، بغضِّ النَّظر عن تقلبات الفصول، فأوصي بالصناديق البلاستيكية؛ فهي مفيدة خصوصًا في الطَّقس الرطب. وهذه العُلبة مُشطَّبة بالـفينيل، وهي كما يُشير اسمها قويَّة جِدًّا داخل الماء وللعلب

الجديدة منها بريق كأنّها مدهونة بالزيت. لكن يبدو أنّها تُصدرُ كَهْرَبائيَّة ساكنة بسهولة، فتمتصُّ التراب وتتغطّى بالغبار سريعًا، علاوة على أنَّ حافَّتها أكثرُ سماكة من الحافة العادية ومموَّجة. ستميزها عَنِ العُلبة العادية منذ الوهلة الأولى.

لا توجد تدابير بعينها يتعيَّن اتباعها لبناء عُلبتك. فِي البَدْء قرر أي جانب يغدو قعرًا للعُلبة وأي جانب يُصبح سقفًا – قرر وفق ما تراه مناسبًا، أو اجعل السَّقف هو الجانب الأقل استعمالًا، أو قرر كيفما اتُّفق ليس إلا– ثم اقتطع الجزء السُّفلي. بالنسبة إلى مَن يحملون متاعًا زائدًا، يُمكنهم في هذه الحالة طيُّ الجزء السُّفلي للداخل دون قصّ، وباستعمال السلك والشَّريط، يُمكن عقد الطرفين معًا ليصبحا رفًّا لتلك الأمتعة. الصق الحواف الظَّاهرة بالنقاط الثلاث الموجودة فِي السَّقف وبالنُّقطة الموجودة عند الجانب لتثبيتها معًا.

لا بد أن تولي فتحة نافذة الرؤية عناية قصوى. في البدء حدد قياسها ومكانها، ولأنَّ ثَمَّة تفاوتًا بين شخص وآخر، فأنَّ الأرقام التالية ليست إلا إشارة مرجعيَّة. نموذجيًّا، الحافة العلويَّة من النَّافذة ستبعد سِتَّ بوصاتٍ عن قِمَّة العُلبة، والحافة السُّفلَى إحدى عشرة بوصة أسفل، باتساع قدره سبع عشرة بوصة. بعد أن طرحت سماكة القاعدة لموازنة العُلبة فِي مكانها (أضعُ مجلَّة فوق رأسي)، تبلغُ حافة النَّافذة العلويَّة الحاجبين. قد ترى هذا انخفاضًا مُبالغًا فيه، على أنَّ المعلَّب قلَّما تسنحُ له الفرصة كي يرفع ناظريه، فِي حين تُستعمل الحافة السُّفلَى في أكثر الأوقات؛ إذْ حين يقف الواحد مِنَّا، يصعب المشي ما لَمْ تتوافر خمسة أقدام على الأقل مبسوطة مرئية أمامه. وحيثُ

أنَّه لا توجد قواعد خاصة لحساب الاتساع، يجب تسوية تلك الأجزاء حسب التهوية المطلوبة وقوة الصندوق عند الأطراف. أيًّا ما كان، ينبغي أنْ تكون النَّافذة صغيرة قدر الإمكان ما دمت ترى الأرض تحتك.

بعد ذلك يأتي تَرْكيب ستار الـڤينيل الثَّلجي فوق النَّافذة، وثَمَّة شَرَك صغير هُنا أيضًا يتمثَّل في ضرورة أن تكون الحافة العلويَّة مُثبَّتة بسقف النَّافذة والباقي يتدلَّى حُرًّا، لكن لا تنسَ رجاءً عمل شَقّ طولي. هذه الوَسيلة البسيطة ناجعة بصورة تفوق كل تصوُّر. ولا بد أنْ يكون الشَّق في المنتصف، واللسانان مُتداخلين قَدرَ بوصة. فطالما العُلبة محمولة بشكل رأسي، فإنَّ اللسانين سيعملان كحِجابين، ولن يقوى أحد على النظر. لكن إذا مالت العلبة بَعْض الشَّيء؛ آنئذٍ تنفرج أمام عينيك نافذة يُمكنك الرؤية عبرها. حيلة بسيطة لكنها تُشكِّل اختراعًا مُتْقَنًا جِدًّا؛ لِذا تَمَهَّل حين تختار الـڤينيل؛ إذِ النَّوعيَّة المُسْتَحَبَّة هي الثقيلة المرنة. وقَدْ تغدو النوعيَّة الرخيصة التي تَتَيبَّس لِوَقتها مع التقلُّبات الحراريَّة، مُشكلة. المُرْهَف أسوأ. أنت بحاجة لنوعيَّة مرنة لكن ثقيلة، ما يكفي كي لا تشغل بالك بكل انحراف ضئيل، أمَّا عَرْض النافذة فيُمكن ضبطه بسهولة بإمالة العُلْبة. يُشاكل الشَّق في الـڤينيل بالنسبة إلى المعلَّب، إذا جاز القول، تعبيرات العينين. مِنَ الخطأ اعتبار هذه الكُوَّة بنفس مستوى ثُقب الباب؛ فبتعديل بسيط جِدًّا يغدو يسيرًا أنْ تُفصح عمَّا تريد. طبعًا، ليست هذه نظرة عطف. فأسوأ نظرة ساخطة متوعِّدة ليست فِي بشاعة هذا الشَّق الَّذي يُمثِّل، دون مُبالغة، واحدة من وسائل الدِّفاع القليلة عن النَّفس التي يملكها المعلَّب الأعزل. ولكَمْ أودُّ رؤية المرءِ القادر على ردِّ هذه النَّظرة دون جزع.

فِي حال كنت بين زحام شديد، أقترح أن تثقب كذلك فتحات بالجدارين: الأيمن والأيسر. أُثقب، مستعينًا بمسمار ثَقيل، قَدر إمكانك، فرجات بمساحة قطرها ست بوصات، مُخلِّفًا مساحات بينيَّة تكفي كي لا تؤثِّر تِلك الفُرَج على متانة الكرتون. ستفي تلك المنافذ بمهمَّتين، بوصفها منافذ إضافية ومُلائمة لتبيِّن اتجاه الصوت. ومهمَا كانت بشاعتها، فنفعها سيزيد عِند المطر لفتح منافذ من الدَّاخل ودَفْع الرفارف للاتجاه للخارج.

أخيرًا، قُصَّ السِّلك المتبقي بأطوال بوصة، وبوصتين، وأربع، وسِتّ بوصات واثنِ طرفَيْ كل منها ووضِّبها كأنَّها مشابك لتعليق الأغراض على الحائط. عليك الحدُّ مِنْ منقولاتك الشَّخصيَّة إلى الحدِّ الأدنى؛ إذ فِي هكذا حال، يغدو ترتيب الضروريات مُرهقًا للغاية: مذياع؛ قدح؛ ترموس؛ بَطَّاريَّة؛ مِنْشَفة؛ وحقيبة نَثريَّات صغيرة.

أمَّا بالنسبة إلى الحذاء المطاط، فلا شيء يُضاف ذو بال، ما دام بلا ثقوب فحسب. حَبَّذا إنْ طوَّق الخيش البالي الخصر، وملأ الفراغ بين الجسد والعُلبة لتثبيت الأخيرة في موضعها. وهكذا بثلاث طبقات مُقسَّمة بالجهة الأمامية، يغدو التنقُّل بالاتجاهات كافةً يسيرًا، فضلًا عَنْ مُوَاءَمتها الكبيرة للتغوُّط والتبوُّل وشتَّى الغايات الأخرى.

مثال:

حالة «أ»

صِناعة العُلبة وحدها عملية بسيطة جِدًّا، وهي تستغرق أقل مِنْ ساعة فِي الخلاء. عمومًا، طَرْحُها على الرأس كي تغدو مُعلَّبًا هو ما يتطلَّب شجاعة معقولة. ومهما يكن مِنَ أمر، بمجرَّد الدخول فِي هذه الحُجَيْرة الكرتونيَّة المتواضعة المُنَفِّرة والخروج بها إلى الشَّوارع، يتحوَّل الرجل إلى شبح لا هو برجل ولا عُلبة؛ إذ يستحوذ على المعلَّب سمٌّ كريهٌ ما يتعلَّق بهُويَّته. أتصوَّر وجود درجة ما مِنَ السُّمِّيَّة ينطوي عليها تابلوه المرأة الأفعى بلوحة إعلانات أو الرَّجُل الدبِّ بعرض سيرك هامشي، على أنَّه حتَّى هذا أو ذاك تستطيع أُجرة الدُّخول أن تُبطله. أمَّا سُمُّ المعلَّب فليس بهذه البساطة.

فِي حالتك مَثَلًا، أثق تمامًا أنَّك لم تسمع قط عن مُعلَّب. وثَمَّة دليل على أنَّ عددًا كبيرًا منهم، لحدٍّ ما، يحيا فِي كتمان بأنحاء البلاد رُغم غياب أي إحصاءات. على أنَّي لم أسمع قطُّ أنَّ حديثًا جرى عن المعلَّبين بأي مكان؛ إذ يتعمَّد العالم الصمت المطبق حيالهم بشكل واضح.

هل سبق لك أنْ رأيت واحدًا منهم حقًّا؟

لِنَكُفَّ الآن عَنِ الاحتيال على بعضنا. بالقطع نادرًا ما يلفت مُعلَّب الانتباه؛ فهو يشبهُ شطفة كُناسة مدفوسة بين درابزين وحمَّام عمومي أو تحت كوبري صغير للمشاة. على أنَّ ثَمَّة فارقًا بين أن تكون غير لافت وغير مرئي. وبِما أنَّ المعلَّبين لا يتمتَّعون باستثنائيَّة خاصة، فثَمَّة فرصة سانحة لرؤية واحدٍ منهم، حتَّى بالنسبة إليك، ولو مرَّة واحدة على الأقل.

غير أنَّي أدرك تمامًا رغبتك في عدم الاعتراف بهذا. ولست بمفردك؛ فحتَّى في غياب أي دافع خفي، يتحاشى المرءُ بالغريزة، على ما يَبدو، عينَ الواحد مِنهم. بلى؛ إذْ يتراءى لي أنَّه لو قُدِّر لك ارتداء نظارة قاتمة ليلًا أو وضع قناع، فلا مناصَ من النظر إليك كمخلوقٍ هيَّاب جِدًّا أو بالأحرى، كرجل لا يُنتظر منه نفعٌ. يبلغ الحال حدًّا أسوأ بالنسبة إلى المُعلَّب، الَّذي يحجب جسده كاملًا؛ إذْ يصعب الاعتراض على اعتباره شخصًا مثيرًا للشكّ.

لِمَ، أتساءل، يعمد الرجل للتحوُّل إلى مُعلَّب؟ قد يبدو ذلك غريبًا بالنسبة إليك، لكن ثَمَّة حالات مُذهلة كثيرة تُفسِّر السبب في أنَّ الدوافع التافهة لا تبدو عند النظرة الأولى دوافع على الإطلاق. وحالة «أ» في صلب موضوعنا.

فِي يوم، نزل مُعلَّب أسفل نافذة بَيْت «أ» مباشرة. ورغم بذل الأخير كل جهد ليتحاشى النَّظر إليه، إلا أنه رآه. لا يهمُّ كَمْ كافح كي يغضُّ الطَّرف عَنِ المعلَّب، إذْ صار شديد الانتباه لحضوره. وكانت أولى المشاعر التي أجهزت على «أ» هي الغضب والعداوة حيال جسم غريب فرض نفسه، وإحساس بالاستفزاز والبلبلة بسبب التعدِّي على أراضيه دون وجه حقّ. لكنه قرر أن يُجرِّب ويتمهَّل في سُكات بالوقت الرَّاهن. مَهما يكن من أمر، فقدَ تصوَّر أن يقوم جيرانه الفضوليون، دائمو الشكوى عن إلقاء النُّفايات وما شابه بعمل شيء، لكن ما من إشارة على أنَّ أحدًا كان على وشك التعاطي مع المسألة. وهكذا، بسبب عجزه عن التكيُّف مع الوضع مُدة أطول، اشتكى

إلى حارس العمارة، لكن دون جدوى؛ فالمعلَّب لم يكن مرئيًّا إلا من نافذة «أ»، ومَن ينجح في البقاء بعيدًا عن الأنظار لن يتحرَّك عن قصد. وقد تظاهر الجميع غَير مرَّة، قدر الإمكان، بعدم رؤيته.

فِي النِّهاية قَصَدَ «أ» مخفَر الشُّرطة بنفسه، ولَمَّا طلب منه الضابط السَّئِم ملء بيان بالضرر، أفصح «أ» للمرَّة الأولى عن إحساسه شيءٌ يُشبه الخوف.

انفجر الضَّابط: «اسمع! أعتقد أنَّك أوضحت أنَّه كان على وشك الرَّحيل».

لَمْ يبقَ أمام «أ» إلا التصرُّف بنفسه. لذلك في طريق الرُّجوع للبيت مِنْ مخفر الشُّرطة، توقَّف عند منزل صديق واستعار بندقيَّة رشّ، وحالَما عاد لحجرته دخَّن سيجارة واطمأن، ثُمَّ ألقى نظرة مباشرة خارج الشبَّاك. فِي تلك اللحظة أدار المعلَّب نافذة العُلبة صوبه مباشرةً. لا يكاد يفصلُ بينهما ثلاث أو أربع ياردات. وكأنَّه اسْتشفَّ اضطراب «أ» الدَّاخلي، انحرفت العُلبة وانقسم ستار الـڤينيل الَّذي حال لونه تقريبًا فوق النَّافذة إلى قسمين عموديًّا. ومِنَ الدَّاخل تسلَّطت عليه عين مُبيضَّة ضبابيَّة دون أنْ ترمش. أحسَّ «أ» الدماء تندفع إلى رأسه، وانطلق يفتح الشبَّاك، ويحشو البندقية، ويصيب الهدف.

لكن علامَ؟ مِنْ مسافة قريبة كهذه قد يُفلحُ في إصابة المعلَّب بين عينيه. وإن فعل، كان سيقع في المتاعب لاحقًا. تكفي إصابته فِي مكانٍ ما آخر ليلقنه درسًا يمنعه من التواجد بالحي هُنا مرَّة أخرى. على أنَّ «أ» ولَمَّا يزال يُفكِّر في مَوْضِع غريمه داخل العُلبة وملامح جسده، وإصبعه فوق الزناد،

بدأ يحسُّ خدرًا وراح يترنَّح. سيكون من الأفضل كثيرًا لو أخلى الرَّجُل المبنى بسبب تهديد بسيط. لا يريدُ وراءه نقطةَ دمٍّ واحدة. على أنَّه لن ينتظر للأبد. ولا طائل من تكرار تهديد لم يُحقق المُراد مسبقًا مرَّة أخرى. بالتدريج تجاوز الفكرة، وانفجر الغضب داخله مُجددًا. سخن الوقت واتَّقد، فاعتصر الزناد، وأصدرت ماسورة البندقيَّة؛ ومن ثَمَّ العلبة، صخبًا يُشبهُ فرقعة التطام طَيَّة بنطلون مبلول بمقبض مِظلَّة.

في الوقت ذاته، أقدمت العُلبة على وثبة هائلة. ومهما كان ما في الوثبة من إبداع، إلا أنَّ الكرتون المضلَّع، على أي حال، ليس إلا ورقًا. ورُغْم أنَّ العلبة تعكس بأسًا معتبرًا ضِدَّ الضَّغط السطحي العام، فإنَّ هذا البأس ينهار حين تتعرَّض للضغط عند نقطة بعينها. لا بد أنَّ الرصاصة استقرَّت داخل جسد الرَّجُل بقوَّة هائلة. لكن لا صيحات الألم ولا الاستهزاء التي توقَّعها كانت وشيكة. فور وثوب العُلبة إلى أعلى، ورجوعها مرَّة أخرى فِي هدوء، كشفت عن إيماءات باطنيَّة بحركة شديدة البطء. أعيت الحيلة «أ». فاستهدف نقطة تقع إلى الأسفل بِضع بوصات يسار الخطِّ الفاصل بين أدنى يسار وأعلى يمين أركان النَّافذة. حزَّر أنَّ تكون هذه النُّقطة حيثُ تلتقي الذِّراع والكتف اليُمنى. هل تردد طويلًا فزاغ هدفه؟ لكن استجابة العُلبة كانت جبَّارة. خطرت له فكرة مريرة. الرَّجُل داخل العُلبة ليس مضطرًّا حتمًا إلى أنْ يوليه وجهه الأمامي. كان الجزءُ السُّفلي من بدنه مُغطًّى برُمَّته بالخيش، وهكذا ما مِنْ طريقة لمعرفة أي وضعية يتَّخذها بالضبط. يُحتمل أنه كان يقعد مُتربِّعًا، ورُكبتاهُ مائلتان داخل العُلبة. إنْ صحَّ هذا، رُبَّما تكون الرصاصة قد جرحت أعلى كتفه وأصابت الشِّرْيان السُّباتي.

أَلَف تخدُّرٌ مُزعج إهليليجًا حول فم «أ». وراح يركضُ فوق دَرَج داخل حلم. تريَّث «أ» بأنفاسٍ لاهثةٍ لأجل الخطوة التالية، ولم يتزحزح المعلَّب. كلَّا.. بل كان يتحرَّك بوضوح. كان الانحناءُ يتعاظمُ يقينًا، لا بالثواني بل بالدقائق. هل سيسقط أرضًا؟ وصدر عن العُلبة صوت يُشبهُ حكَّة فوق صَلْصَال لم يجفَّ تمامًا. بغتة انتصب، وكان طويلًا على غير توقُّع. سمع «أ» صوتًا كأنَّ أحدًا يطرق فوق خيمة مُندَّاة. وإذْ يبدِّل المعلَّب اتجاهه برويَّة، صدر عنه سُعال خفيض وتمطَّى. شرع بالمشي، مؤرجحًا العُلبة يمينًا ويسارًا بعض الشيء. كانت وضعيَّة وَرِكيْه ناحية الخلف بصورة تنذر بخطر، رُبَّما لأنَّه كان يميلُ للأمام. وتخيَّل «أ» أنَّ العلبة تكلَّمت، دون أنْ يتمكَّن من التقاط الكلمات، ولمَّا بلغت الشَّارع المُحاذي للعمارة، غابت وراء النَّاصية بالمكان ذاته. لَشدُّ ما أحبطه عجزه عن رؤية التعبير المُرتسم فوق وجه المعلَّب.

لَعَلَّ ما جرى لا يتجاوز مجرَّد الخيال، لكن بالنسبة إلى «أ» لاحت الأرض خلف المعلَّب الفارّ أكثر قتامة عمَّا سواها. خمسة أعقاب سجائر مُطفأة تحت الأقدام. زجاجة فارغة مسدودة بورقة. عَنْكَبوتان هائلان كانا يزحفان حول المدخل. بدا واحد منهما كأنَّه جثَّة. مُغلَّف شيكولا مُجعَّد. ثُمَّ ثلاث بقع مسودَّة متعاقبة بضخامة إبهام. هل كانت بُقع دم؟ تساءل. كلَّا، بل هي لا محالة بلغم أو بُصاق. وتكلَّف «أ» الابتسام بعض الشيء كأنَّما يعتذر. حسنًا إذن، لقد أصاب هدفه.

خلال نحو نصف شهر، بدأ «أ» ينسى المعلَّب تقريبًا. على أنَّ قلقًا أصابه

حيال استعمال الطريق المُختصر إلى المحطَّة لمّا يذهب للعمل، وكي يتجَنَّب الزقاق الضيِّق، بدَّل دربه لا شعوريًّا. مع ذلك لَمْ يكفَّ عن النظر مِنْ نافذته بمجرَّد استيقاظه من النَّوم وأول ما يفعل حين يعود إلى شقَّته. ولولا أنَّه قرر الدخول في برَّاده، لكان تعافى من هذه العادة بالوقت المناسب، لكن...

كان البرَّاد الجديد، والمزوَّد بمقصورة تجميد، عاديًّا جِدًّا، وقَدْ جاء داخل عُلبة كرتون مضلَّع. إضافةً إلى ذلك، كانت بالمقاس الملائم تمامًا. وبمجرَّد إفراغ محتوياتها، بدأ «أ» بالتفكير في المعلَّب. سمع الحمحمة مرَّة أخرى. وأحسَّ كأنَّ دوي رصاصة بندقيَّة الرَّشِّ منذ أسبوعين يتردد من جديد. كان «أ» مُضطربًا وقرر على الفور توضيب العُلبة. لكنَّه بدلًا مِنْ ذلك غسل كفَّيه وتمخَّط، ثُمَّ بإمعانٍ كبير، تغرغر مرَّة بعد أخرى. إنَّ الرَّصاصة المرتدة التي حلَّقت حول جمجمته أصابت لا محالة وظائف دماغه بالخلل. لذلك، بعد أن راقب الحي بعض الوقت، أسدل الستائر فوق النوافذ وزحف بحذرٍ شديدٍ داخل العُلبة.

كانت قاتمة في الدَّاخل، وقد فاحت منها الرائحة المُحببة للطلاء العازل للماء. بدا المكان شبيهًا بالبيت. وكانت ذِكريات «أ» قاب قوسين مِنَ البزوغ، إلا أنَّه فشل بالإمساك بها. أراد البقاء على حاله للأبد، لكن في غضون أقل مِنْ دقيقة عاد إليه رُشده وزحف للخارج. وقرر، يراوده شعورٌ ضئيلٌ بعدم الارتياح، الاحتفاظ بالعلبة بعض الوقت.

في اليوم اللاحق، لَمَّا عاد من العمل، اقتطع «أ» نافذة للرؤية من العُلبة باستعمال سكين، مبتسمًا بمرارة؛ ومن ثَمَّ حاول وضعها فوق رأسه مثل

المعلَّب. على أنَّه خلعها على الفور، رُبَّما كان يبتسمُ بمرارة! لقد عجز عن استيعاب ما كان يجري. ركل العُلبة إلى ركن الحجرة بقسوةٍ وثبات، لكن دون قوَّة تكفي لتدميرها.

في اليوم الثَّالث استعاد اتزانه تقريبًا وجرَّب النظر مِنْ خِلال نافذة الرؤية. لا يستطيع تحديد ما أدهشه هكذا الليلة قبل الماضية. لا ريب أنَّه أحسَّ تغييرًا، لكن مثل هذه الدَّرجة مِنَ التغيير كانت مُشتهاة. سقطت الأشواك عن المشهد بأكمله ولاحت الأشياء ناعمةً مدوَّرة. اعتاد وجود البُقع فوق الحائط فلم يعُد وجودها يؤذيه بالمرَّة... مجلات قديمة مُكدَّسة كيفما اتُّفق... جهاز تلفزيون قديم بهوائي مائل... عُلب صفيح فرغت من اللحم المملَّح بدأت تفيض منها أعقاب السجائر... من جديد غدا مُدركًا رغمًا عنه لهذا الانزعاج اللاواعي الَّذي يثيره بداخله كل شيء يمتلئ بالأشواك على غير توقُّع. رُبَّما كان عليه أنْ يُنحِّي جانبًا تحامله الَّذي بلا طائل ضد العُلب.

في اليوم اللاحق شاهد «أ» التلفاز مرتديًا عُلبة.

مُنذُ اليوم الخامس، عدا أثناء النَّوم والأكل والتغوُّط والتبوُّل، عاش داخل عُلبة طالما كان فِي حُجرته. لَمْ يكن يعتقد بصورة خاصة أنَّه يفعل شيئًا شاذًّا، باستثناء وخزة من ضمير. بل على النقيض، أحسَّ أنَّ ما يقوم به أكثر طبيعيَّة وأنَّه على راحته أكثر. حتَّى فِي حياة العزوبية كان محكومًا إلى الآن بالضرورة، لقد انقلب العُسر يُسرًا.

اليوم السَّادس. أخيرًا جاء أول يوم أحد. لم يتوقَّع زوَّارًا ولا أماكن

يخرج إليها. منذُ الصباح، لزم عُلبته. كان مطمئنًا وعلى راحته، على أنَّ ثَمَّة ما كان ينقصه. عِند الظَّهيرة أدرك في نهاية المطاف ما كان يلزمه. فقَصَدَ البلدة وأنجز مشترياته سريعًا: قصريَّة؛ بطَّارية؛ ترموس؛ عُدة رحلات؛ شريط مطَّاطي؛ سلك؛ مرآة بحجم راحة اليَد؛ سبعة أقلام ألوان؛ إضافةً إلى أطعمة لا تحتاج إلى تجهيز. لَمَّا عاد إلى بيته دعَّم العُلبة بالشريط المطاطي والسِّلك، بعدئذٍ، قام بتخزين باقي المشتريات، وأوصد على نفسه داخل العُلبة. علَّق «أ» المرآة فوق الجدار الدَّاخلي بالجانب الأيسر مِنَ العلبة بجانب النَّافذة – مِنْ ثَمَّ دهن شفتيه باللون الأخضر بواحد من أقلام الألوان على نور البطَّارية. بعدها رَسَمَ حول عينيه ألوان قَوْس قُزَح السبعة، مبتدئًا باللون الأحمر، في دوائر يتسع قُطرها بالتدريج. صار وجهه أكثر شبهًا بطائر أو بسمكة، وأبعد ما يكون عن وجه آدمي. لاح المشهد كما يبدو من مروحيَّة تُراقب حديقةً ملاهٍ. رأى جسده الضئيل المنكفئ يعدو داخل العُلبة، ولَمْ يكن ثَمَّة تبرُّج يليق بها. فِي النهاية، فكَّر، سيغدو هو نفسه المحتوى الملائم للحاوية. وللمرَّة الأولى استمنى بشكل عادي داخل العُلبة. وللمرَّة الأولى نام، متكئًا برأسه على جدارها.

في الصباح التَّالي – بعد مرور أسبوع كامل – خرج «أ» سِرًّا إلى الشَّوارع والعُلبة فوق رأسه. ولَمْ يعُد.

لَوْ كان «أ» ارتكب أي خطأ، فهو مبالغته بعض الشيء في التفاته للمُعلِّبين أكثر مما كان يفعل الآخرون. لا يُمكنك الاستهزاء بـ «أ»؛ إذْ لو كنت أحد

هؤلاء الَّذين حلموا بـ، أو وصفوا في أفكارهم ولو مرَّة، مدينة المجهولين التي تعيش لأجل قاطنيها مِنَ النَّكرات، فعليك أن تكترث. لأنَّك مُعرَّض دائمًا للمخاطر عينها شأن «أ»، تلك المدينة مفتوحة الأبواب للجميع، حيثُ لن تكون، حتَّى بين الأغراب، في حاجةٍ إلى اتخاذ موقف الدِّفاع، وحيثُ تستطيع السير فوق رأسك أو النَّوم على جانب الطَّريق دون أن تُلام. حيثُ يُمكنك الغناء إن كنت تباهي بقدرتك على الغناء. وحيثُ، وقد قمت بكل ذلك، تستطيع الامتزاج بالحشود المغمورة متى تشاء.

لذلك سيندر توجيه بندقيَّة نحو مُعلَّب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

وَسيلة احترازيَّة...

إذا دعت الحاجة.

قد أبدو الآن كمَن يكرر نفسه، على أنَّي بالوقت الحاضر، مُعلَّب. وأريد الكتابة عن نفسي لبعض الوقت.

أختبئ من المطر هُنا؛ أسفل كُوبْري، برفقة تلك الدَّفاتر. يمر طريق المُحافظات الثَّالث السَّريع فوق قناة. خمس أو ستَّ عشرة دقيقة بعد التَّاسعة وفق ساعتي غير الدَّقيقة على الإطلاق، وسماء الليلة المُظلمة تنشرُ طرف قميصها المنسوج مِنَ المطر خفيضًا فوق سطح الأرض. وكان يهطلُ منذُ الصَّباح. تمتدُّ مستودعات الأسماك وسقائف الأخشاب بعيدةً على مرمى البَصر، وقَدْ غابت المساكن وغاب العابرون. حتَّى أضواء الشَّاحنات الأماميَّة

المسكوكة والمترامية فوق الجسر لا تبلغُ هذا المدى. بطاريَّة مُعلَّقة بالسَّقف تضيء الأوراق تحت كفِّي. رُبَّما هي السبب وراء ظهور الحروف الَّتي يخطُّها قلمي الجاف سوداء تقريبًا في حين ينبغي أن تكون خضراء.

تُشبه رائحة الشاطئ النديَّة بعض الشيء أنفاس كلب، والمكان لا يصلح مخبأً مِنَ المطر على الإطلاق؛ ذلك أنَّ الرذاذ يتطاير بكل اتجاه كأنَّما يندفع مِنْ بخَّاخ. عوارضُ الكُوبْري بالغة العُلوّ. هذا المكان برُمَّته غير مُناسب. كلُّ شيء – التَّواجد في هكذا مكان في هكذا توقيت – غير طبيعي ولا يليق بمُعلَّب. مثلًا، في استعمال بطارية كهربائيَّة إسراف مُريع؛ فأمثالنا مِمَّن يحيون على قارعة الطريق يتعيَّشون إجمالًا من خلال الاستعانة بأغراض يلقيها الآخرون بالشَّوارع. لذلك تبدو الاستعانة ببطارية كهربائيَّة لأجل كتابة ملاحظات ليست إلا ترفًا خالصًا؛ خاصةً في وجود هذا العدد من مصابيح الشوارع الجديدة التي توفِّر مِنَ النور ما يكفي لقراءة جريدة أثناء الاختباء من المطر.

مضت بطريقةٍ ما ساعتان منذُ جلست في هذه البقعة غير الملائمة لمعُلَّب. لكنني مَدِينٌ بتفسير. بالطبع جدية مبرراتي ليست بالأمر المهم؛ إذْ لا أثق بقدرتي على الإقناع. ولن تُصدَّق تلك المبررات على أي حال. لكن الحقيقة تظل كما هي، شئنا أم أبينا. لقد بعت هذه العلبة لامرأة ما. ثَمَّة امرأة تنوي شراء هذه العلبة لقاء خمسين ألف يَنّ، وأنا أنتظرها الآن لإتمام الصفقة. لو كنت تجد صعوبة في تصديق ذلك، فأنا الآخر مُعلَّق بين التصديق والإنكار. ولا سبيل للتصديق. إذْ لا أجد مبررًا يدفع أحدًا للاستعداد لدفع هذا القدر الهائل من النقود لقاء عُلبة ورقيَّة بالية.

إذن لِمَ استجبت لمثل هذا الإغراء ما دمت لا أصدِّق أنَّ المرأة جادَّة؟ السبب بسيط. لم يكن ثَمَّة مبرر للشكّ، ليس إلا. مثل شيءٍ زاهٍ استوقفني على جانب الطريق، كانت المرأة تتألق كأنَّها شظية مِنْ قنينة بيرة مكسورة في شمس المساء. يدرك المرء ألَّا نفع مِنْ وراءها، لكن رغم ذلك يجد في النور الَّذي يعكسه الزجاج فتنةً غريبة. وعلى غير توقُّع يراودك إحساس من يشهد بُعدًا آخر للزمن. ساقاها، بخاصة، كانتا رقيقتين ورشيقتين مثل قضيبَيْ سِكَّة حديد تراهما مِنْ فوق ربوة، يترامیان بعيدًا. خطواتها خفيفة دافئة حيثُ، شأن السماوات المفتوحة، لا شيء يمنع الرؤية. ما من سببٍ يدعو لتصديقها، لكن ما من سبب أيضًا للشكِّ فيها. كنتُ، دون أن أعي، بلا حول ولا قوَّة أمام ساقيها.

بالطبع، أنا نادم جِدًّا الآن. أو رُبَّما يكون من الأحرى القول أنَّني حزين جِدًّا بسبب الهاجس الذي يستبدُّ بي أنَّني لا ريب نادم. إحساس حقير. لكن بصرف النَّظر عن الطريقة التي أنظر بها إلى هذا الإحساس، فإنَّه لا يليق بمُعلَّب. أبدو كمن فرَّط في حقوق المعلَّب. ولو كان ثَمَّة أمل، فما من شيءٍ يفوق في روعته أنْ يغدو وجودي غير قابل للكشف حتَّى بالنسبة إلى مُحلل مفرط النشاط. أثَمَّة تحوُّل ما يطرأ داخل عُلبتي؟ رُبَّما نعم. بعد تفكير عميق، عقب التقلُّب بين أرجاء تلك البلدة، يساورني إحساس أنَّ سطح العُلبة أضحى هشًّا وعُرضة للعطب بصورة مُفزعة. لا ريب أنَّ البلدة تحمل لي حقدًا ما.

وطبعًا، فكرة اختيار هذا الموضع تعود جزئيًّا للمرأة، حتَّى وإن كنت أنا

من اقترحه. فالخطر الَّذي يُحدق بي يُحدق بها. ثَمَّة تمثال حجري عند سفح الكُوبْري يُمثِّل «چيزو» حارس الأطفال الموتى، بمريول أحمر، نُصب هُناك كما يبدو في ذكرى أطفالٍ لقوا حتفهم غرقًا. ويافطة بيضاء تحظر النزول في الماء، كُتبت حديثًا إلى جانب باب دَرَج حجري، يهبط إلى حيثُ يرسو قارب أعلى النهر بعض الشيء. لكن المطر لحسن الحظِّ بلل الڤينيل فوق نافذة الرؤية، وتحسَّن وضوح الصُّورة بسبب انطفاء اللمعان الشاحب. تتقاطع الجسور الخرسانية بمحاذاة القناة وتميل على راحتها قُبالة النَّافذة، وتمتدُّ الأنوار الخافتة لسفينة شحن ترسو إلى رصيف المرفأ، متمايلة قليلًا بفعل التيار الَّذي يفيض بعض الشيء على الممشَى الممتد فوق رأس الجسر. عابرو السبيل سيتجلَّى وجودهم كنقاط حبر فوق ثوب أبيض.

هُناك! عبرت هرَّة الطُّوارَ للتوِّ. هرَّة ضالة بفراء متلبِّد قذر. حُبلَى لا ريب ببطن بيضاء منفوخة مُثقلة بحمولتها مِنَ القطيطات. تحمل أذناها المُمزقتان أثار عِراك. ولأنَّني أستطيع تبيُّن مثل تلك التفاصيل، حتَّى مع جريان قلمي بسلاسة، فرُبَّما لا يكون هناك ما يدعو للقلق. فمهما يكن، لَنْ تتمكَّن المرأة، وإن شاءت، مِنْ مباغتتي بمثل تلك السُّهولة.

بالطبع، أشدُّ ما أرغب فيه هو مجيئها إلى هنا من تلقاء نفسها كما وعدت. لكن كما ترى، ثَمَّة التباس زائد؛ إذْ أعجز عن استيعاب سبب دفع خمسين ألف يَنّ لقاء هذه العلبة – ولِمَ قد ترغب في التفاوض في مكان كهذا؟ ما من سببٍ يجعلني أصدقها، وما من سبب أيضًا يجعلني أشكُّ بها. ما من سببٍ للشكّ، ولا التصديق. عنقٌ عابر شفَّاف رشيق. عمومًا البقاء يقظًا

هو الخيار الأمثل. وبالتالي أداتي الاحترازيَّة البسيطة. إن ساءت الأمور، سأترك تلك الدفاتر كدليل. وسأواجه الموت دون رغبة في الانتحار. فلن يكون موتي انتحارًا ولو بطريق الخطأ، بل قتلًا بلا أدنى شكّ. فبصرف النظر عن مدى رفضي للعالم واختبائي منه داخل عُلبة، فإنَّ المعلَّب بصورة جوهريَّة مُحِب...

(وقفة. نَفِدَ الحبر. ألتقط قلمَ رصاصٍ قديمًا من حقيبتي. دقيقتان ونصف لشحذه. من حُسن الطَّالع أنْ لم أُقتل إلى الآن. بدَّلت بقلمي الحبر آخرَ رصاص على سبيل التجربة، بينما بقيت كتابتي كما كانت من قبل تمامًا).

الآن، ماذا كنت أكتب؟ رُبَّما كان آخر ما كتبت هو الحروف الأولى مِنْ كلمة «مُختلفة». يجوز قصدت كتابة: «إنْ مُعلَّبًا يختلفُ عن مُتشرِّد» أو ما شابه. بالطبع، يبدو أنَّ المُجتمع لا يُدرك بصورة واضحة الفارق بين الاثنين، شأن المعلَّبين أنفسهم. إذْ تجمعهما في الواقع أوجه شبه كثيرة. فكلاهما مثلًا، لا يملك بطاقة هُويَّة ولا مهنة ولا مكانًا ثابتًا للإقامة ولا إشارةً للاسم أو العُمر أو مكان أو توقيت محددين للأكل والنوم. ومِنْ ثَمَّ لا يقصُّون شعرهم أو يغسلون أسنانهم، وهم نادرًا ما يستحمُّون، كما أنَّهم ليسوا في حاجة للنقود إلا في القليل النادر من أجل التعيُّش اليومي، وكثير من الأمور الأخرى.

لكنَّ الشحَّاذين والمتشرِّدين يعون تمامًا الفارق بينهم بوضوح. ما أكثر المرَّات التي أصابوني فيها بالانزعاج. سأكتب عن هذا الأمر في وقتٍ ما حين تسنح لي الفرصة، لكنَّ شحاذي الفابنْ بخاصة عدائيون تجاهي؛

ففي اللحظة التي أقترب فيها مِنْ مِنْطَقَة الشحَّاذين والمتشردين يُذيقونني مرارة ردِّ فعلهم القريب مِنَ العصبيَّة المَرَضيَّة والأبعد ما يكون عن عدم الاكتراث. يرمقونني بازدراءٍ سافرٍ وحقدٍ يفوق ما يحمله من يسددون نفقات عيشهم اليوميَّة ويقطنون بعنوان مُسجَّل. في الواقع، لم أسمع قطُّ أنَّ شحاذًا تحوَّل إلى مُعلَّب. ولمَّا كنت لا أنوي التحوُّل إلى شحَّاذ؛ كذلك هم لا نية لديهم للتحوُّل إلى مُعلَّبين. رغم ذلك لن أزدريهم. المُدهش أنَّه حتَّى الشحَّاذون يشكِّلون جزءًا من الضواحي التي ينتمي إليها أهل المدينة. رُبَّما أنت أحطُّ من شحاذ حين تغدو مُعلَّبًا.

تتمثَّل شكوى المعلَّب المزمنة في تعطُّل إحساسه الجوهرى بالاتجاهات. في أوقاتٍ كهذه يتأرجح محور الأرض، ويعاني المعلَّب غثيانًا شديدًا يُشبه دُوار البحر. لكن ما من علاقة نِهائيًّا لسببٍ ما مَعَ إدراكي أنَّني أصبحت متسرِّبًا اجتماعيًّا، ولا أحسست بالذنب مرَّة بسبب العُلبة. ذلك أنَّني أحسُّ، بشكلٍ شخصي، وبغضِّ النظر عن كونها طريقًا مسدودًا، أنَّها مدخل لعالم آخر. لا أدري إلى أين، لكنَّها مدخل لمكان ما، عالم ما. أقول هذا، لكن المدخل لذلك العالم الآخر لا يختلف كثيرًا عن زُقاقٍ مسدود، في حال كتمت غثياني وأنا أتفحَّص العالم خارج نافذتي الصغيرة. لِنكفَّ عن استعمال الكلمات الرنَّانة، فما أعنيه هو أنَّني أَعَاف الموت باللحظة الرَّاهنة.

لقد تأخر الوقت جِدًّا على أي حال. أتساءل في الواقع إن كانت ستتراجع عن وعدها. لا زلتُ أحمل سبعة أعواد ثقاب، والتبغ الرَّطب ماسخ قطعًا.

وعود... وعود...

أحتسي قليلًا مِنَ الويسكي كي أتخلَّص من المرارة. ولم يبقَ في زجاجتي إلا أقل من الثلث.

لكن لا بأس إن لم تحضر. هل يثير عدم الوفاء بوعدٍ أي غضب يُذكر؟ بل إنني سأستغرب جِدًّا إن جاءت كما قالت. لكن ماذا إنْ أوفت بوعدها وأرسلت بديلًا عنها؟ تملؤني ثقة أنَّ هذا ما سيجري. سيجيء بديل لها. ولديَّ أيضًا فكرة عامة عن ماهية هذا البديل. كلاهما متورِّط في التحليل الأخير. سيستدرجني بديلها أسفل الكُوبْري حيث أُقتل في حين تكتفي هي بدور الطُّعم. ولأنَّني ضحيَّة بالفطرة – في الواقع، كوني مُعلَّبًا؛ أي أنَّني والعدم سواء، هو ما يحُول بينهم وبين قتلي مهما حاولوا – فإنَّ دور القاتل يئول آليًّا إلى غريمي. لا يعني ذلك أنَّ كل شيء يسير وفق المنطق. لذلك أنا مستعدٌّ لمواجهة الهجوم، وسطح المُنعطف الرَّطب مُتحدِّر وزَلِق. أتخيَّل بالطبع أنَّه سيحمل شيئًا حادًّا حين يجيء وقت استخدام القوَّة. وأتساءل في قرارة نفسي، على العكس مما يساورني من مشاعر، إنْ كنت لا أريد الموت حقًّا.

مِنْ ثَمَّ، صار الوقت والمكان ملائمين الآن للضحيَّة، كما أنَّ سرعة المدِّ مثالية هي الأخرى. يُطوِّق الكُوبْري سميك البنيان؛ عتيق الطراز جِدًّا؛ الَّذي يمتدُّ مثل قبضة أخيرة؛ ثَغر القناة الأشبه بقمع ابتلعته مياه البَحر حين ارتفع المدّ. ويرتفع الجُزءُ الأوسط مقوَّسًا كي يسمح للسفن بالمرور، في حين تبدو العّوارض الخشبيَّة مِنْ أسفل الجسر عالية بشكل واضح. ولأنَّني مُعلَّب يتجوَّل وهو يحمل حيِّزًا عازلًا للماء فوق ظهره مِثل حلزون،

فلا داعي للقلق من المطر الَّذي ينهمر مِنَ الجوانب أو ارتفاع العوارض. نقطة ضعف العُلبة، في رأيي، إذا ما قورنت بحجرة حقيقيَّة أنَّها بلا أرضيَّة. هكذا يصعُب تحاشي الرياح الرَّطبة إن هبَّت مِنَ أسفل، مهما فعلت. على أنَّه من الممكن التفكير في الأمر على نحو آخر: فبسبب غياب الأرضيَّة تحديدًا، يُمكنني القعود بالقرب مِنْ حافة الماء دون خوف من الغرق، حتَّى إن ارتفع منسوب المياه بغتةً بسبب المطر. فطالما لم يتجاوز الماء حذائي طويل الرَّقبة لن أعجز أبدًا عن النهوض وتغيير المكان. أمَّا من تنقصهم تلك الخبرة حَقًّا، فسيبدو هذا استرخاءً أحمق. إلى جانب أنَّ المدَّ لَن يستمر من الآن فصاعدًا؛ وبالتالي فما مِنْ مدعاةٍ للقلق بشأن ارتفاع منسوب الماء أكثر مِما هو. يشطر عُشب بحري أدْكَن المشهد إلى قسمين: علوي وسُفلي، كأنَّ مسطرةً ما جعلته يُحاذي أساس الجسر قبل أن تفسده مُخلَّفات النِّفْط.

تبدأُ موجة منفوشة قاتمة وُلِدت بمكانٍ ما في محو رقرقة الماء، وكلمحٍ بالبصر تتشكَّل شيئًا فشيئًا دوَّامات واسعة وأخرى صغيرة، ببطء مثل ذوبان عسل الأرز الخام، أسفل ركائز الجسر. هي في حقيقة الأمر دُوَيْمات صغيرة بعض الشيء، لكن صناديق الأسماك الخشبيَّة وشظايا سِلال الخيزران والحاويات البلاستيكيَّة كانت تقتربُ حائرة، تلفُّ مترنِّحة بغتة وتنقلب عدَّة مرَّات، ثُمَّ تتباطأ سرعتها قبل أن تبتلعها الدَّوامات جُملة واحدة.

بلى، في واقع الأمر، إذا دعت الحاجة سأربط تلك الدَّفاتر بالصناديق الخشبيَّة وسلال الخيزران. يلوح خيالُ امرأةٍ ما فوق الجسر، إنْ لم تكن هي، سأضع الدَّفاتر في الحال في حقيبة ڤينيل وأغلق الفوَّهة بعد أن أنفخها ثُمَّ ألفُّها عِدَّة مرَّات بالسلك الرَّفيع الَّذي ثنيته. سيستغرق ذلك نحو اثنتين وعشرين أو

ثلاثًا وعشرين ثانية، بعدها سأربط شريط ڤينيل أحمر بالسِّلك، تاركًا أطرافًا واضحة طويلة. سأثبِّتُ بالشريط حجرًا بحجم قبضة اليدِ مستخدمًا ورقة ملفوفة، وسيستغرق هذا أقل من خمس ثوانٍ. المسألة بأكملها لن تستغرق أكثر من ثلاثين ثانية، ومهما تطُلْ، فلا ينبغي أن تتجاوز الدَّقيقة الواحدة. إلى ذلك، لن تهمَّني سرعة بديلها فنزوله الدَّرج الحجري إلى حيثُ المرسَى وعبور المُنعطف الصخري الزَّلِق كي يصل إلى هنا سيستغرق دقيقتين أو ثلاثًا. لا أخشى قِلَّة الوقت؛ ذلك أنَّه ما أن يُبدي أقل بادرة مثيرة للشكّ، حتَّى أرمي الحقيبة مُباشرة داخل التيار. لا ريب أنَّها ستبتعد قدرًا معقولًا بالحجر المربوط. لهذا لا أخشى ما سيبذله من محاولات كي يصل إليها؛ ذلك أنَّه لن يصل إليها أبدًا. ستتجه الحقيبة مباشرة ناحية الدوَّامات، لذلك أتساءل إن كان سيغطس ويلاحقها في حال كان سبَّاحًا خبيرًا؟ لا، لا ريب سيتحاشى أي شخص ذي خبرة ارتكاب مثل هذا العمل الأرعن. فحتَّى عبور القوارب الصغيرة بات محظورًا عقب انحسار المد، على أنَّه سينتبه لوجود الدوَّامات دون قراءة اليافطة فوق الجسر. أمَّا الحقيبة فبعد أن تترنَّح قليلًا سيجرفها البحر في نهاية المطاف، وبعد ساعات أو أيام سينفكُّ رباط الأوراق وينفلت الحجر، وستجتذب الحقيبة الممتلئة بالهواء الانتباه بشريطها الأحمر، إذْ تنجرف مع مَدٍّ وجَزْر الشاطئ.

وهَكَذا، إنْ كان الرجل الَّذي أطلق عليَّ الرصاص هو من سيظهر الآن، فطبقًا لمحتويات الدَّفاتر حتَّى هذه اللحظة، سيغدو المتَّهم بمحاولة قتلي لا محالة. مُحال؛ فحتَّى لو حددت اسمه هُنا في هذه الصفحة، أشكُّ أنني أستطيع العثور على مَن يصدقني. وسأُضعف من مِصداقية الدفاتر بدرجة

أكبر لو حاولت شرح الدوافع، بل قد يبدو الأمر برُمَّته محض كذب. على أنَّي أمعنت التفكير؛ فثبَّت نيجاتيف أبيض وأسود بشريط سولِفان في الركن العلوي الأيمن بالغطاء الدَّاخلي. قد لا يكون واضحًا للعيان لكنه سيضع دون ريب أساسًا لدليل راسخ. النيجاتيف يصوِّر مشهدًا خلفيًّا لرجل في منتصف العمر يُهرع مبتعدًا وهو يُخفي بندقيته الرشّ تحت ذراعه، وفوَّهتها مصوَّبة لأسفل بمحاذاة جسده. أفترض بعد تكبير الصورة، أنَّك ستتمكَّن من تبيُّن تفاصيل شتَّى بوضوح أكبر. لم يكن أنيقًا، لكن ثيابه متينة؛ من خامة جيدة. رغم أنَّ التجاعيد كانت تغطِّي بنطاله. أصابعه مُكتنزة مُدملكة لكن أنامله مدوَّرة كأنْ لم تشتغل البتَّة. ثُمَّ يأتي دور حذائه الباهظ الأشد وضوحًا. حذاء واطئ يُشبه مشَّاية، مُجوَّف رفيع النعلين. لا ريب أنَّه يمتهن عملًا ما يجعله يخلع ويلبس ذلك الحذاء عددًا من المرَّات يفوق المُعتاد.

لا ريب أنَّ تلك الدَّفاتر، إن يشأ من يعثر عليها، ستَجعل صاحبها ثريًّا صغيرًا.

هُناك! تبدأ الدوَّامات بالازدياد. لا داعي مطلقًا للخوف من انكشاف أمري. تدوس الشاحنات الثقيلة المُحمَّلة بالأسماك المُجمَّدة أو لُباب الخشب فوق الألواح الخرسانية السميكة أعلى الكُوبْري، تُزَمِّر في رواحها ومجيئها الَّذي لا ينقطع. مستغرقون في ضجَّتهم كأنَّهم ماشية ضريرة. هذا مكان مثالي لا للتخلُّص من الجثث فحسب، بل من الأحياء من البشر أيضًا. وطالما كان مكانًا مثاليًّا للقتل، فلا ريب أنَّه مثالي كذلك لقتلي.

لقد نَفِدَ رصاص القلم. هيَّا، هيَّا... لقد نلت كفايتي. هل ستأتي المرأة حقًّا أم لا؟

(أعجز عن سَنِّ القلم بهذه السكين الصدئة. غدًا، إنْ قُدِّر لي العيش حتَّى ذاك الحين. عليَّ تأمين قلمَيْ حبر أو ثلاثة. الأقلام التي تُباع عِند مدخل الخدمة بالمدرسة المتوسطة، هي الأطول عمرًا).

إضافتان أو ثلاث حول الدليل الفوتوغرافي المُثبَّت بالغطاء الدَّاخلي.

وقت إطلاق النَّار: ذات مساء منذُ نحو أسبوع أو عشرة أيام خَلَت (تعطُّل الإحساس بالوقت هو واحد من عِلَل المعلَّب المُزمنة).

مكان إطلاق النَّار: الطَّرف الجبلي لجدار مصنع صلصة الصويا الأسود الطويل (يميل ظلُّ الحائط بِمقدمة الصورة).

آنذاك كنت أقف هُناك طلبًا للراحة. دوَّى بغتة صخب عنيف كأنَّ حصاة داستها شاحنة فرشقت العلبة (كان ذلك يتكرر مرارًا، فأتمدَّد حينئذٍ بجانب الطريق). لكن ما من شاحنة مرَّت، ناهيك عن أي عَرَبة بثلاث عجلات. في الوقت ذاته اِنْغرز ألم قوي في كتفي اليُسرى كمن يقضم ثلجًا بضرس مسوَّس، وكفَّ البَوْل عن التدفق. أطللت عبر الشقِّ الصغير في جانب العُلبة وأبصرت غصون شجرة توت عتيقة انجرفت إلى النقطة التي بدأ

فيها المنعطف، تمامًا، في محاذاة حقل البطاطا الحلوة بالمفرخة، وحيثُ انتهى جدار مصنع الصويا وصار مُنحدرًا مفسحًا الرصيف لمشى يغطيه الحصى (يظهر جانب من المشهد بالناحية اليُسرى مِنَ الصورة). ينهض رجل بعيدًا عن ظلِّ الشَّجرة (كأنَّه يهرب). رفع عصًا ما يبلغ طولها نحو ثلاثة أقدام مِنْ فوق كتفه وتأبَّطها، عندئذ سقطت عليها شمس المساء فتألَّقت بلون أسود مُحمرّ. أدركت على الفور أنَّها بندقيَّة رشّ؛ فجهَّزت الكاميرا دون حتَّى أن أعيد ترتيب ثيابي بعد أن تبوَّلت (في الحقيقة، كنتُ مصوِّرَ فوتوغرافيا حُرًّا قبل أنْ أغدو مُعلَّبًا. ولأنَّني بتُّ مُعلَّبًا في خِضمِّ حياتي المِهنيَّة، كنت لا أزال أتجوَّل حاملًا الحدَّ الأدنى مِنْ معدات التصوير بلا سبب مُعيَّن). التقطت ثلاث صور متتابعة مبدلًا في كل مرَّة اتجاه الصندوق (لم يكن لديَّ وقتٌ كافٍ لضبط المسافة لكن الكاميرا كانت جاهزة على سرعة غلق واحد من مائتين وخمسين جزءًا من الثانية، وهكذا كان المشهد يقع في بؤرة التصوير تقريبًا). وثب الرَّجُل جانبًا وعبر الطَّريق ثم غاب عن الأنظار.

كل شيء تقريبًا حتَّى الآن يُمكن إثباته من خلال تحليل الفيلم. لكن بدءًا من هذه اللحظة لا شيء على الإطلاق يستند إلى دليل موضوعي. لذلك لا أنتظر مِنك أو مِمَّن يعثر على هذه الدفاتر أن يصدِّق شهادتي أو يتقبلها.

التخمين الأول بشأن شخصيَّة القَنَّاص الحقيقيَّة.

أودُّ أن ترجع إلى «حالة «أ»». ذلك أنَّ المصابين بعدوى الحياة داخل علبة ويسعون إلى التحوُّل إلى مُعلَّبين، يميلون للإفراط في الردِّ الَّذي قد يصل إلى إطلاق النار على الأخيرين من بندقيَّة رشّ. ولذلك لم أصرخ طلبًا

للمساعدة أو أحاول مطاردته، بل جاء على بالي أنَّ المرشحين للعيش داخل عُلبة زادوا واحدًا، وساورني إحساسٌ أنَّني قريب منه. هكذا اِنْحسرت آلام كتفي وانقلبت إلى شعور بالتوهُّج. مِنَ الآن فصاعدًا أصبح القنَّاص هو من عليه تكبُّد آلام تفوق آلامي مئات المرَّات. ما من حاجةٍ لإنزال قِصَاص أكبر به.

شَعرتُ بالبلل، وأنا أدقق النظر بالطريق المائل المهجور عقب اختفاء المُسلَّح، مثل حنفيَّة مياه مكسورة. وانبعث الدُّخان الَّذي فاحت منه رائحة تشبه سُكَّرًا مُحترقًا مِنْ مصنع الصويا، وتكدَّس دون توقُّف عند أطراف الظلال الحادة التي تصنعها شمس المساء، معتمًا الأركان. بمكانٍ ما بعيدًا ينبعثُ صرير رتيب ناجم عن تقطيع الحطب. وأبعد قليلًا، الصَّوت المُتَوَفِّز لمُحرِّك درَّاجة سباق ناريَّة. لكن بعد أن مرَّت ثانيتان أو ثلاث، غاب كل ما يشير إلى وجود بشر على الإطلاق. تُرى هل تقهقر السكَّان مثل يرقات إلى الأنفاق؟ مشهد مفرط في صمته، أثار فيَّ رغبة غامرة لرؤية بشري... أيًّا كان. على أنَّه من الصعب أن تُخادع عينَيْ مُعلَّب، ذلك أنَّه يرى؛ إذْ يُطل مِنَ العُلبة، الأكاذيب والنيَّات السريَّة المستترة وراء المشهد. هذا المشهد الَّذي يسعى دون لبس لتعتعتي من خلال ادعائه أنَّ الطريق أمامي طريق مُحال أن يضل المرء فيها. كان يهدف إلى أن أستسلم، على أنَّني لسوء حظِّه، لن أنقاد إليه. كنت أريد فحسب بعضًا من الرَّاحة في وقت فراغي. وكانت أي منطقة قريبة من محطَّة أو حي تسوُّق مزدحم أكثر ما يلائمني. كنت أحبُّ تلك الأماكن صراحةً وأحسُّ أنَّني على راحتي فيها – ثلاثة أو أربعة طُرق مُستقيمة تزعم لنفسها أنَّها متاهة. لهذا السبب لا أحبُّ البلدات الريفيَّة

التي تمتلئ بالكثير جِدًّا من الطُرق المتعرِّجة. وتحرَّكت مشاعري دون قصد حين فكَّرت في حَيْرَة المُسلَّح التائه في طريق كهذا.

صارت أصابعي، وأنا أدعس الجُرح، لزجة وغطَّتها دماء، فانتابني بغتة شعور بعدم الارتياح. رُبَّما ما كنت عَتَلتُ همًّا لو كُنَّا في أيٍ مِنَ أحياء طوكيو الأكثر نشاطًا، لكن ما من مُتَّسع لِمُعلَّبين داخل هذا القطاع التجاري من المدينة. لقد صار اندلاع نزاع مناطقي بيننا في حال أصرَّ على التحوُّل إلى مُعلَّب أمرًا لا مفرَّ منه. وحتَّى إن أدرك أنَّه لا يستطيع إزاحتي من طريقه ببندقيَّة رشّ، فإنَّ ذلك لا يعني أنَّه لَنْ يأتي مرَّة أخرى حاملًا بندقيَّة حقيقيَّة. تُرى هل أخطأت التصرُّف؟ بصراحة، حاول رجال مثله عقد أواصر علاقة وثيقة معي غير مرَّة. منهم من ناداني مباشرةً بل واستوقفني في الشَّارع. آنذاك التفتُّ نحوه فِي سُكات عبر الشقِّ المائل في ستار الفينيل. سيرتبك أي شخص أمام هذا المشهد، وسيتقهقر رجل الشُّرطة أو حارس السِّكة الحديد. لذلك سألت نفسي هل كان عليَّ أن أقول شيئًا أولًا قبل أنْ أضطره لاستخدام بندقيَّته الرشّ.

على أنَّ ممثلين جددًا غيَّروا التخمين تمامًا... جاءت الشَّخصيَّة الجديدة بطاقم الممثلين تمتطي درَّاجة. تردد بغتةً صوت ورائي، وقَدْ امتصني بالكامل مشهد الشَّارع المبهرج، قالت: «ثَمَّة مستشفى عِند أول المُنحدر»، ولامست أنامل بيضاء نافذة الرؤية قبل أنْ ترمي ثلاثة آلاف يَنّ. شعرت كأنَّي صندوق بوستة والتفتُّ لأرى جسدًا يتقهقر على مسافة عشر ياردات تقريبًا. بدت امرأة شابة لا يناسبها هذا الصوت الخفيض الحاد. لم تسنح لي الفرصة كي

أصوِّب الكاميرا ناحيتها، وغابت وراء ناصية الزقاق التالي. ورُغم أنَّها بضع ثوانٍ هي التي توافرت خلالها الفرصة لمراقبتها، فإنني وجدت نفسي مأخوذًا تمامًا بحركات ساقيها أثناء تبديل الدَّرَّاجة. كانتا رشيقتين دون إفراط – ساقان خفيفتان بانحناء جيد النِّسَب. ظهرت ركبتاها ناعمتَيْن وبهيَّتَيْن كبطن محارة. كانتا مشرقتين جِدًّا فلم أعد أذكر لون ثوبها، على أنني لم أكن حتمًا غائب العقل؛ إذْ لولا تفاقم الجُرح فِي كتفي تلك الليلة، لما كنت أوليتُ أهميَّة تُذكر لمسألة الذَّهاب إلى المستشفى عند أول المُنحدر، ولا كنت انتبهت لمسألة أنَّ المُسلَّح (حسبما أوضحت الصورة الفوتوغرافيَّة) كان في الواقع طبيب المُستشفى، وأنَّ المرأة فوق الدَّراجة هي المُمرِّضة. كذلك، بالطبع، ما كان ينبغي بي أن أتورَّط في سخافة انتظارها – أو انتظار بديلها– في مكانٍ خطيرٍ هكذا أسفل الكُوبْري. مكتبة سُر مَن قرأ

اكتفيت بوضع سيجارة أخرى بين شفتيَّ. وأحصيتُ غير مرَّة الثلاثة آلاف يَنّ وطويت المبلغ كاملًا بثلاث رُزَم، ثُمَّ حشوته داخل حذائي المطَّاط طويل الرَّقبة. يُقال أنَّ الطائر البري الَّذي يسقط أسيرًا يرفض الطَّعام ويموت جوعًا، في حين يتلذذ السجين المُدان بسيجارته الأخيرة. أشعل على مهل السيجارة، أنا الَّذي لست بطائر، ممعنًا التفكير في غياب العلاقة بين المُسلَّح والمُمرضة. لكن لا بأس؛ إذْ يظل المُسلَّح مسلَّحًا والمرأة هي المرأة. كذلك لا بأس من افتراض أنَّ هرولتها أمامي كانت تعبيرًا عَنْ رقَّتها؛ ذَلِك أنَّها كانت، ببساطة، خَجِلة مِنْ تصرُّفها المتصدِّق.

لكن بصرف النظر عن شراهة تدخيني، فإنَّ الجلَّاد لن ينتظر. في الحقيقة

كان موعد الإعدام يقترب. ومع بزوغ الفجر بدأ الجُرحُ في كتفي يتقيَّح وحاصرني الوجع كأنَّه قبو مطَّاطي مفرط الضيق. وقد وجدتُني، حين غادرت العُلبة، في المستشفى عند أول المُنحدر، وفي انتظاري المرأة صاحبة الدَّراجة تمسك محقنة والمُسلَّح يقبض على مشرط جراحي. وبدلًا من أن يباغتني هذا التحوُّل في الأحداث، بدوت كمن كان يتوقَّع هذا التحوُّل منذ البداية.

صحوتُ بعد فترة داخل فراش، وكانت المرأة صاحبة الدَّراجة تُمعن النَّظر فيَّ، وثَمَّة رائحة ثقيلة مِنَ المُطهِّرات والفيتامينات. كان لثوب المُمرِّضة الأبيض فيما يبدو القدرة على إيقاف الزَّمن، وحين يتوقَّف الزَّمن تنقطع دون شكٍّ الصِّلة العابرة بين الأشياء، هكذا لم أكن أخاف اللوم نهائيًّا بصرف النَّظر عن الفضائح التي قد أرتكبها. لسوء الحظِّ، في الحقيقة، لَمْ أكن قد شُفيت تمامًا بما يكفي لكي أحاول ارتكاب ما لا يليق، لكن وقَدْ خلعت العُلبة، ساورني إحساس بالتحرُّر جعلني أنسى أنني أكشف عن وجهي العاري. قلت لها كل شيء عنِّي، دون أن أغفل لا شاردة ولا واردة، فيما اكتفت هي بابتسامة مشجِّعة؛ ابتسامة مبتورة سريعة الزوال فوق سحنة يابسة، ورغم ذلك مسالمة كأنَّ فرشاة نور لوَّنتها، دَرَجة تخيَّلت معها أنَّني اعترفت لها بالحُبّ. كان وجهها تعلوه ابتسامات أجبرتني على نسيان حقيقة غياب ساقيها خلف طرف ثوبها الخفيض جِدًّا. هكذا رحت أرفرف بجناحيَّ مثل طائر صغير يبدأ بالطيران مرَّته الأولى (طائشًا، عاجزًا، دائخًا لا يزال). ثُمَّ امتلأ الجناحان بالهواء – سأُحلِّق الآن! – فأحسستُ، ثَمِلًا بابتسامتها الرَّشيقة، أنَّني لم أعُد في حاجة للعودة إلى العُلبة. لكن قبل أنْ أدرك هذا

عاهدتُ نفسي بشيءٍ لم أفهمه، أنْ أشتري العُلبة لأجلها مِنَ المعلَّب شخصيًّا لقاء خمسين ألف يَنّ. ذلك أنَّ لديَّ معارفي من المعلَّبين (طبيعي جِدًّا)، بل وقد شددت على أنَّني سأبيعه لها بلا مُقابل. فكّرت أنَّه كان من الأجدر أن أسألها عن خُططها لاستخدام العُلبة، لكنني كنت بلا حول أمام ابتسامتها. وبدا لي أنَّه من الحماقة مناقشة استعمالات عُلبة.

تبخَّرت ابتسامتها بمجرَّد أن غادرت المستشفى، وعِندما عُدت إلى المكان الَّذي أخفيتُ فيه عُلبتي تحت الكُوبْري، بدأت أشعر بتقلُّصات في المعدة وتقيَّأت بعض الوقت. بدا أنَّي خضعت للتخدير دون أنْ أعرف، ورغم إدراكي أخيرًا بصورة لا لَبْس فيها أنَّني سقطت فريسةً لخداع، فإنني عجزت عن كرهها.

(هُنا مزيد مِنَ الإضافات الهامشيَّة. بالطبع، الكتابة ولون الحبر لا يُمكن فرزهما عن النصِّ الأساسي).

قالت:

- أتكلَّم عن الشحَّاذ الَّذي كان يضع عُلبة فوق دماغه.

- أعرف؛ لأنَّني مصور فوتوغرافيا. مصوِّر مُتلصِّص. مجال تخصصه الثقوب المضجرة... بأي مكان. جلف بالفطرة..

- عُلبة كرتون بالية..

- أعتقد أنَّه رُبَّما كان أحد أصدقائي. رُبَّما كنتُ مخطئًا، لكن لا أستطيع أن أزعم أنني مخطئ تمامًا. لقد تصادف أنِ التقط مُصوِّر زميل منظرًا للمُعلَّب

دون أن ينتبه إليه. ثُمَّ انتبه فركض يلاحقه بكل اتجاه، لكنه لم يصادفه مرَّة أخرى. وبدلًا مِنْ ذلك اهتم بتصوير البلدة، الجانب القبيح الَّذي يعافُ الناس رؤيته... ولمَّا كان يلتقط صورًا لِما يعاف الناس رؤيته؛ لذا كان مضطرًّا لالتقاطها خلسةً كي لا ينتبه إليه أحد. وقد خطر له بغتة أنْ يرتدي عُلبة فراح يتجوَّل يلتقط صورًا متنكِّرًا في هيئة رجل داخل عُلبة. ولأنَّه هو نفسه لم يَرَ المعلَّب حين كان ينظر مباشرة إليه، فإنَّ أحدًا لَمْ يكن لينتبه إليه وثَمَّة عُلبة فوق دماغه. في الحقيقة لم يَبدُ أنَّ ثَمَّة من اكترث به، وقَدْ تمكَّن من التقاط الكثير من الصور الفوتوغرافيَّة قدر ما شاء. لقد صار مُعلَّبًا زائفًا انكبَّ على تصوير الشوارع. لكنَّه تبخَّر فجأةً بمجرَّد أنْ حظي ببعض الشهرة بين أقرانه من المصوِّرين، ومنذُ ذلك الحين لم يعُد إلى بيته، وتقول الشائعة إنَّه صار مُعلَّبًا حقيقيًّا.

– من يُمانع أي قدَر من الشهرة.

– لكن هذا النمط مِنَ الشُّهرة يُشبه الحلاقة بسكين مطبخ، أو تمزيق الثياب التي تلبسينها.

– لقد عملت عارضة أزياء منذ عهد بعيد.

– أودُّ بحقٍّ أن أفعل ما أشاء. لكنني أعجز عن عمل أي شيء، وهو أمر مثير للسُّخط. لكن الأمر الوحيد الَّذي يُمكنني عمله هو التحديق في الكاميرا والتقاط الصور. مِنْ ثَمَّ تطفو صورتك الشفَّافة داخل سائل التَّحميض أسفل المصباح الأخضر المُصفرّ الَّذي يُشبه الفلوريت... وعقرب الساعات الَّذي يشير إلى الثَّامنة في الحجرة المُظلمة... سطح ورق التَّصوير

الطارد للمياه الَّذي يتألق مثل غِشاء دُهني... الملمح الباهت الَّذي يظهر تدريجيًّا... يليه ملمَح آخر... ملمح فوق ملمح... ثُمَّ تتراءى تضاريس جسدك العاري، كآثار أقدام مُجرم مطبوعة داخل قلبي..

- أريد تلك العُلبة.

جُثَّة على قارعة الطَّريق

تجاهلها مائة ألف مواطن

قُرَابَة السابعة مساء اليوم الثالث والعشرين، اكتشف أفراد مِنْ دوريَّة شنجوكو مُتشرّدًا يبلغ من العمر أربعين عامًا، يتكئُ على عَمود في ممر الأنفاق بالمخرَج الغربي في محطَّة شنجوكو بطوكيو، حيث يعود النَّاس من أعمالهم ويروح المتبضعون ويجيئون. وطبقًا للمعلومات التي أدلى بها الضبَّاط أنفسهم، كان طول الرَّجُل خمسة أقدام، متوسط الوزن. يرتدي قميصًا مُشجَّرًا طويل الأكمام وحذاء عمل طويل الرقبة. كان أشعث الشعر كما يليق بمتشرِّد. ولم يكن معه سوى بعض الصُّحف التي رُبَّما كان يعتزم النَّوم فوقها إلى جانب بعض الفكَّة تبلغ مائة وخمسة وعشرين يَنًّا. لم يكن بحوزته شيء آخر يُثبت هُويَّته أو مكان إقامته أو اسمه. كان مئات وآلاف مِنَ المارَّة يترددون يوميًّا على المعبَر تحت الأرض محل النقاش (حسب بيان المحطَّة). وثَمَّة زحام من بشر وخطّ تليفونات عمومي بالقرب منها. وطبقًا لشهود عيان، ظلَّ الرجل يلزم البقعة عينها منذُ ظهيرة ذلك اليوم، لكن أحدًا لم يُعِرْه اهتمامًا ولا أُبْلِغَ عن الساعات الستِّ أو السبع التي قضاها قبل

أن تعثر عليه الشرطة. علاوة على ذلك، لم تكن المسافة التي كانت تفصله عن مخفر الشُّرطة تتجاوز عشر ياردات، مع ذلك قال الضابط النوبتجي إنَّ الرجل لم يكن واضحًا على الجانب الآخر من العَمود.

ثُمَّ غفوت عِدَّة مرَّات

تُرى هل سمعت من قبل عن العشب الصَّخري. لعلَّه هذا العُشْب ذو الأوراق الشَّوكيَّة كأنَّها لفائف أصابع متفجِّرة، الَّذي يُغطِّي المُنحدر الصخري حيثُ أجلس الآن.

يُقال أنَّ الَّذين يشمُّون عبير العُشْب الصَّخري، يحلمون بالتحوُّل إلى سمكة.

رُبَّما لا يكون الأمر قابلًا للتصديق، هكذا أشعر، لكنه ليس بعيد الاحتمال. ذلك أنَّ الأعشاب الصَّخرية تفضِّل الأرض السَّبخة التي تحتوي على قدر معقول من المِلْح؛ فتجدها سريعة النمو على ساحل البحر. ومن غير المستغرب بوجه خاص أن تجد بين الحكايات القديمة ما يدَّعي أنَّ روائحها تتسبب في الدفع بأحلام الأسماك إلى رؤوس مَن يستنشقونها. إلى ذلك، وطبقًا لواحد من التفسيرات، فإنَّ أشباه القلويات الموجودة داخل لقاحات تلك الأعشاب تثير إحساسًا بالطفو يُشبه الدُّوار، وحيثُ أنَّها تثير في الوقت ذاته أغشية الجهاز التنفُّسي، فأنَّه من الجائز كذلك كما يبدو، أن تؤدِّي إلى الإصابة بهذيان الغرق في الماء.

ما من شيءٍ يثير الدهشة في تلك الرواية. لكن المُقلق في شأن حلم العشب الصَّخري ليس الحلم بذاته، بل ورطة الاستيقاظ منه. فلا سبيل لمعرفة الإجابة بالنسبة إلى سمكة حقيقيَّة، لكنَّهم يقولون إنَّ إحساس السمكة الحالمة بمرور الوقت يختلف تمامًا عنه لو كانت صاحية. إذ يغدو مرور الوقت أبطأ بشكل ملحوظ ويشعر الحالم أنَّ الثواني العادية تمتدُّ لأيامٍ أو أسابيع عديدة.

مع ذلك، وبفضل غرابة مشهد الحلم، تغمر الحالم في البداية بهجة خِفَّة الجسد القصوى، متحررًا من الجاذبية، لاهيًا بين أعشاب البحر التي تمور في ظلِّ الصخور، يمرق بين أشعَّة النُّور التي ترسمها عدسات الأمواج، مُطاردًا قطعان الأسماك المطمئنة. ولو كان الحالم ذاته خفيفًا، فإنَّه يحسُّ كأنَّ الدنيا نفسها أصابها الفرح. فيُفلت للأبد من آفات الجسد التي تصنعها الجاذبية – البطن المتدليَّة؛ تيبُّس الكتفين والعُنق؛ آلام مفاصل الرُّكبة؛ الأقدام المسطَّحة – ويطفر مرحًا كأنَّه رجع شابًّا عشر سنوات على الأقل. الخِفَّة تُسْكِر حلم السمكة شأنَها شأن الكحول.

لكن كل تلك النشوة تتبخَّر وتفقد سحرها أخيرًا في حال لم تكن السمكة حقيقيَّة. ويغدو السَّأم لا يُحتمل خلال تدفق الزَّمن البليد. آنئذٍ لن يكون من الصعب تصوُّر الاستفزاز الَّذي يحسُّه الحالم شديد الضجر، وضعف مقاومته كأنَّ حواسه الخمس أُصيبت بالخدر. ثُمَّ ما تلبث تلك الخِفَّة الفالتة للمادة أن تشحب تدريجيًّا حيثُ يغدو الجسد ملفوفًا طيَّةً تلو الأخرى، كالمدفوع دفعًا إلى لباس ضيق على هيئة سمكة. فيُرسل أخمص القدم مجسَّاته، بحثًا

عن إحساس بمقاومة اعتادها أثناء مشيه فوق الأرض. وتحنُّ المفاصل إلى ثقل الأنسجة والعضلات التي تُديرها. ثَمَّة رغبة غير مفهومة في المشي. آنئذٍ يُدرك المرء مشدوهًا أنَّه خسر الساقين اللازمتين كي يمشي.

على أنَّ الساقين ليستا الشيء الوحيد الناقص. إذْ لا أُذنان ولا عنق ولا كتفان، والأدهى، لا ذراعان. فيتولَّد إحساس بالعجز لا يُمكن وصفه. ويغدو إشباع الفضول من خلال اللمس باستخدام اليدين مستحيلًا لأنَّ الذِّراعين تمزَّقتا. هكذا لو رغب الانسان حقًّا في التعارف إلى آخر، فإنَّه ما لم يلمسه ويدفعه ويخبطه ويثنيه ويمزِّقه، تُرى كيف يدَّعي أنَّه يعرفه حقَّ المعرفة. نحنُ نحبُّ اللمس؛ أن نمرر أيدينا فوق كل تفصيلة. لكن القشور التي تغطِّي السمكة لا تُطاق؛ بيد أنَّها في حين تسعى جاهدة للتخلُّص من تلك القشور، لا تملك إلا أنْ تفتح خياشيمها على اتساعها وترفع زَعْنفتها الظَّهريَّة، وتتعقَّب خيطًا يبلغ بِضع بوصات من غائطٍ بلون الفُلْفُل الأسود.

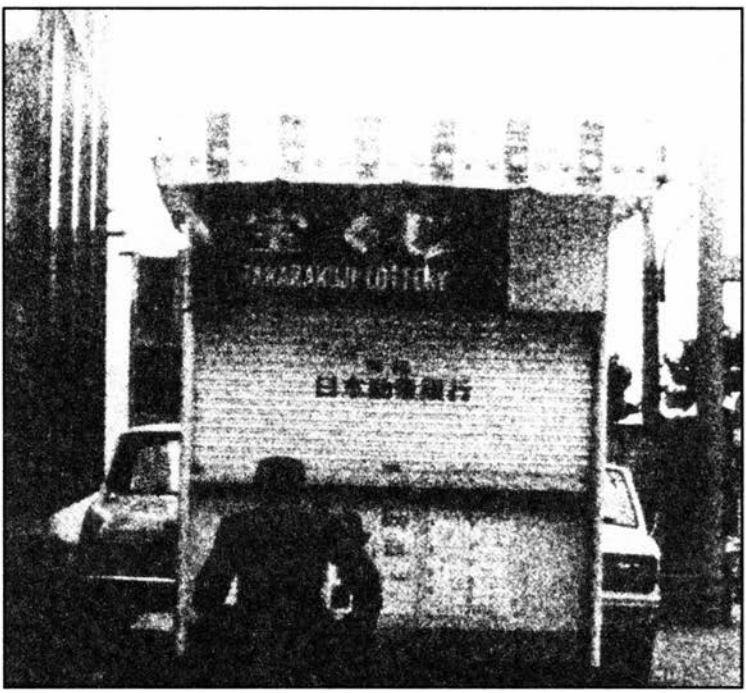

لو كنت ستواصل أبعد مِن هُنا؛ عليك إمَّا أن تثبَ فوق السور أو تدور حوله من اليمين أو الشمال. وما دمنا في المنتصف، فإنَّ كلا الطريقين يستغرق المدَّة نفسها، وهي يوم ونصف اليوم تقريبًا في حال مشيت، تزيد إن استرحت.

يعتصر الألم السمكة الوهمية غامرًا أطرافها كافَّة، وتساورها بغتة شكوكٌ فتّاكةٌ أنَّها هي نفسها رُبَّما كانت مزيَّفة. يندلع الشكُّ سريعًا، ويغدو كل شيء شديد الغرابة. إنَّ الَّذين يأخذون هيئة السمك؛ دون أحبال صوتية ناهيك عن الأيادي والأقدام، يعذِّبهم استعمال تلك الكلمات. هكذا يُصبح الإدراك مُزعجًا مثل حكَّة.

كل هذه الأحداث؛ لعلَّها متتاليات حُلْم.

رغم ذلك، فالحلم طويل جِدًّا. وقد طال كثيرًا درجةَ لم يعُد من الممكن معها تذكُّر متى بدأ. لكن مهما طال، لا بد أنَّ الحالم صاحٍ منه في وقتٍ ما.

أولًا؛ كي تتأكّد أنَّه حلم – وهي طريقة مضمونة لأنَّني جرَّبتها بنفسي غير مرَّة – اقرص ظهر كفِّك بقوَّة. لكن لسوء الحظِّ ليست للسمكة أظفار تقرص بها ولا كفٌّ تقرص ظهره. في حال لم يُفلح الأمر، اقفز دون تردد مِنْ فوق جرف شديد الانحدار. وهي طريقة أخرى صادفت نجاحًا معها غير مرَّة. لا داعي للانزعاج قطعًا من عدم امتلاك أيادٍ أو سيقان، ما دام في استطاعة السمك تنفيذ قفزة كهذه. لكن تُرى أي سقوط ستحظى به؟

أنا بالطبع لم أسمع من قبل أبدًا عن سمكة تهوي؛ ذلك أنَّ السمك الميت يطفو فوق السَّطح. ومسألة سقوط سمكة تتجاوز في تعقيدها سقوط بالون في الهواء. فهو سقوط معكوس. سقوط معكوس...

في الواقع، هل توجد طريقة كهذه للاستيقاظ من حُلْم؟ بمعنى أنَّ سمكةً ما قَدْ تغرق كُليَّة في الهواء حين تسقط عكسيًّا، إلى أعلى، في اتجاه السماء.

حينئذٍ يغدو خطر الموت كما هو؛ مثل السُّقوط فوق الأرض، فيصبح من الضروري الاستيقاظ من الحلم.

لا تَنِي السمكة الزَّائفة وقد بلغت هذا الحدَّ من التفكير، بحياء غير متوقَّع مِنْ حيوان ذي دم بارد، في حيرة من أمرها. حين يُدرك الحالمون أنَّهم يحلمون فإنَّ هذا يعني أنَّ حلمهم شارَف النهاية. لقد بذلت السمكة كل جهد كي تصحو، ورغم تريُّثها قليلًا لترى ما سيحدث، فإنَّ هذا التريُّث لن يؤثر على النتائج.

لكنَّ السمكة المزيَّفة عازمة على الانتظار. وبدا أنَّ عزمها القوي الَّذي أثَّر فيه امتقاع البحر قد شحب.

مرَّت أيام وأسابيع، وآن الأوان كي تحسم السمكة المزيَّفة قرارها. هبَّت عاصفة استوائيَّة هوجاء أرْجفت قاع البحر، وعلت أمواج هائلة كشفت للسمكة المزيَّفة المفزوعة عن مدى جبنها. على أنَّها لم تكن تتعجَّل الموت، فتركت نفسها ببساطة كي تحركها الأمواج كيف شاءت.

وفَجأةً أجهزت عليها موجة كأنَّها نصال خمسين منشارًا كهربائيًّا مرصوصة. جرفتها الموجة قبل أن تتحطَّم بقوة بالغة على الجرف الصَّخري وتطرح السمكة عاليًا فتغرق في الهواء.

أتساءل الآن هل أفاق الحالم من حلمه. لا؛ إذْ لا يراودنا حلم العُشب الصَّخري مصادفة. وهو مُغاير تمامًا للحلم العادي. وما دامت السمكة المزيَّفة قد ماتت قبل أن تصحو، فإنَّ الحالم - بدوره - لا يمكنه أن يتوقَّع أن يُفيق من حلمه مرَّة أخرى. لا زال عليه الاستمرار في حلمه حتَّى بعد

موته. يبدو أخيرًا أنَّ السمكة المزيَّفة الميتة ستبقى للأبد مجرَّد سمكة مزيَّفة، كأنَّها خضعت لآخر علاجات التجميد. لذلك يتردد أنَّ أعدادًا كبيرة من الأسماك سيئة الحظِّ التي يلقي بها الموج إلى الشَّاطئ عقب العاصفة، تقضي نحبها نائمةً وقد خنقها طَلْعُ الأعشاب الصخرية.

لكن لسببٍ ما، لم أتحوَّل بعد إلى سمكة. يتراءى لي أنَّ النُّعاس غلبني غير مرَّة، سوى أني لا أزال على حالي مُعلَّبًا دون تغيير. حين أُمعِن التفكير بالأمر، لا أجد فارقًا يُذكر بين مُعلَّب وسمكة مزيَّفة. إذْ تغدو ذاتي الزَّائفة شيئًا لا يُشبهني حين ألبس العلبة، رُبَّما أكون أنا الَّذي أكتسب مناعةً ضد التحوُّل لشيء زائف؛ مَنْ أضحى عاجزًا عن الحلم بأنَّه سمكة. هكذا، بصرف النَّظر عن عدد مرَّات التي يصحو فيها المعلَّبون من أحلامهم، فإنَّ مآلهم في نهاية الأمر هو البقاء على حالهم؛ مُعلَّبين كشأنهم دائمًا.

لقد تحقق الوعد، وسقطت من فوق الجسر رسالة بخمسين ألف يَنّ تُغطِّي كُلفة العُلبة. جرى هذا منذ خمس دقائق خلت. أرفق الرسالة هنا.

أثق بك. لا أطلب إيصالًا. أمَّا بالنسبة إلى التخلُّص مِنَ العُلبة فأتركه لك أيضًا. مزِّقها قبل انحسار المدِّ وألقِ بها في عُرْض البحر.

* * *

وقع أمرٌ مُستغرب. قرأت وأعدت قراءة رسالتها. تُرى هل ثَمَّة طريقة أخرى لتفسيرها؟ عند هذه النُّقطة، لا يسعني إلا طرح تفسير حرفي. أجرِّب شمَّ الورق بسطوره الخضراء الَّذي طُوي ثلاثًا. لا ريب يضُوع برائحة المُطهِّر الباهتة.

كيفما اتفق، افترضتُ أنَّ الطبيب سيجيء. لقد طرحت استراتيجياتي المُختلفة أنَّه سيُهاجمني. على أي حال، كانت هي من جاء. بلى، هي التي جاءت بشحمها. هي التي جاءت بشحمها. هي بشحمها... والسبب مُبْهم تمامًا... آه، بل بالغ الوضوح... ببساطة كانت تفي بوعدها. تُرى لِمَ الحيرة؟ ألم أتوقَّع مطلقًا خيانةً من جانبها؟ رُبَّما. تليق بي حقًّا امرأة خائنة مثلها. في الحقيقة كنت أقع فريسةً للحيرة إن تحقق وعد. لكن مهلًا، رُبَّما أكون أغفلت أمرًا كبيرًا. مثلًا، قد أحاول أن أُعيد التفكير في موقفها... ودورها في المسألة.

لا أرى ما يدعو إلى الاستمرار في الكتابة. ما دمت لا قَتلتُ ولا قُتلت، إذن لم يبقَ ما ينتظر التفسير.

رسالة تنساق على غير هُدى... العنوان مجهول... هل سأمزقها وألقيها بعيدًا؟

اهدأ الآن. دقق هُنا، خمسون ألف يَنّ. طالما المال بحوزتي، فلن يكفي التَّخلص من الدفاتر. تريد المرأة مِنِّي أن أتخلَّص من *العلبة*. لكن مع الخمسين ألف ينّ أصبحت هي الآن مَن يملكها. ولا مندوحة من التخلُّص منها كما وعدت لو كان في نيَّتي أن أحترم رغبتها. رغم ذلك، لا أعي ما يحدث. إذْ مَنْ بحقِّ السماء سيستفيد من عملٍ كهذا؟ خمسون ألف ينّ لقاء قذف عُلبة في البحر – هذا مبلغ هائل. هل أنا شخص كريه؟ لا ينبغي الإطراء على النفس؛ وبصراحة لا بد أنْ يكون الدَّافع شيئًا عمليًّا أكثر. سبب أكثر واقعيَّة لا تحسُّ معه أنَّها خسرت شيئًا حتَّى وإن دفعت خمسين ألف يَنّ.

لا أفهم البتّة. كأنّني داخل غَيْمة. أتساءل هل ينبغي أن أصرَّ على إعادة الخمسين ألفًا؟ سترتكبُ خطأ فادحًا إنْ دار بخَلَدِها أنّني لا أستطيع ذلك.

لكنَّ تفسيرًا كهذا لن يصمد. إن هو إلا مُخطط حاكته كي يحول بين الطبيب وامتلاك العُلبة. فلسببٍ ما، يريد الطبيب العلبة بشدَّة. رُبَّما كانت نيَّاتهما متطابقة في بادئ الأمر، أو هي تظاهرت بذلك. لكن مع اقتراب موعد التنفيذ، بدأت شكوكها تنمو، وفشلت في تصديق أنَّ خيرًا سيجيء من وراء ذلك. احتجَّت فأعطاها الطبيب أُذنًا من طين وأخرى من عجين، هكذا لم يعُد بيدها حيلة إلا مقاومته. ولحُسن حظّها أنَّ المعلَّب كان لديه ميل استثنائي نحوها؛ لذلك لو أنَّها تركت مسألة التخلُّص من العلبة للمُعلَّب نفسه وبعدها يختفي، ساعتئذٍ يُمكنها احتواء الطبيب قبل أن يُقدم على شيء أيًّا كان.

في الواقع... أشعر أنَّ هذا التفسير معقول بدرجة ما... رُبَّما تستحق العُلبة خمسين ألف ينّ، بالنظر لأسباب الطبيب في امتلاكها. لكن الظَّرف يختلف لو كان ما يدفعها للتدخل نابعًا من أنانيتها، عنه لو كان هذا الدافع مجرَّد رغبة لحماية الطبيب. على أنّي أعرف على الأقل أنَّ ثَمَّة خلافًا بينهما. وهو ليس نذير السوء إن صحَّ الأمر.

على أي حال لا يبدو لي أنّني سأتخلَّص من العُلبة كما تتمنَّى المرأة. فمعرفتي بها لِحَدِّ الآن أقل مما يكفي كي أثق بها. لهذا يجب أن أرجئ التخلُّص من العلبة لحين أتحقق من أسبابها مرَّة أخرى على أقل تقدير، ولديَّ كل الحقّ.

ثُمَّ إنَّني، بصراحة، غير راضٍ. كان حضورها بنفسها شيئًا رائعًا، لكنه كان لقاءً شديد الجدية. بل إنَّها لم تنزل مِنْ فوق الجسر. وبعد أن مرَّت خاطفة بجانب يافطة «ممنوع النزول في الماء»، وهي تركب درَّاجة مصنوعة من سبيكة ما مِنَ المعادن الخفيفة ومجهزة بخمسة تروس للسرعات - تألَّق معطفها الواقي من المطر في أضواء شاحنة، كأنَّه مُذهَّب... وانكشفت ملامح جسدها واضحة أسفل نسيج الثياب... مِنْ ثَمَّ حركة هاتين الرِّبْلَتين والركبتين اللائي تركنني مبهور الأنفاس - غابت في طريق المقاطعة السَّريع، متجاهلةً الإشارات المسعورة التي أرسلتُها من بطاريتي. بعد فترة انزلقت أمامي حلقة من نور مُرتعش فوق الأرض على مسافة ياردتين. كان شُعاع بطَّاريتها الذي يتوهَّج بين درابزينات الكُوبْري، وقَدْ فشلت في أن أرفع عينيَّ؛ فمثل هذه الحركة لا تلائم معُلّبًا. ثُمَّ تردد صوت، وهوى شيء غير بعيد عن حلقة النُّور المُرتعش. كانت الرسالة إياها وأوراق نقديَّة تبلغ خمسين ألف يَنّ ملفوفة داخل حقيبة بلاستيكيَّة مربوطة في حجر. ثُمَّ غابت دون أن تفعل أي شيء آخر. عبرت قريبة مِنِّي واختفت دون أن تنبس بحرف. ابتلعت العتمة حركة ربلتيها، وانقضى ألَق معطفها المبتل، وانْحَسَرَت أخيرًا أضواء الدرَّاجة الخلفيَّة الحمراء. ثُمَّ سمعتُ بغتة، حين فرغت من قراءة الرسالة وعدِّ الأوراق النَّقديَّة، صوت رذاذ لا ينبغي أن يكون مسموعًا، رُبَّما كان جريان الدَّم في رأسي.

خمسون ألف يَنّ. لكم أحبُّ أنْ أقول لها منفردين إنَّ أي مُعلَّب لن يرى في هذا المبلغ إلا مبلغًا زهيدًا لا يستحق القبول، حتَّى وإن اعتبرته هي إفراطًا. لا يعرف العاديون في الغالب إلا أقل القليل عن المعلَّبين كما أنَّهم

لا يتوقّفون إلا بشكلٍ عابرٍ جِدًّا أمام المغزى الّذي تُمثّله العُلبة للمُعلّب. لا أُخادع، فبالخداع وحده لا يستطيع المرء الاستمرار في الحياة داخل عُلبة ثلاث سنين. يُقال أنَّ السَّلطعون النَّاسك خلال حياته تحت الصَّدَفَة، يغدو ظهره المغطّى بالقشور ناعمًا لذلك يتمزَّق السَّلطعون ويموت في حال أُجبر على الخروج. هكذا يفشل المعلّب في خلع عُلبته والعودة ببساطة إلى العالم العادي. وهو حين يخلعها، إنَّما يفعل ذلك لكي يُطلَّ على عالَمٍ مُختلفٍ تمامًا كأنه حشرة تتحوَّل. وكنت أنتظر في سرِّي أن تسنح لي فرصة كهذه من خلال لقائي معها.

مِنَ الخَادرة البشريَّة يبزغ المعلّب،

حتَّى لو كنت أجهل

شكل الحياة الذي يقبع في انتظاري.

في مـرآة

تحوَّل المطر إلى رذاذٍ خفيف، لكن الرياح اشتدت. وحلّقت مع كل هبَّة نسيم قطرات متناثرة تُشبه مخالب قنديل البحر. استحالت الرؤية تمامًا. على أي حال، رُبَّما لم يبْقَ مرئيًّا من الاتجاهات كافةً بسبب مكان المباني، سوى نور بوابة المستشفى الأحمر، إلى حيث كنت أتجه، عند ناصية المُنحدر. كانت تُغلِّف البوابة خضرة دَكْنَاء فبدت مثل بُقعة في عينيّ. كنت قد مشيت

على هذا الطريق غير مرَّة لكن هذه هي المرَّة الأولى التي أمشي فيها مرتديًا عُلبة، وبسبب ذلك بدا الطَّريق طويلًا بصورة مُفزعة. نادرًا ما يشغلني بُعد المسافة حين أكون داخل العُلبة.

نميل بشكلٍ انتقائيّ، حين نتواصل مع المشاهد المُحيطة بنا، إلى رؤية ما نعتبره ضروريًّا فقط. فمثلًا، حين نتذكَّر مشهد محطَّة الباص تغيب عن ذاكرتنا تمامًا شجرة الصفصاف القريبة، ويستحوذ على انتباهنا، شاء المرء أو أبَى، ورقة بمائة يَنّ ملقاة في الطريق، في حين يظل المسمار المثني الصدئ والحشائش النامية على أطراف الشَّارع هي والعدم سواء. نحاول في الغالب ألَّا نضلَّ في الطرق العادية. ورغم ذلك، ما إنْ نبدأ بالنظر من خلال نافذة الرؤية حتَّى تبدو الأشياء مُغايرة تمامًا، وتغدو شتَّى تفاصيل المشهد متطابقة وذات مدلولات متكافئة. أعقاب السجائر؛ الإفراز اللَّزِج في عينَيْ كلب؛ نوافذ منزل من طابقين مهفهفة ستائره؛ تجاعيد طبلة مسطَّحة؛ خواتم تخنق أصابع ترهَّلت؛ مسارات سِكَّة حديد تمتد بعيدًا؛ شكائر إسمنت تصلَّبت بفعل الرطوبة؛ الوسخ تحت الأظفار؛ وأغطية البلاعات الواسعة. على أنَّي شديد الولع بهكذا مشهد. فالمسافات فيه متدفقة والتضاريس ملتبسة، ما يجعله يُشبه حيِّزي الخاص. مشهد أليف كمَكبِّ نُفايات، لا أكلُّ أبدًا من التحديق في مثل هذا المشهد طالما كنت أحدِّق من خلال عُلبة.

لكن تأثير العُلبة راح يقلُّ إلى أن اختفى وأنا أصعد الطريق إلى المستشفى. ظلَّ النور الأحمر بعيدًا، صانعًا بقعةً بلون الدم غائرة داخل عينيَّ المغمضتين. يُغطِّي الحصى الطَّريق والفراغ عند قدميَّ ليس معتمًا شأنَّه بأماكن أخرى.

كأنَّ المشهد بتفاصيله المبتورة يحثُّ الناس على عدم التوقُّف. بعدها تطلَّ سماء بيضاء شاحبة (كانت السحب تطفو من ناحية الغرب)؛ رُبَّما لأنَّ العتمة كانت شديدة (لذلك أكره الليل)؛ ورُبَّما أيضًا لأنَّ وجهتي كانت شديدة الوضوح أكثر مما ينبغي.

مع ذلك هززت عُلبتي وتابعت السير بإصرار. لكنَّها راحت تترجرج على طول الطريق وتصبَّبت عرقًا دخل أُذنيَّ أصابني بحكَّة بسبب سوء التهوية. ملت للأمام فمالت العُلبة ودوى صوت التطامها بِوَرِكيَّ. صوتٌ هشٌّ ناجم عن شيء مصنوع من ورق.

فجأة تناهى لسمعي صوت أنفاس عنيفة لوحشٍ ما؛ زئير كلب هجين ضخم يتمسَّح في رُكبتيَّ بكتفه، قبل أن يفرَّ سريعًا. تخيَّلت ظهره المبلل مصبوغًا باللون الأحمر مثل نور البوَّابة الَّذي أبصرته حين رفعت دماغي. انقشع الضباب ودخلت بوابة حديديَّة مُغلقة مجال الرؤية. ثَمَّة جرس مخصص للاستعمال الليلي مدهون بلون فسفوري. لَمْ أشأ قرع الجرس ولا فتح الباب، كما لم أرغب في لقاء الطبيب وجهًا لوجه. فوثبتُ فوق السُّور ودخلت الحديقة.

وصل الكلب قبلي ومكث في انتظاري، دون نيَّة للنُّباح. كنتُ قد قدَّمت له مسبقًا بعضًا من الطعام فظفرت به إلى جانبي. وكان نور خافت ينبعث مِنَ إحدى النَّوافذ. تشابكت بعض الحشائش المضفورة الكثيفة حول ساقي، وبدا أنَّها آثار حوض أزهار قديم، فتعثَّرت بالسور الحجري. ها هنا راح الكلب، وقد أساء الفهم، يحوم حولي. وحين اعتدلت ملتقطًا أنفاسي، تصبب عرقٌ وسال داخل عينَيَّ.

كانت غرفتها في قفا المبنى، النَّافذة الثانية من الشمال. لقد ألقت لي بالنُّقود منذُ أقل من ساعة – ورُبَّما لا تزال سهرانة. وإنْ غفت فلن تتعدَّى النَّوم الخفيف. لذلك لا داعي للقلق من أن تثير صخبًا إن قامت بغتة. كل ما أردته كان الكلام معها بأمرٍ مهم (ولو من خلال النَّافذة إنْ أمكن) وإعادة الخمسين ألف ينّ، وأنْ أجعلها تُحلِّني من تعهُّدي الَّذي قطعته برمي العُلبة. مِنَ الوارد أنْ أساعدها بطريقة أخرى، لكن ذلك يعتمد على ردِّها.

على أنَّي تساءلت عن سبب إشعال النُّور بالنافذة المقابلة للحديقة. هُناك، كان ثَمَّة قاعة انتظار تليها غرفة كشف حيث قبعت في داخلها ما خمَّنت أنَّها مُعدَّات الفحص. أتى منتصف الليل ومضى وفكَّرت أنَّهم، بطريقة أو بأخرى، نسوا إطفاء النور. لكن لسبب ما راودني إحساس بعدم الارتياح؛ لذلك قررت إلقاء نظرة سريعة.

كانت النَّافذة عالية بعض الشيء ونصفها الأسفل مِنْ زجاج مغبش، فلم أرَ إلا السقف. انتشر الضوء الصادر مِنَ الأسفل والَّذي بدا أنَّه نور أباچورة طويلة، مائلًا على هيئة قَطْع مكافئ في اتجاه الجزء الدَّاخلي من الغرفة. كنت في حاجة لشيءٍ أقف فوقه من أجل رؤية أوضح. بالطبع لم يكن خيار إضاءة نور ما وتفحُّص الحجرة خيارًا متاحًا. لحسن الحظِّ تذكَّرت أنَّني وضعت مرآة سيارتي الخلفية في جرابي. وكان قد راودني إحساس مبهم أنني قد أحتاج إليها فخبأتها بدلًا من أن أرميها. مسحتها من التراب ورفعتها عاليًا ببعض الميل وحدَّقت فيها. كان مدُّ ذراع واحدة والتحديق لأعلى من خلال نافذة ضيقة عملًا مضنيًا، لكن جهودي كلَّلها النجاح. فعلى خلاف

ما توقَّعت (كنت أظنّ أنَّ الجزئين: العلوي والسُّفلي معكوسان) تمكَّنت من رؤية التفاصيل كافةً من زاويةٍ تقترب من الكمال.

أول ما رأيت كان مصباح كهربائي فوق ركن طاولة ضخمة. ثُمَّ رقعة مُبيضَّة واسعة. امتدَّ البياض، فيما أمسك المرآة ثابتة، إلى الباب والحيطان القديمة التي فشلت طبقات عديدة من الدِّهان في إخفاء الخربشات المنتشرة فوق السَّطح. كان سرير المستشفى العالي المعتاد في ركن إلى جوار النَّافذة أبيض هو الآخر. وكانت خزانة الكُتب، المكتظَّة بالمجلات والكتب القديمة، مدهونة بالأبيض شأن الباقين، لكن أقل نضارة بعض الشيء. كانت الغرفة واسعة وبانت عليها أمارات عدم الاهتمام إجمالًا، رغم وجود جهاز ستريو بجانب الطاولة. خمَّنت أنَّها مكتب الطبيب.

في الواقع كانت الغُرفة نفسها محدودة الأهميَّة، وهو شيء انتهيت إليه بعد ترتيب ذكرياتي تاليًا. ثَمَّة شخصان شعرت بانجذابٍ تامٍّ نحوهما. أمَّا الأمور الأخرى فكانت مجرَّد شظايا فسيفساء تتضاعف كما بعينَيْ حشرة ما.

أحدهما كان المرأة، ولأنَّ حجرتها كانت بالمبنى ذاته؛ كان تواجدها هُناك أمرًا لا غرابة فيه. كانت عارية بكل ما تعنيه الكلمة. كانت تقف أمامي في وسط الغُرفة عارية منهمكة في الحديث مع الشخص الآخر في شأنٍ ما.

كان الآخر مُعلَّبًا جلس على حافة السرير يلبس عُلبة تُشبه عُلبتي بالضبط. ومِنْ حيث أقف، كان الجانبان: الخلفي والأيمن وحدهما المرئيين، كانت عُلبة كرتون، تُشبه عُلبتي بالضبط - من حدَّة الاتساخ إلى بقايا حروف اسم المُنتج التجاري المطبوعة، ناهيك عن المقاس. نُسخة زائفة مِنِّي، منقولة حرفيًّا. وفي داخلها... الطبيب، حسبما أظنّ.

(خطر لي ذلك فجأة؛ إذْ تذكّرت أنني رأيت مشهدًا كهذا بالضبط فِي مكانٍ ما).

أحسست أنّني أستطيع لمس عريها بيديَّ ولا أحد سوانا داخل الحُجرة. لكن متى، وأين؟ لا، لن أنخدع. هذه ليست ذكرى بل هلوسة نابعة من رغبتي. لا أصدّق أنّني جئت زائرًا على هذا النحو لا هدف لي سوى ردِّ الخمسين ألف ينّ. لا بد أنّني، في بقعة ما داخل قلبي، كنت أشتهي بقوّة أنْ يتجسّد واقعًا مشهد كهذا. بلى، أن أراها عارية، تكشف عن جسدها العاري قطعةً تلوَ أخرى إلى أن أرى تعرِّيًا يتجاوز كشف العورة.

(هامش – بحبر أحمر: لِمَ لا أكفُّ عن التحديق هكذا؟ رُبَّما بسبب جُبني البالغ، أو بسبب فضولي الشَّديد. أتساءل حين أُمعن التفكير إذا كنت قد صرت مُعلَّبًا لا لشيء إلا لكي أواصل التلصُّص للأبد. أرغب بالتجسس على الأماكن كافة، والعُلبة فتحة متنقِّلة سنحت لي في ظل ظروف تقضي باستحالة ثقب فتحات بكل العالم. عندي إحساس الهارب والصيَّاد، تُرى أيهما الحقيقة؟).

راحت رغبتي في التلصُّص على المرأة تتجاوز إمكانات العُلبة بصورة واضحة. وأحسست أنَّ لئتي المنتفخة تؤلمني. لكن اللوم لا يقع عليَّ وحدي؛

إذْ صدر عنها هي الأخرى تلميح عابر؛ إذْ إلى جانب الخمسين ألف ينّ التي دفعها الطبيب ثمنًا للعلبة، عرضت إكراميَّة أخرى من عندها على اعتبار أنَّها مُصوَّرة فوتوغرافيًّا.

كنتُ، بعدما عُولجَت كتفي، قد جرَّبت رتق قِصَّة حياتها التي روتها لي متقطِّعة: ذلك أنَّها قبل أن تُقبل في وظيفتها الحالية كممرضة تحت التدريب، كانت طالبة فقيرة تدرس الفنَّ (لَنْ نسأل عن موهبتها في ظروف مماثلة) تتكسَّب عيشها من الوقوف أمام الدَّارسين بمدارس الفنِّ الخاصة أو نوادي الفنانين الهُوَاة (قالت إنَّ هذه المرحلة خلَّفت لديها إحساسًا بالمرارة، يُشبه الندم). وقد أجرت منذ عامين عملية إجهاض في هذه المستشفى (آنئذٍ أطلَّ وجودها الجسدي أمامي). لم تكن فترة النقاهة التي امتدت لثلاثة أشهر لم تدفع خلالها مليمًا واحدًا فترة مريحة، آنذاك غادرت ممرضة كانت تعمل هُناك، فحلَّت المرأة بوظيفتها الشَّاغرة دون سبب مُحدد (ذلك أنَّ جانبًا من شخصيتها ضايق المُحيطين وكان صعب الفهم). انشغلت بعملها الَّذي كانت على يقين أنَّه تسديد لنفقات علاجها. وكانت ترسم لوحاتها خلال الأمسيات وأوقات الفراغ التي تُتاح لها دون حالات طارئة خاصَّة. لكن بصرف النَّظر عن الدخل، كان عملها السابق كموديل هو الأقرب إليها، لا لأنَّه كان سهلًا كما اعترفت ببراءة؛ إذْ كان رُغم طبيعته البسيطة لحدٍّ كبير عملًا مُضنيًا يحتاج إلى الجَلَد. قالت إنَّ الإثارة التي تنطوي عليها تعرية جسدها باعتبارها موديلًا هي نكهة الحياة، وأنَّها هي ما ألهمها إرادة الخلق (وهو ما كنت أعتبره خطأً. ذلك أنَّ صورها تبدو عارضة وتجريديَّة ولا علاقة لها بفن الموديل). كانت تتكلَّم كأنَّها كانت لتظل تعمل موديلًا لم لو يكن الطبيب قد اعترض بقوَّة.

كان هذا تحريضًا واضحًا بصرف النَّظر عن مدى ولعها بمهنتي كمصوِّر فوتوغرافيا. لا بد أنَّها خمَّنت بالفعل أنَّني مُعلَّب من دون تخفِّيه، مِنْ رصاصة البندقيَّة الرشِّ التي استخرجتها من الجُرح في كَتِفي؛ ومن طريقة تسريحة شعري الرثَّة. تجاوزت عن ادعائها وتملَّكني إحساس الحارس الَّذي يضمد جراحها بكرم. كان القذف يأتي من عينيَّ في أوقات كهذه. أعددت نفسي، عازمًا على تحطيمها بيدي قبل أن يحطمها شخص غيري، هكذا نبتت الأسنان في جفنيَّ: العلوي والسفلي، ثُمَّ احمرَّت مقلتاي وانتصبت عدة مرَّات، وقد أثارتني فكرة عضِّها الجامحة.

إلى حدٍّ ما، تحققت هذه الفكرة الجنونية. المرأة المتعرِّية... أنا الَّذي كان يتلصص عليها... كنت في الواقع أراقبها عارية. لكنَّه كان تعرِّيًا مشروطًا. تَعَرٍّ شاهده شخص آخر من قبل، هذا الشخص كان أناي المُختلقة. زادت غِيرَتي لأنَّ أحدًا آخر غيري قد رآها، دون أي إحساس بالسعادة لأنَّني رأيتها عارية؛ إذ لن ترتوي حين تراك تشرب بينما حلقك جاف. كانت أنايَ الأخرى تحدِّق بي وأنا أحدِّق بها؛ كلانا يراقب المرأة نفسها في الوقت ذاته. تذكَّرت حلمًا كنت أتلوَّى داخله بشدَّة وأنا أطفو بالقرب من سقف ما مُخفضًا البصر ناحية جسدي المُسجَّى طالع الروح. أحسست بالخجل وضحكت محتقرًا نفسي. خارت قُواي فمالت المرآة بقوَّة واختفت الغُرفة. بدَّلتها إلى الذِّراع الأخرى لكن وضعت حافة المرآة هذه المرَّة على عتبة النافذة لأُبقيَها ثابتة. لا حيلة لنا حين يصيبنا العطش سوى الجري وراء ماء متوهَّم، حتَّى وإن كُنَّا ندرك أنَّه سراب.

كلاهما كان يواجه الآخر لا يفصل بينهما سوى أربع خطوات تقريبًا. كانت على راحتها دون أن أرى، وكلِّي أسف، ما يُعكِّر صفوهما. تساءلت إنْ كانت قد فرغت بالفعل من نقل ما جرى منذُ ساعة خلت. لعلهما الآن يسخران مِنِّي، هذا إذا افترضنا أنَّهما حليفان. مُعلَّب مُخلص أحمق في انتظار أنْ تُلقي إليه امرأة خمسين ألف ينّ كأنَّها مكافأة لكلبٍ ما، ينفق كما وعد نصف يومه في مراقبة الدوَّامات أسفل الكُوبْري... دِماغ علبة... مُبوَلَة... رجل يحتمي بعُلبة... مُحْتال داخل عُلبة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

انطلقت آخر شحنات ذلك اليوم من الخطِّ الفرعي الإقليمي إلى الخطّ الرئيس. دفع عامل التحويلة الذِراع في الاتجاه العكسي، مُصدرًا صريرًا. بعدها راح يُراقب الضوء الأحمر الخلفي شارد الذهن حين أبصر علبة من كرتون تسقط فوق القضبان. أمال رأسه في حيرة.

لقد بدأت العلبة تمشي.

لكنَّني لم أشعر بأي حقد تجاه المرأة العارية ولا أنَّها دبرت مكيدة لي. ورُغم أنني أحسست بالخزي كما حدث من قبل، فإنَّ مشاعر الكراهية لم تتفجَّر داخلي. لاحقتُ كعبيها باهتمام شديد. جرَّة مائي التي سرقها المعلَّب المزيف. كان جسدها العاري يتجاوز في فتنته ما تخيَّلته. كان هذا عاديًّا؛ ذلك أنَّه لَمْ يكن من الوارد أن أشكَّ في قدرة مُخيِّلتي على أن تلحق بتعرِّيها الرَّاهن. ولأنَّ هذا التعرِّي لا يتجلَّى إلا حين أنظر إليه؛ لذلك صارت رغبتي في رصده جارحة هي الأخرى. عليَّ أن ألتقط صورة فوتوغرافيَّة لهذا العري أو أن أرسمه على قماش ما دام ينطوي في الثانية نفسها التي أكفُّ عن النَّظر فيها إليه. ثَمَّة فارق بين الجسد العاري والجسد. فالأول يستغل الجسد الحقيقي المادي باعتباره مادته الخام، وهو عمل فنِّي عجنته أصابع العيون. رُبَّما كان الجسم جسمها، لكن بالنسبة إلى نظيره العاري، لم أكن أنوي الانسحاب إلى جسدٍ عاجز.

كان جسدها العاري يتكئ على الساق اليُسرى كأنَّه يطفو خفيفًا فوق الماء. أو كوتر غامض مشدود بين أنامل ساحر. كانت تضع أصابع قدمها اليُمنى فوق مُشْط اليُسرى، وانفتحت رُكبتها المثنيَّة قليلًا نحو الخارج. تُرى، أي شيء في تلك السَّاق يشدُّني إليها بتلك القوَّة؟ هل لأنَّها كانت تومئ من طرف خفي للأعضاء الحميمة؟ إنَّ قَصَّات الثياب الآن توحي بأنَّ الأعضاء الحميمة جزءٌ من السيقان لا من البدن. لكن لو كانت هذه هي الحقيقة، فثَمَّة سيقان أخرى كثيرة أشهى. يُولي المعلبون تركيزهم بالدرجة الأولى إلى الأجزاء السُّفلَى من النساء ويعتادون السيقان. ذلك أنَّ أنوثتها تقبع، ولك أن تختلف معي كيفما تشاء، فِي انسيابية منحنياتها. في العظام

والأوتار والمفاصل التي تنصهر بالكامل داخل اللحم دون أثر على السَّطح. لا ريب أنَّ السيقان هي أكثر ما يصلُح لتغطية الأعضاء الحميمة أكثر منها مجرَّد ماكينات للسير (وأنا هُنا لا أتهكَّم إذْ ليس ثَمَّة ما يدعو إلى ذلك، فمن الطبيعي أنَّنا نحتاج لتغطية مثل هذا الماعون النفيس). هكذا تضطر إلى رفع الغطاء بيديك؛ فسحر سيقان الأنثى (ومَن يُنكر هذا السحر لا محالة منافق) حِسِّي أكثر منه بصري.

على أي حال، لا أقصد بكلامي أنَّ ساقيها البارزتين تليقان بامرأة مسترجلة. ذلك أنَّ سيقان الرجال، بسبب ما تحمله من عبء ضِدَّ قوَّة الجاذبيَّة بشكلٍ مستمر؛ تملؤها العُقد، وتنتشر مفاصلها المغروسة عميقًا بشكل أفقي، وهما آليتان عمليتان للمشي. بالتأكيد لن ترى بساقيها أثرًا ينمُّ على ما تبذلانه من جهد لحمل جسم المرأة، مهما بحثت. ومن أجل تقريب الصورة، فإنَّ ساقيها لدنتان مفرودتان كساقَيْ شابٍّ يافع؛ لم يطرأ على صوته أي تغيير بعد. هي أشياء تثير الحسرة بغتة في رجل أنهكه المشي: كخِفَّة طائر مثلًا، أو إحساس المشي منعتقًا من الجاذبية. ساقان معاندتان لا تكفَّان عن تحدي الجاذبية كسيقان الرجال ولا تُقلعان عن المشي كسيقان النساء. ستطاردانني إن قمت بأي انسحاب طائش - والأمر سيَّان بالنسبة إلى الأعضاء الحميمة؛ إذْ لا ينقص ساقيها تحديدًا فتنة الجنس (فحتَّى الأعضاء الحميمة المكشوفة فيها من التحريض ما يكفي). لكنني أحسُّ، حتَّى وإن أفلحت في الوصول إلى أسرارها الحميمة، أنَّ بها ما هو أكثر. أتساءل إن كنت قد اكتشفت في ساقيها الساقين المثاليتين، أم أنَّني أحاول أن أضفي عليهما صفة المثالية.

مال القالبان الكُرَويَّان. كان ردفاها، كما قَدْ تُخمِّن، أكثر حِسِّية مقارنةً بساقيها. رُبَّما لأنَّ مركز الثّقل يرقد داخل الفجوة الغائرة الوحيدة، حيثُ يبرز عظم الوَرِك الأيمن ليُشكِّل قوسًا ناعمًا كأنَّه صدر طائر. ينبعث بخار باهت مِنْ بين السَّاقين. تُمازح الريح طرفه بخفَّة، كأنَّه ظِلّ. لكن حين رمقت شعر رأسها النَّاعم الخفيف ورأيت أنَّه لَمْ يكن يهتزُّ قيد أُنملَة، أدركت أنَّ الريح كانت تهبُّ بالأسفل فقط. خمَّنت أنَّ المروحة غير مُعدَّة كما يليق وأنَّ الهواء البارد كان يُراق فوق الأرضيَّة. كانت وَرِكاها تميلان للوراء، أمَّا بطنها الممتلئة فكانت مبذولة بشكلٍ مريع. كتفاها مقوستان إلى الخلف، وعنقها ينتصب رأسيًّا حيث يدعم دماغًا مال إلى الأمام كأنَّ مفصلاته مفكوكة. كانت وضعيَّة مُرْتاحة جِدًّا، لكن كان يساورني شعور أنَّها تتكئ فوق قضيب من صلب. كانت ذراعها اليُمنى تحاذي السُّرَّة، أمَّا اليُسرى فكانت قريبةً من الضفيرة الشمسية. كنت أخالها تحتضن جسدها، وبدا ثدياها أصْغر من حجمهما الحقيقي لأنَّ صدرها كان مسحوبًا للخلف وقد خلَّف السوتيان تحته حَزَّيْن ورديين. ثَمَّة حزٌّ آخر فوق عظمتَي الورك صنعته ثيابها الدَّاخلية. لا بد أنَّه لم يمضِ وقت طويل منذُ خلعتها وألقت بها جانبًا. وكان ما خلعته من ثياب يتكوَّم عند قدميها؛ حيثُ برزت ثيابها الدَّاخليَّة الرفيعة السوداء فوق لِباس التمريض الأبيض مثل عنكبوت ميت.

عضَّت شفتها السُّفلَى خفيفًا. وكانت ممدودة على اتساع الفمّ فأفلتت من بين أسنانها. أحسستُ أنَّ نصل الأسى الفاتر يمزِّق قلبي لمَّا رأيت الابتسامة تغمر وجهها. رفعت عينيها المشرئبتين، يملؤهما الدلال، ناحية المعلَّب المزيَّف الذي قال شيئًا (لا ريب ملاحظة عابرة) فرفعت المرأة

وجهها وردَّت بكلمتين أو ثلاث. تمطت عضلات ظهرها مثل شريط قياس فولاذي واعتدلت فوق أطراف أصابعها ثُمَّ مشت صوب العُلبة. قلت في نفسي لا إراديًّا: «أنت مخطئة!». وتيبَّس حجابي الحاجز مثل جلد رطب ورحت ألهث. كان وجهي يُشبه خطوطًا فوق بِطِّيخة ناضجة وقد نزف العرق من مفرق شعري. أخذت المرأة شيئًا من العُلبة. كان كوبًا لا تزال فيه بعض البيرة. لم يرُقْ لي مُطلقًا أنْ تشرب هي والمعلَّب المزيَّف من نفس الكوب، فتهيأت كل عضلاتي كي أحطِّم زجاج النافذة وأثب داخل الحُجرة. لكنني كنت أعرف أنَّني لن أفعل ذلك بسبب غدرها (هذا مثال على حجج الرَّجُل المعلَّب). بطريقةٍ أو بأخرى شربت نصف البيرة مُصدرةً صوتًا سخيفًا من فمها كأنَّها تشفط عيدان سباغيتي، ثُمَّ أعادت الكوب إليه وتهادت إلى الوراء بضع خطوات. غمرني إحساس بالارتياح حين انتبهت إلى أنَّ المعلَّب المزيَّف لم يخلع عُلبته، آنئذٍ زال الشدُّ الَّذي امتدَّ من كتفيَّ إلى وركيَّ وصدر عني صوتٌ عالٍ كأنني أمزِّق شيئًا ملتصقًا. عادت إلى وضعيتها السَّابقة وكانت تتكلَّم بسرعة، بعدها لزمت الصمت فجأة وتطلَّعت إلى السقف ثُمَّ راحت تمرر كفَّيها فوق وركيها. ومرَّة أخرى بادر المعلَّب إلى كلام لم تجد فيه المرأة ما يهمّ.

دارت حول كعبيها بغتةً وأولتنا ظهرها. ثُمَّ أخفضت جسدها سريعًا على الأرض فوق أربع. ضمَّت مرفقيها وركبتيها معًا في وضعيَّة برز فيها الوركان أعلى من باقي الجسد. أضفى عليها النُّور المباشر الَّذي لم يخترق ظِلَّ اللَّمْبة، حِسيَّة وتكوُّرًا مغالى فيهما. كان الثديان كأنَّهما غطاءان فوق قعر مثلث معكوس صنعه الجِذْع والفخذان وأعلى الذراعين. تخدَّل كل

جسدي إلا عيناي. وراح المعلَّب المزيَّف، منحنيًا إلى الأمام، يتهادى على مهله جيئة وذهابًا.

وفجأةً، اضطربت الأرض أسفل قدميَّ كأنَّها ساخت. فقدتُ اتزاني وسقطت فوق إحدى رُكبتيَّ. حرصت على عدم إثارة جلبة. بَيد أنَّها لم تكن الأرض ما كان يضطرب، بل الكلب الضجر الَّذي انحشر بين رُكبتيَّ. لم يكن سهلًا أن أطرده مِنْ سُكات. فلا كنت أقدر على أن أثير صخبًا ولا أن أدعه ينبح. لكن هياجه كان يزيد، وقد أقحم أنفه الذي يُشبه قطعة صابون رطبة بين ساقيَّ مُستجمعًا كلَّ عافيته. كان يهِمُّ بدخول العُلبة معي. لم تكن أمامي خيارات كثيرة، فصنعت ثقبًا صغيرًا في عُلبة لحم بقر ثُمَّ طوَّحتها بكل عزمي بعد أن شمَّمته رائحة المرق وجعلته يلعقه. كنتُ أعرف أنَّ المخلوق المسكين سيصارع العُلبة حتَّى صباح الغد.

هُرعت عائدًا إلى النافذة، وكان سطح المرآة مُلطخًا بآثار أصابعي. مسحت الآثار بسرعة بطرف قميصي وأعدتُ المرآة كما كانت. كان المشهد قد تبدَّل تمامًا. ولحسن الحظِّ، لم يحدث مطلقًا أشدّ ما كان يُقلقني. كان المعلَّب المزيَّف، لا تمزُّق ولا تفتُّت شظايا، لا يني قاعدًا بنفس المكان عند حافة الفراش. بالطبع كان بإمكانه النوم معها حتَّى وهو يلبس العُلبة. إذْ لَو صنع ثُقبًا على مقاس ذَكرِه وكان مستعدًّا لبعض الأوضاع الشاذة، لكان ذلك ممكنًا. على أنَّ ذلك كان يقتضي أن تساعده، فضلًا عن الكثير من الوقت. تُرى هل استغرقت وقتًا طويلًا كي أُبعد الكلب؟ تساءلت. رُبَّما، لكنَّها على أي حال لم تعُد عارية. كانت تدخن سيجارة وتتكئ على

طاولة العمل في رُكن الغرفة. أحكمت إغلاق أزرار معطف التمريض سابغ الطول وسترت ساقيها. بدت، والحال هكذا، متنائية بشكل غريب كأنَّها امرأة أخرى. نضب ثلث السيجارة تقريبًا. حاجباها منهكان منيعان. أطلَّت حقنة شرجيَّة من جيب لِباسها الأبيض، وكان أنبوبها المطاطي يطوِّق أصابعها الرشيقة القويَّة. غطَّى دهان فضِّي أظفارها. هل يُعقل أنَّها كانت عارية منذ دقائق قليلة خلت، أم كان كل ما رأيته في المرآة محض سراب؟

تصاعدت مِنْ بقعة ما وراء الأشجار أنفاس الكلب الحزينة، يدقُّ بالأرض عُلبة صفيح علقت بأسنانه. كنت كلما دعكت رقبتي تتساقط منها أكوام من تراب، فتملَّكني ضيق رهيب وأنا أجمعها. كنتُ كَمن أصابه جُرح ما غائر بسبب شيء ما لم يحدث في الواقع – مشهد العُلبة وهي تستبيح المرأة – شيء لم أشأ أن يحدث، شيء مُحال أن يحدث حتمًا. رُبَّما لأنَّني كنت ضحية للغشِّ دائمًا.

أومأت برأسها بعد أنْ فرغت من السيجارة، وهي تهرش باطن أذنها بخنصر يدها الفارغة. اتسعت المسافة بين عينيها لمَّا انصبَّ نور المصباح عليها مُباشرةً، وبدا أنْ بها حَوَلًا خفيفًا. ابتسمت بفمها فقط كاشفةً عن أسنانها بشكل مُريب، فتحوَّل وجهها لوجه طفلة عنيدة. أغلقت فمها وهي تهزُّ دماغها على خفيف يمينًا وشمالًا، فغدت شفتها السُّفلَى الناتئة شَهْوانيَّة فجأة. اتخذت وضعية من يركل بالونًا ورقيًّا خفيًّا وهي تعدل الجزء الفوقاني من جسدها قليلًا. عبرت الغرفة صوب الباب. ورأيت، حين بدأت المرأة المشي، أنَّها هي حقيقةً. ثَمَّة خِفّة تدير الرأس تلازم جسدها. فرحت أتساءل

لَو كان هذا الإحساس شديد العاديَّة بانعدام الوزن هو إحساس بالسقوط في الحقيقة. زَحَفَ المعلَّب المزيَّف بعيدًا عن الفراش. ودون أنْ تلتفت المرأة حتَّى، جذبت مقبض الباب ومالت وراءه لتغيب بالجانب الآخر. كان المعلَّب الَّذي حاول اللحاق بها يُشبه حشرة ما تمزَّقت أطرافها، وباستثناء أنَّه لم يكن يلبس حذاءً مطَّاطيًّا، كان صورة طبق الأصل مِنِّي، حتَّى فيما يتعلَّق بالقماش الَّذي يطوِّق خصره. انغلق الباب وتوقَّف المعلَّب. وفي النهاية، لم يرغب في الابتعاد كثيرًا خلفها. هكذا بدَّل اتجاهه، والعُلبة تهتز، وتراجع بخطوات بطيئة كأن ثيابه التحتيَّة أصابها البلل. حينئذ رأيتُ واجهة العُلبة. كان القينيل المنسدل مِنْ نفس لون وتصميم عُلبتي (باستثناء عدم وجود ثقب واحد فيها – ولا حتَّى ثقب لعضو ذَكَري).

لكنه كان استنساخًا ضافيًا. إفراط في التفاصيل بالنظر لغاياته العادية. تُرى ماذا كان يحيك في الظلام؟ لا يبدو أنَّ إقناعه بالموافقة، مهما حاولت، على قبول الخمسين ألف ينّ سيكون بالأمر السهل بالنظر لما يجري في الوقت الرَّاهن. فمنذُ اللحظة الأولى التي تلقيت فيها النُّقود انتقل الحقُّ في أنْ أكون مُعلَّبًا حقيقيًّا إلى الطرف الآخر، ورُبَّما أكون أنا من أصبح مزيَّفًا. كان ظلِّي يروح ويجيء بِخُطَى دُميَة آلية تترنَّح عبر قُطر الحُجرة. لم يُبهجني كثيرًا أن أرى صورتي في المرآة تتجاهل إرادتي وتتجوَّل كيفما شاءت. حمار! لِمَ لَمْ يخلع العُلبة على الفور؟ رُبَّما كان ثَمِلًا. لكنه إنْ واصل على هذا المنوال لَنْ يستطيع أبدًا أن يخرج منها. طيب، لو لم يكن يرغب في خلعها فلا بأس بذلك أيضًا. ولو شاء، أستطيع أنا الآخر أن أخلع عُلبتي بدلًا منه. كنت أحسُّ أنَّ ترك العُلبة هو مسار مُحتمل للأحداث. رُبَّما، إنْ جرؤت على

التمنِّي، كان هدفها الأصلي من تدبير هذه الصفقة هو احتجازه داخل العُلبة. فتغدو حُرَّة آنئذٍ. لكن تُرى ماذا إنْ قمت باستغلال تلك الفرصة السانحة في قطع أي صِلة تربطني بالعُلبة؟

قررت أن أرحل في الوقت الرَّاهن. ما من ميزة في استعجال النتائج. كما أنَّ انتزاع العُلبة في أي لحظة لا يستدعي منِّي إلا أن أحسم موقفي. فرُبَّما أرى بعد أنْ آخذ وقتي وأرتب مشاعري، أن العودة في الغدِ هي الخيار الأفضل. قررت أن ألقي نظرة سريعة على حجرتها قبل أنْ أرحل. عبرت الممرَّ المُغطَّى بالحصى الَّذي يؤدي للمدخل (لم أتسبب بجلبة بسبب التراب الَّذي غمرني). نحَّيت العلبة جانبًا مندفعًا في طريقي خِلال أجمَة أزهار النجميَّة التي تطاولني، وأومض في عينيَّ صدع يُشبه تجويف محارة ملفوفة – رُبَّما كان مردّ هذا الوميض الأفكار التي أسفرت عنها رائحة العُشب الفاقعة. ورُبَّما كان التجويف أسفل أبطيها. بَيد أنَّ قفا المبنى كان جهة الشمال، وكل النوافذ صغيرة وعالية. لا سيما نوافذها التي حجبتها ستائر ثقيلة. كِدْتُ ألَّا أتبيَّن أي نور، على أنِّي لم آمُل فيما يزيد. رحت أنتظر أن يحدث شيء ما مُحتبئًا أسفل إفريز الشبَّاك دون رغبة في الاستسلام. هزَّت الريح الميزاب فتساقطت قطرات ضخمة من الماء ولَعْلَعت عُلبتي مثل طبلة صفيح. لكن دون ردِّ فعلٍ من حجرتها.

بالطبع، لم يكن الخروج من العُلبة أمرًا ذا بال. لكنني لم أشعر أنَّ ثَمَّة ما يجعلني مُضطرًّا للخروج منها. رغم ذلك تمنيت لو أجد، إنْ أمكن، مَن يمدُّ لي يدَ العون.

ثلاث صفحات ونصف الصفحة فوق ورق مُختلف.

(ليس الورق وحده المختلف. للمرَّة الأولى يتم استعمال قلم حِبر سائل، والكتابة واضحة الاختلاف. على الذين سيقومون بتنقيح هذه النسخة في دفاتر جديدة، في الوقت المناسب، توحيد نوعية الورق ونمط الكتابة. أمَّا الآن، فما من داعٍ للقلق بشأن اختلاف الكتابة والورق).

قال الطبيب:

- طيب. ماذا الآن؟

أجابت متذمِّرة:

- أنا عطشانة.

- ثَمَّة كَسر في هذا الكوب.

- لا يهمّ.

- طيب...

- لقد خلعت ثيابي... تمامًا كما وعدت.

- أتكلَّم بشأن النُّور.

- هل هذه كل البيرة الموجودة؟

- يشغلني كَمْ كانت الغرفة معتمة وأنت تخلعين ثيابك.

- كانت عتمة قاتمة. ظلام دامس جعلني أستغرق وقتًا طويلًا كي أحلَّ مشدَّ صدري.

- ما من صِلة بين النُّور ومشدِّ الصدر. يُمكنكِ فكُّه باستخدام حاسَّة اللمس.

- لا بأس، أحسب ذلك، لكن...

- لنتجاوز هذا الأمر. وماذا بعد؟

- نفدَ صبره وألحّ في مساعدتي على فكِّ مشدِّ صدري... لم يكن لينصت.

- غريب.

- لِمَ؟

- كانت عتمة قاتمة، أليس كذلك؟ كيف عرف أنَّك تواجهين متاعب في فكِّ مشدِّ صدرك؟

- آه، لقد عرف وحسب... بطريقة أو بأخرى.

- بعدئذٍ تَركتِهِ يساعدك؟

- مُطلقًا.

- لِمَ؟

– لقدْ وعدت، أليس كذلك، ألّا أدعه يتحسسني بتَاتًا؟ إلى ذلك، انظر مدى طول ذراعيَّ. أستطيع مصافحته مِنْ وراء ظهري.

– لا بأس. إذن فقد خلعت ثيابك في الظلام وبعد أنْ فرغت أضأت النُّور. هل هذا صحيح؟

– نعم، أعتقد ذلك...

– طيب، ماذا عن اللقْطة؟

– قمت بها، بالطبع.

– عارية.

– لا تستطيع تحطيم الكبسولة بالإحساس وحده.

– التعرِّي يكفي. شيء سخيف أن تتمادي حدَّ التصوير عارية.

– الشيء ذاته، أليس كذلك؟

– ثَمَّة اختلاف كبير.

– لا ترفع صوتك هكذا.

– أَصغِي إليَّ. نحنُ نغدو أكثر صراحةً حين نتعرَّى كُليًّا، أكثر مِنَّا حين نتخفف من الثياب فحسب. ويسري المنطق ذاته على الصور الفوتوغرافيَّة. يغدو الجسد العاري أكثر اكتمالًا أثناء قيامه بعمل شيء من مجرَّد جسد مكشوف العورة. لا يُمكنكِ أن تفلتي بالقول أنَّك كنت تجهلين هذه النُّقطة.

– أدرك ذلك. سأتروَّى من الآن فصاعدًا.

- حاولي أن تُعيدي مرَّة أخرى ما جرى بالترتيب منذُ البداية.

- خلعت ثيابي، أضأت النُّور...

- كان النُّور مُطفئًا قبل ذلك، صَحّ؟

- إذنْ، أطفأت النُّور. خلعت ثيابي. أضأت النُّور. ومِنْ ثَمَّ التقط صورتي.

- رائع. فِي غضون ذلك لم تنطقي حرفًا... صحيح؟

- لا أعني هذا...

- سنواجه متاعب لو بترتِ الأحداث متى شئتِ.

- لم يقُلْ شيئًا ذا بال. حقًّا. أذكر أنَّنا تكلَّمنا بشأن الطقس، وكان يُربِّت فوق شعري هكذا...

- لقد وعدت ألَّا تدعيه يستعمل يديه.

- لكنه شعري فقط.

- الشيء ذاته... بأي مكان...

- لكنَّه تحسس شعري بالصدفة، و...

- لم تصدِّيه.

- كان ذلك وأنا أتكئ لأشعل اللمبة إلى جانب الوسادة.

- اللمبة؟

- طلب مِنِّي أن أشعلها.

- ماذا؟

- ثَمَّة أماكن لا تستطيع رؤيتها بوضوح حين يكون مصدر الإنارة من أعلى.

- كفى. لَنْ ننتهي ما دمت تفرطين في تدليله هكذا.

- أنت مُحقّ. سآخذ بالي.

- بعدئذٍ ماذا قال؟

- قال إنَّ شعري يُشبه المطر.. إذْ كان يتكوَّر عساليج.

- وكان العرق قد بلَّلك للتوّ.

- بلى كنت أقطر.

- لكن مهلًا. قبل كلامه عن الطقس، كان قد طلب منك إضاءة النور، أليس كذلك؟

- بلى. كان النُّور أولًا.

- لست جديرة بالثقة.

- آسفة. أشعرُ بالإنهاك الشديد. لا أصلح لهذه المهام. انظر، ساقاي ترتعشان كأنني أجلس فوق غسَّالة كهربائيَّة.

- لا بأس، تعالي. حُضني أفضل من أي غسَّالة.

- أودُّ التَّدخين.

- التدخين بوقت مُتأخر من الليل يصيب بشرتك بالخشونة.

- أفضل من البقاء عارية.

- أنتِ تُغالين. إياكِ أن تخالي شخصًا كهذا رجلًا. هكذا لا يزيد تعرِّيك أمامه عن خلع البنطلون داخل حمَّام.

- بل أنت أيُّها الطبيب مَنْ يولي جُلَّ اهتمامه لمسألة عُرْيِي أمامه. أنت تبالغ بطرح الأسئلة.

- أريد أن أعرف الحقيقة ليس إلا.

- وأنا أودُّ أن أنسى ما جرى.

- ثَمَّة أشياء يبدو أنَّك تريدين نسيانها بأي ثمن.

- لا شيء منها مما قد يراود خيالك أيها الطبيب، للأسف.

- إنْ صحَّ هذا، فلا بأس.

- هو كذلك. في البداية مسح العماص عن عيني وجعلني أتَّخذ كل الوضعيات. راح يُراقبني كمَن يُطارد كنزًا. على أنَّ صوري سرعان ما بدأت تؤتي ثمارها، وأصبحت نظراته غريبة شيئًا فشيئًا. وخلال أقل من خمس دقائق كان يُحدِّق بنور الفلوريسنت، ذاهلًا عنِّي تمامًا.

- لا بأس مِنَ السماح له بأن يحلم كيفما شاء.

- على أنَّه في النهاية جعلني أعطيه حُقنة شَرَجيَّة.

- حُقنة شَرَجيَّة؟

- كان شيئًا يفوق الاحتمال. نفس الأسئلة مرَّة تلو الأخرى. كنت أقول لنفسي ألن يكفَّ عن التساؤل أبدًا. تصوَّر... لقد طلب منّي أنَّ أرى إنْ كان ذَكَره قد انتصب أم لا. أصابني الامتعاض فكذبت وقلت إنَّ انتصابه لا يتعدَّى الثمانين بالمائة. آنذاك غضب وطلب مِنّي ألا أهذى؛ ذلك أن عليه أن يعرف نفسه بصورة أفضل.

- وإن كان يعرف، ألم يكن ليضطر إلى سؤالك؟

- ثُمَّ بدأ يضايقني. وحين شمَّ رائحة عرقي انتصب ذكره، حينئذٍ طلب مِنّي أن أتنحَّى جانبًا بعض الشيء.

- لا تمزحي. تُرى أي الأجزاء انتصب في هذا الخنزير المَخْصيّ.

- حسنًا، لم ينتصب. بل شرع في البكاء. وأصابني الذُّهول. أو رُبَّما كان يتكلَّف البكاء. ولمّا دققت النَّظر عن قُرب رأيت بكاءه، لكن بفكَّيْه وصوته. مِنْ ثَمَّ...لكم كانت رائحة أنفاسه كريهة! لم أتحمَّلها سوى بحبس أنفاسي خلال الفترة التي كان يضايقني فيها. بدا مستثارًا بعض الشيء. وقال إنَّه كان يعجز عن تحمُّل رؤية ما بين ساقيَّ وأنا على أربع.

- وهل كنت قد تماديت أثناء نزولك على أربع؟

- على الإطلاق. بل كان خطأ اللقطة. أمَّا أنا فقد اكتفيت بالوقوف مكاني مثل عمود ثابت، في حين اكتفى هو بتخيُّل ما أراد. أمر غريب، أليس كذلك. رُبَّما هذا ما يدعونه تنويمًا مِغْنَطيسيًّا. لم يكن ينظر لي في الواقع. مع ذلك حين أفكِّر في أنَّ ما جرى كان بناءً على رغبته، أشعر بأنَّه لم يكن يرى

سواي. لذلك خارت قُواي ما إن ظننت أنَّه يراني، وفشلت في منع نفسي من تخيُّل أنَّني على أربع. فارقت الدِّماء ردفيَّ فصارا شاحبين مُخدَّرين. وأحسست أنَّني أغدو حجرًا.

- ماذا عن الحقنة الشَّرَجيَّة؟

- آه، كان هذا لاحقًا. حين كفَّ عن البكاء فجأة، أطلق صرخة تُشبه صرخة مريض بأزمة قلبيَّة. كان يصيح بي: أسرعي... أسرعي. لقد كان يحتاج إلى نِتْرُوغلِيسِرين.

- شخص عجيب.

- رغم ذلك لم يكن منتصبًا، بل كانت لديه استجابة ما. نزل على ركبتيه وراح يلهث، وحين أنصتُّ بعناية سمعته يُردد:

- شُكرًا... شُكرًا.

- لِمَ لَمْ ترفضي الحقنة الشرجيَّة؟

- سبق أن قلت أنت نفسك ألَّا آخذ الأمر على محمل الجدّ، أليس كذلك؟

- قطعًا. قطعًا.

- أرجوك دعني ألتقط أنفاسي. كنتُ أحسبك ستقول لي إنَّ كل ذلك ليس بالشيء المهم.

- لا بأس، لنتوقف هنا. لكن لا تقفي بعيدًا... تعالي. اخلعي جوربيك.

- لا ألبس جوربين.

- أسرعي، هيَّا... ما الوضعية التي أراد صراحةً أن تتخذيها؟

- أطفئ النُّور...

أصل الحكاية هي العلاقة العنيدة بين الأنا التي تكتب والأنا التي أكتب عنها.

المرأة العارية على أربع. اتَّقد المثلث المعكوس المؤلَّف مِنْ جذعها وفَخْذيها وأعلى ذراعيها بعيدًا في قعر مُقلَتيَّ. وكانت زخارف حمراء تغبِّش الرؤية أينما نظرت. تفتَّحت مسام جسدي كُلُّها في ذات الوقت لاهثة ألسنتها. أحسستُ بالغثيان... وتوتر غير عادي... بسبب نقص الهواء. ولم أكن قَدْ نلت كفايتي من النَّوم أيضًا.

برغم ذلك، متى وكيف وصلت إلى هذه النُّقطة؟ يبدو أنَّني أخاتلُ نفسي. ثماني عشرة دقيقة بعد الثالثة. أنا هُنا الآن عند الحمَّام البلدي السَّاحلي المواجه لميناء طوكيو بالجانب الآخر من المرفأ. شاطئ رملي مهجور تتسكَّع الكابوريا الناسكة بأرجائه صاخبةً. وراية مُثلثة خضراء مشبَّعة بالماء ترفرف فوق عصا خيزران. بغضِّ النَّظر عن مدى انحدار الطريق المؤدي إلى هنا، فلا يُمكن بأي حال أن أكون قد جئت متدحرجًا. لا بد كان لي غاية ما، بصرف النَّظر عن ماهيتها.

في الواقع، كنت ها هُنا تحديدًا قد قمت بالترتيبات كافَّةً قبل أسبوع من ذهابي إلى المستشفى مِنْ أجل الحصول على علاج لِجُرحي. مكان مثالي لِمُعلَّب كي يُفارق عُلبته دون أن ينتبه إليها أحد. وقَدْ أردت غسل ملابسي التحتيَّة وقميصي والحلاقة وغسيل شعري ناهيك عن عموم البدن. كنتُ طليق اليدِ في استعمال حنفيَّة المحطَّة أو مرسى القوارب، لكن المكان يزدحم بوقت متأخر؛ لذلك إذا أحسنت اختيار الموعد فلن تواجهني عقبات وسأستطيع استعمال الدُّشِّ الموجود في غرفة خلع الملابس دون أنْ يسألني أحد.

لست مضطرًّا إلى الاختباء أبدًا. وقد فرغت مِما جئت لأجله منذُ دقيقة خلت. نظَّفت ثيابي التحتيَّة وحلقت ذقني وغسلت شعري وجسدي. ثُمَّ عُدت إلى داخل العلبة بشكل مؤقَّت حتى يجف قميصي وثيابي التحتيَّة ولكي أتجنَّب الإصابة بالبرد. كان هذا يفي وزيادة فأردت أن أغادر على الفور. بلى، كانت تسيطر عليَّ الوساوس أنَّني نصف مكشوف. لا يحتاج الهرش لقرار خاص إن لدغتنا حشرة. كان المنفذ إلى النفق واضحًا من بعيد. لَوْ أنَّ العُلبة نفق مُتحرِّك، فالمرأة العارية نور ساطع يتدفق داخل المدخل، ينتظر عامدًا أنْ تراه العيون. أعتقد أنَّه ها هُنا بالتأكيد تقبع الفرصة السانحة التي كنت أنتظرها طوال ثلاث سنوات.

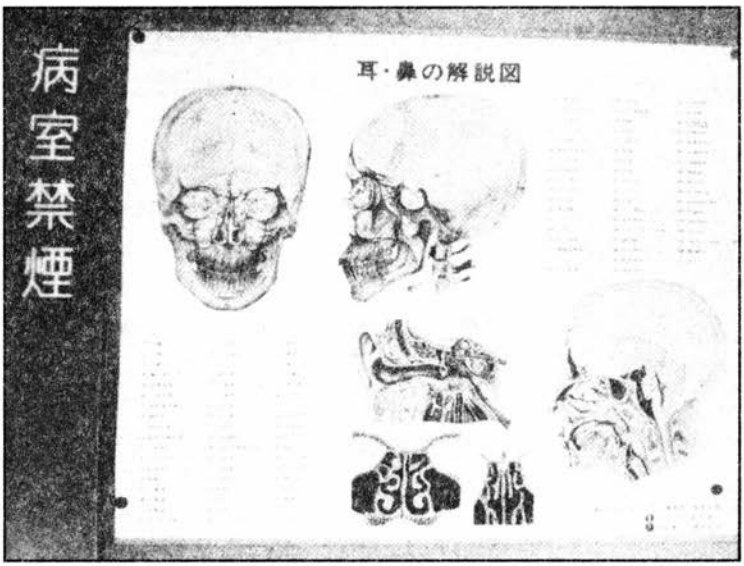

أجيلُ النظر الآن داخل العلبة... مكعَّب فسيح بعض الشيء يتجاوز طاقتي... جدران من كرتون خضَّبها العرق والتنهُّدات... رسوم جرافيتي على هيئة حروف صغيرة منقوشة بقلم حبر في كل ركن... أوشام معكوسة... زركشات شخصيَّة عبارة عن ثقوب ليست جذَّابة جدًّا...

إلى ذلك، صادفت على غير توقُّع المعلَّب المزيَّف. كانت نُسختي المطابقة تُحدِّق بثبات بالمرأة المنكفئة فوق أربع وردفاها عاليان في الفراغ (في انتظار أن يُريا مطمئنين). لحِدِّ الآن لم أكن قد شعرت بمدى ما في تلك العُلبة من بشاعة. لكن ما لم يكن مقبولًا هو الحلم المُتواتر الَّذي أغدو فيه شبحًا يُحلِّق عند السقف مُخفضًا البصر ناحية جسدي الميت. تُرى هل كان ثَمَّة ما يزال يربطني بالعُلبة بالوقت الرَّاهن؟ الأدْهَى أنَّ إحساسًا بالضجر قَدْ تملَّكني تمامًا. تكمن فائدة الأنفاق في وجود منافذ للخروج. ولا فرق على الإطلاق لو مزَّقت تلك الدفاتر ورميتها بمجرَّد أن أنتهي من كتابة هذا السطر الأخير هُنا...

لا بد أنَّه لم يمضِ وقت طويل منذُ أن بدأت أعيش داخل صندوق. كنت قد رأيت يومًا عُلبة كرتون تالفة محشورة بفظاظة داخل الفراغ الضيق بين مرحاض عمومي وسياج خشبي (رُبَّما بالقرب مِنْ موقف سيارات مكشوف). كانت العُلبة وساكنها تُشبه بيتًا مهجورًا وبدا أنَّ سيرورة التقدُّم في العمر كانت خاطفة، هكذا تحللت العلبة واكتسبت لون العنب الذابل. لكنني استطعت أن أتبيَّن بنظرة سريعة أنَّ العلبة لم تكن سوى قشرة نبذها مُعلَّب ما. كان ثَمَّة، حيثُ بدت نصف ممزقة، ما تبقَّى من نافذة الرؤية. وكان الستار البلاستيكي المُجعَّد لا يزال ملصوقًا، وقد انتفخت تجمعات ناتئة من ثقوب السمع الصغيرة على الجانبين كأنَّها مرض جلدي ما. حاولت خلع السَّقف فلعلع صوت يُشبه تمزيق ضمَّادة لاصقة، بعدها بَانَ قلب العُلبة. فحشرت نفسي داخلها بشكل غريزي وأخفيت هذه القشرة المفصولة عن عيون المارَّة.

كانت آثار حياة شاغل العُلبة السَّابق (ولِنهبه اسم «ب» بالوقت الرَّاهن) محفورة، مِثل أثر كفٍّ مطبوع فوق صلصال، واضحة ومعكوسة داخل العُلبة. كانت آثار العيدان الرَّخيصة التي استخدمها لتدعيم الأماكن الممزقة من خلال ربطها بشريط عازل واضحة. في حين ذوت قُصاصات صور فوتوغرافيَّة لمتعرِّيات ملطَّخة بما يُشبه براز طائر. ثَمَّة حمَّالة حمراء لشدِّ حزام البنطلون كي لا ترتجَّ العُلبة، وصندوق بلاستيك صغير موضوع أسفل نافذة الرؤية. إضافة إلى آثار عدد وافر من رسوم الجرافيتي التي غطَّت السَّطح كلَّه، ومساحات مستطيلة بيضاء واسعة وأخرى صغيرة أحاطت بالمواضع التي كانت تتدلَّى منها بعض الأشياء في السابق: كالمذياع والحقيبة والبطَّارية.

خارت قُواي وأحسست بالبرد. شعرت كأنَّني أشهد افتتاح التابوت الحجري لمومياء «ب». ارتجفت. لم أفكِّر من قبل أبدًا في موتي (وموت علبتي) على هذا النحو. أريد أن أتلاشى بشكل عادي - حين يجيء الموعد - مثل قطرة ماء تبخَّرت. لكنه كان العالم الحقيقي حيث لا خيال. كيف بالله مات «ب»؟

بالطبع، لا يستتبع فَناء العلبة موت «ب» بالضرورة. فرُبَّما يكون قد عبر النفق ثم ألقى بالعُلبة. صارت جُثَّة العُلبة فراشة (لو كان تشبيه الفراشة مفرط الرومانسيَّة، فلا بأس بتشبيهها بحشرة زَيْز الحصاد، أو ذبابة مايو) الجلد المسلوخ لخادرة حلَّقت بعيدًا. أردت أن أصدِّق أنَّ هذا ممكن، وإلا ما استطعت تحمُّل ما أراه. لذلك كنتُ في حاجة إلى برهان؛ فرحت أمعن

النَّظر في الجرافيتي المنتشر في كل جانب بحثًا عن دليل. لكن لِسوء الحظِّ كان «ب» يواظب على استعمال قلم خطَّاط بحبر يذوب في الماء. هكذا كان تبيُّن ما كتب عملية شبه مستحيلة. ثَمَّة غطاء فوق العُلبة البلاستيكيَّة الصغيرة، لا ريب أنَّ مفتاح حل اللغز يرقد هناك، هذا إن وُجِد. ثنيت الغطاء الصلب فانفتحت المفصلَّة. ووجدت في الدَّاخل قلمَيْ حبر وسِكِّينًا من دون مقبض وحجرَ قدَّاحة وساعةً من دون غطاء زجاجي وبعقرب الدَّقائق فقط، ثُمَّ دفترًا صغيرًا من دون جلدة. هكذا بدأت الصفحة الأولى. فنسختها في التوِّ على الجانب الدَّاخلي من عُلبتي (لم يزل الكثير من المساحات الشَّاغرة بالوقت ذاته). أستطيع نقلها كما هي بالضبط.

«كان قلقه فاحشًا. ذلك أنَّ الفزع من اختفاء مسكنه كان يستولي عليه، حتَّى وإن لم يكن غيابه قد طال إلا قليلًا، فما عاد يخرج مطمئنَّ البال. لذلك ازداد ميله بالتدريج للبقاء داخل السكن سوءًا، وبلغ به الحال أن حبس نفسه داخل حُجرته، عاجزًا عن أن يخطو خطوة إلى الخارج. في النهاية أمَّا مات جوعًا أو مشنوقًا. وبالطبع لم أسمع بأحدٍ لحدِّ الآن تعرَّف إلى الجثَّة؟».

تداعى الدفتر بين أصابعي مثل بسكويت منقوع حين حاولت أن أقلب الصفحة التالية، وتفتَّت معه دليلي هو الآخر. وكنت لا أزال عاجزًا عن تقدير أهميَّة رُفات العُلبة الفارغة المهروسة.

هل عليَّ الآن أن أستأذن بالانصراف مِنَ العُلبة؟ لكن قميصي وثيابي التحتيَّة كانت، لسببٍ ما، تستغرق وقتًا طويلًا كي تجفّ. كان المطر قد انقطع، لكن بسبب السحابات الخفيضة المُثقلة بالمطر استغرقت الثياب

طويلًا كي تجفّ. لم أكن منزعجًا من عُريي داخل الصندوق لحسن الحظّ، ورُبَّما كان مردّ ذلك إلى أنَّني نظَّفت نفسي من الأوساخ بعناية، فغمر شعور غريب بالطزاجة أجزاءً شتَّى من جسدي، بل أحسستُ بلهفة حقيقية إلى احتضان نفسي. سوى أنَّني لا أنوي البقاء هكذا للأبد، فتمنيت لو يبلغ هذا الصباح الفاتر نهايةً في أقرب وقت.

انصهرت السماء الرطبة الدَّكناء مع البحر القاتم عند مستوى النَّظر. كان الماء أكثر قتامةً من السماء بكثير. تسقط عتمة سحيقة كأنَّها مصعد. عتمة لا قرار لها لا تزال تستطيع الرؤية عبرها بعينيك المغمضتين. أُنصتُ للبحر. وأرى جوف جمجمتي مثل خيمة مُقبَّبة برزت ركائزها الدَّاخلية كأنَّها تجويف مركبة فضائيَّة. كانت قِلَّة النوم تدفع دمائي للفوران. كنتُ في حاجة إلى النَّوم ساعتين أو ثلاثًا على الأقل قبل أن أغادر الصُّندوق. هكذا حاولت أن أغمض عينيَّ. صارت الأمواج واضحة. أمواج في انحسار مُطَّرد؛ طوابير متوازية تضيق المسافة بينها باستمرار ولا تكفُّ عن الدَّحرجة في اتجاه البحر المفتوح. للأمواج المتعاقبة جبهة وظهر، وكانت الجبهة تتلألأ بعض الشيء. جحُظت مُقلتا عينيَّ اليُمنى واليُسرى وتهدلتا، وأنا أميل للأمام محاولًا الرؤية خلالهما. هبَّ نسيم خفيف من البقعة التي أنظر إليها. كانت مُقلتاي تثبان ولا تكفَّان عن الدَّحرجة بين الأمواج. وأحسست بالغثيان. فتحت عينيَّ. البحر والسماء لا ينيان ساكنين مُعتمين وكل ما عداهما كما كان في الأصل. كنتُ ضئيلًا فوق الرِّمال البليلة القاسية بصورة يُرثى لها، وبدا أنَّ لا حيلة لي إلا أن أنتظر مفتوح العينين حتَّى يغلبني النُّعَاس بغتة.

لكن حتَّى ولو كنت أعجز عن النُّعاس قليلًا، لا بد أنْ أبدأ العمل، تحت أي ظرف، بالخطَّة الموضوعة حين يأزف الوقت. سأزور المستشفى مرَّةً أخرى في الثامنة بالضبط بعد أن أتخلَّص من العُلبة التي خلعتها. بذلك أحصل على أكبر وقت ممكَّن لأنَّ المرضى الزائرين يحضرون بداية من السَّاعة العاشرة. سأثير استياءهما وبالتالي المشاكل إن ذهبت أبكَر من ذلك. الثامنة موعد مناسب ولن أفسد نومهما. يُمكنني إقناعهما بتخصيص ساعتين من أجل التفاوض، وإن كنت لا أستطيع أن أزعم أنَّ الساعتين كافيتان. كما يُمكنني أن أقنعهما بأخذ اليوم كلِّه إجازة من الفحوصات والاستمرار في المفاوضات. على أي حال ستستغرق المفاوضات وقتًا طويلًا... لكن أي مفاوضات...؟

(سأسجِّل هذا قبل أنْ أنساه. لقد طرأت لي توًّا عبارة فاصلة يتعيَّن عليَّ الاستعانة بها حين أراها: «إيَّاكِ والهَزَر أو الغضب. لا أعبأ حين يهزر الآخرون أو يغضبون. فوحدك أنت مَنْ أعبأ به»).

الآن هدِّئ من روعك. لِنُخاطر. أتخيَّل أنَّهما سيصلان إلى اتفاق إن نجحت في ألَّا تتوقَّف المفاوضات، لكن إن لم نصل للاتفاق فلا مندوحة من إلغائها. ما يهم الآن، بدلًا من الانشغال بالمفاوضات، هو عمل الترتيبات اللازمة كي أصل إلى هناك عند الثامنة. أقول الترتيبات اللازمة رغم عدم وجود ما يمنع وصولي على وجه الخصوص. إذْ ستغدو العُلبة حين أمزقها

إلى ثلاثة أو أربعة أجزاء أطويها معًا محض نُفاية عادية. ولنْ يستغرق هذا أكثر من خمس دقائق على الأغلب. أمَّا الأغراض داخل العلبة فليست إلا أدوات للاستعمال اليومي في حياة تستمر دون توقُّف، كما أنَّها لا تساوي الكثير. هذه اللوحة البلاستيكيَّة التي أستعملها الآن كمسند لدفاتري على سبيل المثال ليست إلا لوحة سميكة عاديَّة بيضاء كاللبن، تبلغ أبعادها ست عشرة في ثماني عشرة بوصة. رغم ذلك لا أستطيع الحياة من دونها. فهي تقوم أولًا وقبل كل شيء مقام طاولة. سطح ثابت لا غنى عنه لتناول الطعام وقراءة البخت بأوراق الكوتشينة. تغدو أيضًا لوحًا للفرم حين أطهو. وضلفة شبَّاك تمنع المطر عن نافذة الرؤية في ليالي الشتاء لمَّا تعصف الريح، وتُصبح مروحة في أمسيات الصيف حين يضنُّ النسيم نهائيًّا. هي دِكَّة محمولة للقعود فوقها وسط الأرض الرطبة، ومنضدة مثالية لفضِّ أعقاب السجائر التي جمعتها، ولفِّها مرَّة أخرى.

لقد استغرقت وقتًا لم يخلُ من المتاعب، والحال هكذا، كي أنتقي مثل هذه الضرورات الشخصيَّة. وقدْ مرَّ وقت، حين شرعت في العيش أول مرَّة داخل عُلبة، كنت عاجزًا فيه تمامًا عن اعتزال الفكرة الشائعة حول الرفاهية واكتناز أشياء لا رابط بينها لَمْ أكن أدري حتَّى كيف تُستعمل، ناهيك عن تلك الأشياء التي قد أحتاجها. كانت حقيبتي تنتفخ دائمًا بشتَّى الأغراض: عُلبة صفيح عليها منظر ملوَّن لثلاث نساء عاريات يحملن تفَّاحة ذهبيَّة (لا ريب ستفي بغاية ما) حجر ثمين (رُبَّما أداة عتيقة) طابة ماكينة شراء بالعملة (قَدْ تُفيد في تحريك الأغراض الثقيلة) قاموس ياباني إنجليزي مُختصر (لا غنى عنه أحيانًا، مَنْ يدري) كعب عالٍ مُذهب (كان شكله

مثيرًا للاهتمام ورُبَّما أمكن استخدامه كمطرقة) مقبس منزلي ستة أمبير بقدرة مائة وخمسة وعشرين واط (يتحوَّل غيابه إلى مشكلة إذا احتجته ولم أجده) مقبض باب نحاسي (مُعلَّقًا في سلسلة، قَدْ يغدو سلاحًا خطيرًا) لحام حديد (لا ريب مفيد لغاية ما) حلقة بها خمسة مفاتيح (من غير المستبعد أنْ أصادف في المستقبل قُفْلًا يفتحه أحد هذه المفاتيح) صَمُولة حديد قطرها بوصة واحدة وخمسة أثمان (مُعلَّقة في سلسلة، رُبَّما تصلح كجهاز لقياس شدة الزلازل كما أنَّها مفيدة أيضًا كثقل حين أجفف فيلمًا). صرت عاجزًا، في نهاية المطاف، عن الحركة بسبب الزحام وبسبب وطأة حمولتي، فاتضحت لي ضرورة أن ألقي بكل تلك الأشياء. لا يحتاج المعلَّب إلى طقم سكاكين لكُلٍّ منها غرض، بل أداة بنصلٍ واحد آمِن صالحة للأغراض كافة. والأداة التي لا تُستخدم ثلاث مرَّات يوميًّا على الأقل، يجب التخلُّص منها دون أدنى ندم.

لكنَّ ثَمَّة حدودًا لرمي الأشياء. وتخزينها يستلزم جهدًا كذلك، لكن يظل الجهد المطلوب لرميها هو الجهد الأكبر. رغم ذلك يصيبنا التوتُّر في حال لم نحتفظ بما يلزمنا بشكل مناسب؛ لكي لا تعصف به الرياح. إذْ هل نستطيع على سبيل المثال التخلُّص من مذياع صغير اعتدنا استخدامه – يلتقط موجة FM بنقاء صوت معقول – كأنَّه نُفاية لا لشيء إلا لتخفيف العبء؟ كنتُ أستطيع، على أي حال، أن أفعل ذلك.

في الواقع، سأصارحها دون شكٍّ بشأن المذياع. بل سأصارح المعلَّب المزيَّف هو الآخر إنْ اقتضت الضرورة. ذلك أنني أود أنْ يفهما بوضوح قبل بداية المفاوضات طبيعة الخَصْم الَّذي يتعاملان معه.

– تتساءلين عن سبب حضوري في وقت مبكِّر جِدًّا هذا الصباح (أخاطبها تحديدًا، أمَّا بالنسبة إلى الطبيب، فدعه يبقى على حاله في رُكن الغُرفة يلبس العُلبة الزَّائفة فوق رأسه). أقومُ بنزهة بسيطة. تمشية صباحيَّة. إنَّ تسلُّق الطَّريق الَّذي يصعد المنحدر مِنْ مصنع الصويا أمرٌ شاق، يُشتت الذِّهن، لكنه يروق لي. ما اسم تلك الشَّجرة العتيقة ذات الأوراق الصغيرة الغزيرة على جانب الطَّريق؟ لَقَدِ انتابني توتر عجيب حين دخل سقف المستشفى المُثلَّث هذا مجال الرؤية من وراء أوراق الشَّجرة. هذه أجواء تُحاك فيها الدسائس الشَّاذة، بالنظر إلى النوافذ العالية الصغيرة المطليَّة والحائط المدهون بالمِلاط المتصدِّع. ألا تصدِّقينني؟ اسمحي لي إذن أن أصيغ الأمر هكذا: ما من سبب بعينه؛ جئت لا تدفعني إلا الرغبة في المجيء. لا تزالين في شكّ؟ هل أبدو كمَنْ به لهفة؟ لقد وُلدت بهذا الوجه ولا حيلة لي في ذلك. إنَّ وجهًا بهاتين العينين المراوغتين هو عاهة حقيقية. لكن تعالي هُنا، تلك الخمسون ألف ينّ (ألقى المبلغ أثناء نطق هذه العبارة فوق طاولة الفحوصات... لا بقوَّة مبالغ فيها، لكن بقوَّة معقولة) لقد أخذتها منك بالوقت الرَّاهن دون أن أقرر إن كنت سأقبلها أم لا. وأنا الآن أفكِّر جادًّا في شأنها. لكن لا تقلقي، فقد تخلَّصت من العُلبة حسب طلبك. وهكذا صرنا متعادلين...لا، بل أنا من يدين بشيء ما. ماذا عن... كيف هي الحياة داخل عُلبة؟ (وفيما أنطق هذا، أحدِّق بغتة في نافذة المعلَّب المزيَّف قبل أن أتحوَّل على التوِّ صوب المرأة، دون أنْ أتيح له ما يكفي من الوقت كي يجيب). الآن أصل بيت القصيد: أودّ أنْ تصغي إلى حكاية عن مذياع حتَّى تعرفي من أنا. بلى، مذياع. واظبت في الواقع بصورة مُريعة على نشرات

الأخبار مُدَّة طويلة. هل تَعِين ما أرمي إليه. لا أُطيق ألا تتوالى التقارير الإخباريَّة الجديدة طوال الوقت. ذلك أنَّ المواقف في ساحة المعركة لا تكفُّ عن التغيُّر دقيقة تلو الأخرى. ولا يتوقَّف نجوم ونجمات السينما والغناء عن الزواج والطلاق. عن صواريخ تُطلق للمِرِّيخ؛ وقوارب صيد ترسل إشارات استغاثة وإشارات ضوئيَّة؛ واحتجاز حَاكِم مُغرم بالحرائق. عن أفعى سامة تفرُّ من شحْنة موز وانتحار موظف بوزارة التجارة الخارجيَّة وتعرُّض بنت ثلاث سنين للاغتصاب؛ عن مؤتمر دولي يُحقق إنجازًا ضخمًا وينتهي بالانهيار؛ وتشكيل رابطة لاحتضان فأر مُعَقَّم، واكتشاف طفل مدفون داخل إسمنت في موقع بناء سوبر ماركت. عن وصول عدد الجنود المارقين مِنَ أطراف العالم رقمًا قياسيًّا جديدًا. يغلي العالم كأنَّه برَّاد شاي، حيثُ في مستطاع الكون أن يُغيِّر شكله ما إن تغمضي عينيك ولو لثانية. أتابع سبع نشرات أخبار مُختلفة، وأضع في حجرتي جهازَيْ تلفاز وثلاثة مذياعات، وحين أخرج لا يُفارق يدي مذياع متنقِّل أبدًا، حتَّى حين أنام أترك سمَّاعات الأذن موصولة. أتلقَّى تقارير إخبارية مختلفة من محطَّات متباينة في الوقت ذاته، إذْ من المحتمل أن تبثَّ النشرات أنباء خاصة بأي لحظة. تحرص الحيوانات الجبانة على البقاء قريبة جِدًّا من حارسها، لكنَّ رقابها، مثل الزَّرافة، تتمطَّى بالتدريج. أو تغدو، مثل القرود، عاجزة عن النزول من فوق الأشجار. لا تسخري مِنِّي. فالأمر خطير بالنسبة إلى من أصابه هذا البلاء. إذْ يقضي جُلَّ يومه في القراءة والإنصات للأخبار بقلب موجوع، عاجزًا عن الانفصال عن المذياع أو التلفاز يتملَّكه الغيظ من وهن إرادته. كنت أعي بالطبع أنَّني، مهما تعقَّبت الأنباء، لَنْ أصل إلى الحقيقة.

أدركت ذلك، لكن لم أستطع التوقُّف. رُبَّما كنت أحتاج إلى شكل الأنباء التي يُمكن إيجازها في كليشيهات، لا هي حقيقة ولا هي تجربة. باختصار، كنتُ مدمنًا الأنباء حتَّى النُّخاع.

رغم ذلك تعافيت فجأة ذات يوم. كان حادثًا تافهًا لكنه كان كالترياق بالنسبة إليَّ، بل لقد بلغت شِدَّة تفاهته حدًّا جعلني أطأطئ رأسي غير مُصدِّق. جرى – تُرى أين جرى تحديدًا؟ – آه، بلى، بإحدى زوايا الرَّصيف الواسع بين محطَّة المِترو والبَنْك. لا يمرُّ سوى عدد قليل مِنَ المارَّة بهذا الطريق أثناء النَّهار. كان يتَمَشَّى أمامي بطريقة عادية للغاية كهل بدا لأول وهلة عاملًا مِنْ ذوي الياقات البيضاء. خارت قدماه فجأة وتباطأت حركته كأنَّه يريد أن يجلس، على أنَّه سقط على جانبه وتمدد جسدًا هامدًا. كنت أحسبه يلعب دور ذئب شرير ضخم مع طفلة وقَدْ تعرَّض لإطلاق نار. آنئذٍ نظر إلى الكهل طريح الأرض طالب شاب، وكان يمرُّ بالصدفة، وقال مصدومًا: «ربَّاه، لقد مات!». أذكر أنَّه رفع عينيه ناحيتي مصعوقًا تعلو شفتيه ابتسامةٌ واهية. لم أكترث، لكنه ذهب على مضض ليتصل هاتفيًّا من محل سجائر بعد متجرين أو ثلاثة. ولأنَّني مصوِّر فوتوغرافيا مُحترف – لا بأس؛ إذْ أحصل بشقِّ الأنفس على عمل مرَّة أو مرَّتين كل شهر، أقوم فيه بتحضير نماذج إعلانات تجارية مُرفقة – فقد وضَّبت الكاميرا على الفور وحاولت التقاط الصور مِنْ الزوايا كافة. في النهاية بدَّلت رأيي ولم ألتقط صورة واحدة، لا بسبب حزني المتزايد تجاه الجُثَّة، لكن لأنَّني سرعان ما أدركت أنَّ الحادث لَنْ يُصبح خبرًا مهمًّا بأي حال.

الموت انمساخٌ على نحوٍ ما. أولًا يشحب الجلد فجأة، ثُمَّ ينحف الأنف ويذوي الفكُّ ويتضاءل. يغدو الفمُّ نصف المفتوح كطرف قشرة يوسفي مقطوعة بسكين، وتبدأ الأسنان الاصْطِنَاعيَّة الحمراء بالفكِّ السُّفلي في البروز من فتحة الفمّ. إلى ذلك، حتَّى الثياب التي تبلى تتبدّل. وما كان يبدو له ذا جودة رفيعة ينقلب أمام عينيه محض بضاعة رخيصة، مُزَوَّقة ووضيعة في آنٍ. بالطبع، مثل هذه الأشياء ليست أنباءً. على أنَّ مسألة كونها أنباء أم لا قد لا تعني المُتوفَّى هنا في شيء. هل ستختلق الضَّحية العاشرة لقاتل متوحِّش دوَّخ الشُّرطة طريقة أخرى تموت بها؟ لا أتصوَّر ذلك. لقد مسخ المتوفَّى نفسه، لكن العالم الخارجي انمسخ هو الآخر، وليس في حيلة الأشياء أنْ تتغيَّر زيادة عمَّا هي عليه. إنَّه التغيير الأكبر الَّذي لا يسَعُ أي نبأ، مهما كان حجمه، أن يباريه.

لقد تغَيَّر تفكيري بالأساس بغتة بشأن الأخبار بمجرَّد أن أدركت هذا. كيف أُعبِّر عن...؟ لَنْ تفي الشِّعارات بالمطلوب: «أنت الآخر يمكنك أن تتوقَّف عن مشاهدة نشرات الأخبار» بَيدَ أنَّي أعتقد أنَّك تعي... بطريقةٍ ما...سبب اشتهاء الجميع هكذا للأنباء. أتساءل إن كانوا يستعدون لأوقات الطوارئ عبر المعرفة المسبقة بالتغيرات التي تطرأ على العالم. اعتدت طريقة التفكير هذه، لكنها ليست إلا كذبة كبيرة؛ إذْ ينصت النَّاس إلى نشرات الأخبار لا لشيءٍ إلا للإحساس بالطمأنينة. لأنَّه مهما كانت فداحة أنباء الكوارث التي ينصتون إليها، فإنَّ هؤلاء المنصتين لا يزالون ينعمون بحياة مثالية. والأنباء المهمَّة فعلًا حسب ظنِّي هي الأنباء الختامية التي تُعلن نهاية العالم. هي الأنباء التي يرغب الجميع حتمًا في سماعها، حينئذٍ لا نُضطر إلى

اعتزال العالم بمفردنا. أحسُّ، حين أُمعن التفكير، أنَّ السبب وراء هذا الإدمان على سماع الأنباء هو الحرص على عدم تفويت هذا البثِّ الختامي. لكن طالما تتدفَّق الأنباء فلنْ نصل إلى نهاية. هكذا تؤلِّف نشرات الأنباء الإعلان عن أنَّ العالم لم تقُم قيامته بعد. الكليشيهات البسيطة التالية محض موجزات. الليلةَ الفائتةَ نفَّذت قاذفاتُ القنابل B52s أضخم قصف بجنوب ڤيتنام هذا العام، لكنك لا تني بطريقة ما في قيد الحياة. اضطرمت النيران بخطوط غاز تحت الإنشاء وأُصيب ثمانية أشخاص بجروح بين خفيفة وخطيرة، لكنَّك حيٌّ وآمن. مُعدَّل قياسي بارتفاع الأسعار، وأنت تواصل الحياة. انقراض الحياة البحريَّة في الخلجان بسبب المُخلفات الصناعيَّة، لكنَّك بطريقةٍ ما تنجو من كل شيء.

- الآن عَمَّ كُنَّا نتكلَّم؟

قالت وهي تُعيد ترتيب ساقيها:

- أعتقد أنَّك كنت تقول إنَّ الإنصات لنشرات الأخبار أصابك بالسأم. (كانت تدرك تمامًا مصبَّ اهتمامي)، ثُمَّ أشعلت سيجارة أخرى دسَّتها بين شفتيها.

وأردف المعلَّب المزيَّف إلى جانبها بصوتٍ مكتوم:

- لا أفهم شيئًا البتَّة. ما الفائدة التي ترجوها من تقديم نفسك بهذه الطَّريقة؟

- ما أقوله أنَّه ليس ثَمَّة أشرار بين هؤلاء الَّذين لا ينصتون لنشرات الأنباء (تجاهلت كلمات الطبيب بشكلٍ طاغٍ دون أن أتخلَّى عن ابتسامتي المصوَّبة نحو المرأة) وأنَّه لا نيَّة عندي لتغيير الأمور هُنا بشكل عشوائي؛ إذْ الكُفر بنشرات الأنباء، بحسب رأيي، ليس كُفرًا بالتغيير.

قاطعني المعلب المستعار بنبرةٍ فظَّة مفاجئة:

- برغم هذا، ألا يُعدُّ ذلك منافيًا للمنطق؟

قُلت:

- ما هو المُنافِي للمنطقي؟

- أقصد الخمسين ألف ينّ. لقد أخذت النقود بشكل مؤقَّت كي تشتري صندوقًا، لأنَّني كنت أظنُّ أنَّك على علاقة وثيقة بالمعلَّب. ومسألة اعتقادك أنَّك تستطيع الاحتفاظ بالمبلغ أو لا، هي مسألة غير منطقية في الحقيقة.

قلت مُجفلًا أمام الهجمة المرتدة غير المتوقَّعة:

- كفاكَ تحريفًا. فأنت تعلم أنَّني صورة مُطابقة تمامًا من أي مُعلَّب.

- كلَّا، لا..

- لا فائدة مِنَ الكذب. لديَّ بُرْهان.

وشهقتُ ببطء كي أهدأ، بعدها أطلقت زفيرًا:

- حين جئت لعلاج جُرحي ذلك الصَّباح منذُ أسبوع مضى، كنت

ترى بوضوح بالغ أنَّني مُعلَّب غير زائف. شعري الأشعث... وجهي المُحبَّب المُغطَّى بندوب الموسى... ورغم فوحان رائحة الصابون القويَّة مِنِّي، فإنَّ نُتفًا من الجلد تشبهُ قشرة الشَّعر كانت لا تكفُّ عن النزول من عنقي ومن كتفيَّ.

قالت المرأة بخفّة كأنَّها تلفت الانتباه إلى خطأ فادح داخل لُعبة:

- لكن يُقال أنَّ بين مُصوِّري الفوتوغرافيا عدد كبير من غريبي الأطوار، أليس كذلك؟ تُرى هل يُمكن بالتحليل الأخير أنْ تكون متواطئة مع الطبيب وأنَّهما يستغلانني ببساطة؟

- لكن في الوقت نفسه - وقد اعترفتِ أنت بذلك - كان ثَمَّة رصاصة من بندقيَّة رشّ انغرست بالجُرح الموجود في كتفي.

- كثيرون حولنا لديهم بنادق رشّ. إنَّهم كأبناء عُرس يلتقطون ضحاياهم بيسر شديد من داخل عشش الفراخ.

قلتُ وأنا أحدِّق مليًّا في عينيها:

- لَمَّا أُصبت، حكت لي شاهدة دَمِثة تصادَف حضورها عن هذا المكان. بل لقد أعطتني ثمن العلاج. ثلاثة آلاف ينّ؛ عملات ورقيَّة كانت تفوح منها رائحة مُطهِّر ما.

لا يُمكن أنْ أصدِّق أنَّها ستخونني بهذه السهولة. ألم تعدني صَرَاحة أنْ تُصبح الموديل الخاص بي؟ كانت تقول إنَّها أثناء عملها كموديل كانت تشعر بعينَيْ فنَّان تلتصقان بجسدها حدًّا كان يغذيها بشحنة زائدة. كانت مُستفزّة

في الحقيقة آنذاك، لكنها تماطل الآن أمام الطبيب. إذْ ليس من المستحب على الإطلاق تحريض الطبيب على تبنِّي موقفٍ فيه استعلاء. ومن الجائز أن أجعل موقفها أكثر تعقيدًا في حال واصلت الضغط عليها.

– امرأة ما، تلبس تنُّورة قصيرة وتمتطي درَّاجة جديدة أنيقة... رُبَّما كانت بنتًا. لم أَرَ للأسف سوى جسدها المُبتعد، على أنَّ ساقيها كانتا شديدتَي الحُسن. ساقان لا تُنسيان. تغدو عينا مَن يعيش داخل عُلبة مُدَّة طويلة مُدرَّبتين على رؤية السيقان. السيقان فقط؛ ذلك أنَّ عينيه لا تقعان بالطبع إلا على النِّصف السُّفلي من المارِّين إلى جواره.

خامرني شعور أنَّ خدَّيها غمرتهما ابتسامةٌ ما بعض الشيء. على أنَّ المعلَّب المزيَّف هو مَن ضحك.

– لا ريب أنَّه ثَمَّة بَوْنًا شاسعًا بين لبس عُلبة والنَّظر إليها.

– اسمح لي أن أذكِّرك أنَّني لَمْ أتنازل بعد عن حقوق ملكيَّتي.

فكرر المعلَّب المزيَّف عبارته بصوت هادئ مُتدبِّر:

– نعم. ثَمَّة فارق شاسع. لقد أمضيت الليلة الفائتة بأكملها داخل عُلبة للمرَّة الأولى. وقَدْ وعيت الفارق جيدًا. لا غرو أنَّني صرت مستعدًّا كي أغدو مُعلَّبًا.

– لا نيَّة عندي للحُؤُول بينك وبين ذلك بالقوَّة.

– طبيعي جِدًّا ألَّا تفعل.

ألقت ابتسامة خافتة بظلالها على صوت المعلَّب المزيَّف مرتاح البال. كان صوتًا عذبًا ولاذعًا في آنٍ فلَمْ يرُقْ لي. كان بلا نبرة تميِّزه عن غيره؛ فاعتقدت أنَّه كان من الواجب عليَّ أن أعامله كمُعلَّب زميل منذ البداية. لم يكن ثَمَّة ما يدعو للانفعال على الإطلاق. لَو قُدِّر لي أن أُسدِي النصح لمُعلَّب خرج إلى المدينة، كأساليب الحصول على المواد الغذائيَّة؛ أو الأماكن المغمورة الصالحة للبحث عن عُدد مُستعملة استعمالًا خفيفًا وبهيئة لائقة نسبيًّا؛ أو طُرق السفر مسافات طويلة بالمجَّان؛ أو أماكن تواجد سبعة كلاب متوحِّشة على الأقل ينبغي تحاشيها داخل المدينة، آنئذٍ علينا النقاش بهذه المسائل بهدوءٍ أكبر. لكن التَّواجد في حضرته لم يكن مُريحًا، رغم أنَّي كنت أعرف أنَّه نُسخة مِنِّي. ارتبكت وعزفت عن عمل ذلك. رُبَّما كان عليَّ أنْ أتصدَّى له في موقف كهذا مرتديًا عُلبتي. لذلك جعلتها هدفًا لهجومي بدلًا منه.

– لو كان الأمر يعود إليكِ، تُرى ماذا كنتِ تفعلين؟ هل كنت تتركينه داخل حدود معقولة أم تسمحين له بعمل ما شاء؟

تطلَّعت نحوي، وهي تتكئ خفيفًا مكانها قُبالة ركن طاولة الفحوصات. كانت زاويتا فمها ممطوطتين؛ فبدت كأنَّها تبتسم. لكن عينيها لم تكونا تبتسمان على الإطلاق.

– أُفكِّر بصراحة في الضيق الذي سيعتري المرضى إذا علَّقنا بطاقة تُشير إلى عدم وجود فحوصات فجأة.

هذا حقيقي تمامًا. ردٌّ خبيثٌ يقبل التأويل بطرق عديدة، لكن بالنسبة

إلى الوقت الحالي كان عليَّ أن أرضى بهذا القدر. الآن كل ما كان عليَّ هو أن أتريَّث حتَّى يُصدر المعلَّب المزيَّف بيانًا.

أصدرت العُلبة صوتًا فشدَّت انتباهي ومالت كأنَّها تتباهى. تباعد البلاستيك فوق النَّافذة وأطلَّت عين. عينٌ تنظر فقط، بلا تعبير. عين متعجرفة فرضت عليَّ دور المُرَاقَب لا المُراقِب. تُرى متى تعلَّم مثل هذا الفنّ. الموديل كان أنا. فاعتراني الضيق. كُنتُ المُراقَب والمُراقِب أيضًا.

قال المعلَّب المزيَّف بصوتٍ واهنٍ لا يتناسب مع مظهره:

- لا طائل من الكلام مهما طال.

وأردف:

- على أي حال ما كنت لتصدِّق كلمة منه.

- ماذا؟

- لَنْ تُصدِّق أنَّني سأغادر المكان هُنا بدلًا منك. تريد أن يحدث هذا في قرارة نفسك، لكنَّك لن تصدِّق أنَّني سأرحل.

- لكنك في الواقع لا تنوي الرحيل.

- لقد أعددت خُطَّة متواضعة للتسوية.

وتجشَّأ. ثُمَّ واصل بنبرةٍ أكثر انخفاضًا وتذلُّلًا:

- تُرى كيف يكون الحال لو جرَّبنا على هذا النحو على سبيل المثال؟ ماذا لَوْ أخذت راحتك في هذا البيت؟ لَنْ أتدخَّل بينكما نهائيًّا بغضِّ النَّظر عن

نمط العلاقة التي ستقيمانها معًا. لَنْ أتدخَّل ولن أتطفَّل عليكما أو أسبب لكما أي متاعب، بَيد أنَّي أرغب أن تقبلا شرطًا واحدًا فقط. أريد أنْ تمنحاني الحقَّ في أن أراقبكما. أراقبكما فقط. وأنا ألبس العُلبة هكذا بالطبع. كما هي العلاقة بيننا بالضبط نحنُ الثلاثة الآن. لا أطلب منكما سوى أن تسمحا لي أن أراقبكما عبر زاوية كهذه. هكذا أغدو حين تعتادان وجودي مجرَّد سلَّة نُفايات.

في الرؤية المحبَّة، وفي أن تُرى العداوة. نتجهَّم صابرين على بلاء أن نكون مُراقَبين، لكنَّنا لا نستطيع أن نرى ولا نُرى. فلو أبصر المرئيُّ الرَّائي، لصار المرئيُّ رائيًا ولغدا الرائي مرئيًّا.

ساورني إحساسٌ أنّني أتحتُ للمُعلّب المزيّف أن يتصرّف نيابة عنّي على نحوٍ ما، وأن يطرح فرضيّة قمت أنا بصياغتها. وكانت المرأة، حين استرقت النّظر إليها، قد بدأت تصبُّ تركيزها على أرجوحة هِرَّة مفكوكة، مُحرِّكة أصابع كفّيها بسرعة. بدّلت ساقيها بأناةٍ فتباعدت حافة ثوبها الأبيض المَحْصُور وانكشفت ركبتاها. ساورتني رغبة قويّة في لمسهما بإصبعٍ غطّاها اللعاب. رُبّما كانت عارية تحت الثوب الأبيض. فجأةً، انتفخ بالون مطّاطي ابتلعته دون أن أدري عنه شيئًا، وأحسست ببطني تتمدد. رغم ذلك، تساءلت إن كان عليّ أن أتجرأ أمام المعلّب المزيّف وأن أطلب منها أن تتجرّد من ثيابها.

استطرد المعلّب المزيّف بلهجةٍ مشجّعة:

– لا داعي للتردد؛ ذلك أنّ المعلّب كالريح أو الغبار ما لم تنتبه إليه. كانت لي أنا نفسي تجربة شائقة في هذا الصدد. إذْ كنت أُحمِّض صورة فوتوغرافيّة التقطتُها كيفما اتفق، حين صادفت لقطة مُقرّبة لشيء لم أكن أتوقّعه على الإطلاق. كانت لرجل يلبس عُلبة كرتون فوق رأسه ويمشي بالحي غير عابئ. لم تكن كاميرا متطوِّرة إذْ لستُ مختصًّا بالتصوير مثلك. أتساءل فحسب عن ماهية ما كنت سألتقط له الصورة. لقد جرى ذلك منذُ زمن، بَيْد أنّي أظنُّ أنّ المشهد كان جنازةً ما. كنت قد قررت أن ألتقط صورًا لجنازة مريض عالجته بنفسي، تخليدًا لذكراه. لكن حتّى مع ذلك أصابتني الدّهشة؛ فما دام الرَّجُل كان قريبًا مِنّي لتلك الدّرجة فلا بد أن أكون قد رأيته بأمِّ عيني، ومع ذلك لا أذكره بالمرّة. المعلّب نقيض الشّبح، هذا إذا افترضنا

أنَّ الأخير هو ما لا يُرى، ورغم ذلك يؤمن بقدرته على الرؤية. بدأت الاهتمام بالمعلَّبين منذُ ذلك الحين. أفتح عينيَّ لأرى إن كنت أستطيع أن ستكشف أيًّا منهم، واثقًا من مسألة أنَّني أراهم يطوفون بالشوارع يحدِّقون بنفس الطريقة التي كان يُحدِّق بها المعلَّب في الصورة الفوتوغرافيَّة. لكنَّني لاحظت خلال المرَّات العديدة التي كنت أراقبهم فيها، أنَّ لا أحد كان يكترث قطّ. ليس لغفلتي دَخْل في هذا. فعلى سبيل المثال، هَبْ أنَّ مُعلَّبًا يقصد دكَّانًا للبقالة ويمطّ ذراعه عبر ثقب كهذا ويبدأ في نشل البضاعة من هنا وهناك. لا ريب أنَّه يسرق أرخص البضائع والتي لا تحمل سعرًا مثل الطماطم واللبن وحبوب الصويا المُختمرة. آنئذٍ يتظاهر الموظف المنهمك مع زبون يقف إلى جوار المعلَّب بالضبط، ودون حتَّى أن يفكِّر بزجره، أنَّه لم ينتبه إليه بالأساس - رائع، أليس كذلك؟ تعلم المَثَل الَّذي يقول: «اكنس الغبار أسفل السجَّادة». في حشو أنفسنا داخل علبة كأنَّنا حقيبة سفر ثُمَّ المشي في الأرجاء إهانة للعالم تتعدَّى السلوك المستهجن. أم عساه في وجود كيان ما نستطيع أن نغمض أعيننا عنه إن شئنا فحسب، ما لا يؤذي؟ لا بد أن تكون قادرًا على تجاهلي أنا الآخر إن شئت.

هدأت كلمات المعلَّب المزيَّف، وتوقَّف عن الكلام، فتنفست الصُّعدَاء. قد لا يكون الظرف الإنساني الَّذي تكلَّم عنه المعلَّب المزيَّف بهذا السوء؛ إذْ أدرك جيدًا أكثر من الآخرين أنَّ المعلَّب ينعم بوجود غير مؤذٍ. لم يكن موقع المستشفى ملائمًا، لكن ما من شكٍّ أنَّ الطبيب قد ادَّخر مبلغًا ما منذ عزز مكانه فيها، وبالتالي سيستفيد من موقع المستشفى غير الملائم بالمرَّة في وضع مسافة بيننا وبين العالم. هكذا كانت المسألة برُمَّتها في التحليل الأخير

تتوقّف على موقف المرأة وحدها. فلو وافقت، نتمكّن حينئذٍ نحن الثلاثة من تحقيق فائدة حقيقية. كلّا، لا نحن الثلاثة، بل اثنان وأكثر قليلًا. ذلك أن الموقف سيتفاقم إن نحن عاملناه كسلّة نُفايات، لكن لو اعتبرته قردًا مثلًا، آنئذٍ أستطيع أن أحتفظ به داخل قفص في حجرة نومي.

- إذن فلا مانع لديك؟

- لديّ؟

واخترقتني بنظرة سريعة ثُمَّ حوَّلت نظراتها نحو المعلّب المزيَّف. غمرتني أثناء ذلك غيرة قاتلة بسبب الابتسامة التي كست ملامحها.

- الأمر يتعدّاني. لا أستطيع الردَّ حين أكون على وشك تحمُّل المسئوليَّة. بل إنَّني دائمًا ما أقترف، حين أفكِّر في ردٍّ ما، أفعالًا شاذة كأنْ أُسقط مقصًّا فوق قدميَّ أو أقعد فوق زجاج. أتساءل كم الساعة الآن.

أجاب المعلّب المزيَّف بكلمات سريعة:

- العاشرة إلا أربعًا وعشرين ودقيقة..

كاد الذنب يغمرني كمَن تلقَّى لومًا لأنَّه تردد. تابعت وقد بدا أنَّها تنوي أن تضغط أكثر عليّ:

- كم هو عمرك... حقًّا؟

- تِسعة وعشرون عامًا حسب السِّجل الرَّسمي، لكنها في الحقيقة اثنتان أو ثلاثة وثلاثون، كما أظنّ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

كنتُ أجيب رغمًا عنّي، بلا إرادة. لكن بدا أنَّ سؤالها السَّابق ليس هو السؤال الذي كانت تودُّ طرحه. وقبل أنْ أُنهي كلامي، كانت قد أولتني ظهرها وبدأت بترتيب طاولة المُعدَّات. تُرى هل كانت تُعرب دون كلمات عن أنَّها لم يحزما أمرهما بعد بشأن إلغاء الفحوصات؟ لا شكَّ أنَّ ترتيب طاولة المُعدَّات شيء عادي جِدًّا، سوى أنَّها لم يسبق قط أن كانت بكل تلك الجديَّة بشأن أمر ما قامت به. كانت تتظاهر أنَّها تدفع المُعدَّات والآنية الزجاجيَّة هُنا وهناك بأطراف أصابعها كأنها نماذج سيارات. فرُحت أتساءل: هل أعتبر هذا رفضًا؟ لكن لو كانت ترفض، كانت ستعبِّر عن هذا الرفض بوابلٍ من الكلمات. رُبَّما يكون في كشفها عن أنَّها مهتمَّة بمسألة الوقت محاولة لدفعي نحو اتخاذ قرار. أحسست أنَّني إنْ توصَّلت إلى قرار حاسم ستستقيم كل الأمور. سيتبدَّل المشهد في الحال إن نطقت وطلبت منها أن تتعرَّى: ثانيتان أو ثلاثة من الفكِّ المحموم للأزرار الصَّدفيَّة المرصوصة فوق سُترتها البيضاء، ثُمَّ ها هي، عارية أمامي. شممتُ رائحة جسدها القويَّة من حيثُ أقف لا تفصلني عنها سوى ثلاث ياردات، معوِّلًا على تيار الهواء داخل الغرفة. لكن بالوقت ذاته هل سأقدر على لعب الدَّور المهم الَّذي كلفاني به كما توقَّعا؟

(وخطرت لي ذكرى بغيضة تتعلَّق ببرنامج الترفيه عن الطُّلاب أثناء المرحلة الابتدائيَّة. لم أكن محبوبًا بشكل عام فكلَّفوني بدور ثانوي لم يقبل به أحد سواي. دور حصان اسمه دونسْ. لكن رغم ذلك، أتذكَّر أنَّي كنتُ أُعربد بروح معنويَّة عالية. على أي حال، حين آن أوان صعودي إلى خشبة المسرح، استعصت على ذاكرتي السطور القصيرة التي كان من

المفترض أن أقولها مرَّة واحدة فقط خلال المسرحيَّة، رغم اجتهادي كي أتذكَّرها. حينئذٍ استسلمت وأوشكت على النزول من فوق الخشبة، فما كان من زميلي الَّذي كان يلعب دور صاحب الحصان، وفي ذروة غضبه، إلا أنْ ركل مؤخَّرتي. أصابني الغضب وركلته بدوري فسقط، واصطكَّ رأسه بالأرض فاقدًا الوعي. لا أذكر مطلقًا كيف توقَّفت المسرحيَّة بعد ذلك. لكن بعد هذا الحادث مباشرة أصابني قِصر نظر مُريع وحصلت على نظَّارة من أبويَّ المقترين. لَقَدِ ازداد قِصر النَّظر بسبب تعمُّدي قراءة الكُتب والمجلات ذات الطباعة الفاخرة داخل الأماكن المظلمة. كنت أريد فقط أن أهرب من أنْ أرى أو أُرى).

أدرك تمامًا أنَّني قبيح. ولست قليل الحياء فأتعرَّى أمام الآخرين غير مُكترث. بالطبع لست القبيح الوحيد: تسعةٌ وتسعون بالمائة من البشر مشوهون. وأزعم أنَّنا لم نخترع الثياب بعد أنْ تساقط شعرنا، بل ضمر الأخير بعد أن حاولنا أن نغطِّي أجسادنا العارية القبيحة بالثياب (أدرك جيدًا أنَّ تفسيرًا كهذا ضد الحقيقة، مع ذلك أؤمن به). رغم ذلك نواصل العيش، ونتحمَّل كارهين نظرات المُحيطين، مُراهنين على هلاوس وعدم دقَّة العين البشريَّة. ولأجل ذلك نلبس ثيابًا متطابقة كلما أمكن ونمشِّط شعرنا بطريقة متشابهة؛ لنجعل التمييز بين شخصٍ وآخر شيئًا صعبًا. لن يُبادلني الآخر النظر ما لم أنظر إليه أنا في الأساس وبالتالي تقلُّ النظرات المتبادلة. لهذا شاع استخدام العقوبة المعروفة بالتشهير، رغم أنَّها كانت

توصف بالقسوة الشديدة وتوقُّف المجتمعات المُثقَّفة عن استعمالها. إذْ تُعدُّ عادة التلصُّص على الآخرين شيئًا حقيرًا لأنَّنا، حسب ظنِّي، نأبى أن نكون مُراقَبين. لذلك مِنَ الشَّائع أن نُطالب بالتعويض حين لا نستطيع تجنُّب المراقبة. تمامًا كما في المسرح أو قاعة السينما، يدفع المُشاهِدون للمُشاهَدين، فجميعنا يتمنَّى لو كان في مقاعد المتفرِّجين. وهل هناك دليل على أنَّ تسعة وتسعين بالمائة مِنَّا نحن البشر يُدركون مدى قبحهم، أكثر من استمرارنا في بيع ما لا يُحصى من أجهزة «الفُرْجَة»، كأجهزة الراديو والتلفزيون. لقد أُصبت بقصر النظر بملء إرادتي؛ وترددت على بيوت التعرِّي؛ وأصبحت مصورًا هاويًا... وليست هذه إلا خطوة، الخطوة الأكثر عاديَّة، في سيرورة التحوُّل إلى مُعلَّب.

(مرَّةً أخرى بعض الهوامش بالحبر الأحمر. بالنسبة إلى مسألة التعرِّي العلني، فلن أتردد بالتأكيد في مناقشة دعوى الكاتب الَّذي يعتبر أنَّ الثياب المكشوفة تشكِّل ميلًا عامًّا عند البشر. نميل مرَّة تلو الأخرى للخلط بين التعرِّي العلني والرَّغبة الجنسيَّة الجامحة التي لا يُشبعها الفعل الجنسي العادي، لكن هناك حالات كثيرة في الحقيقة يكون فيها التعرِّي العلني تعبيرًا عن رغبة جنسيَّة مقموعة. كان أحد المرضى، على سبيل المثال، قد أدلى بالاعتراف التَّالي: أول الشروط التي تجعل التلصُّص أشدَّ فعاليةً هو أنْ يكون المتعرِّي مجهولًا ومِنَ الجنس الآخر. الشرط الثاني، الحفاظ على مسافة ثابتة بينه وبين الآخر، وألَّا نهتك العلاقة بين الرائي والمرئي بالاقتراب أكثر من

اللازم. الثالث، ضرورة ألَّا يتمكَّن أي من الطَّرفين من تمييز وجه الآخر. وقد اقترح المريض، باعتباره حالة ملموسة تحققت فيها الشروط الثلاثة سالفة الذِّكر، الحوشَ الدَّاخلي بسكن النساء حيث يوجد عدد وافر من الأشجار. يشير الميل إلى التعرِّي العلني إلى أنَّه في حين يكون المريض مهتمًّا بشدَّة بالجنس الآخر بوجه عام، إلا أنَّ خجلًا مَرَضيًّا يعرقل علاقاته بِهِنَّ فُرادَى كما هُنَّ في الواقع. وبحسب الكاتب، فإن هذا هو إدراك المريض بقبحه. إلى ذلك قال المريض ما يلي: إنَّه سيتخيَّل شريكه الآخر يثيره جنسيًّا من خلال النظر إلى أعضائه الحميمة كي يصل إلى أورجازم التعرِّي العلني. لكن إعلان الشريك عن نفوره يُفسد المتعة والنظر بفضول مُزعج هو الآخر. يظلُّ تظاهر الشريكة الأخرى أنَّها لم تكن تراه هو الأشد تحريضًا لحدِّ الآن. كان من الواضح أنَّها رغبة محمومة لتوريط شريكته الأخرى في تعرِّيه العلني باعتباره يغتصبها في العراء. هكذا يغدو التعرِّي العلني هو اغتصابًا مُعلنًا مُنعكسًا في مرآة).

قال المعلَّب المزيَّف:

- أنت مُذبذب.

كان يتكلَّم بسرعة بصوتٍ قاسٍ مشدود.

- سأنتهز الفرصة... هُناك خَطْبٌ ما بك... لَكَمْ هي شروط رائعة...

- ترددت لأنَّك اقتحمت سبيلي.

– آه... فهمت.

– اعتقد أنَّني أكثر دراية بالمعلَّبين منك؛ إذْ كنت أنا نفسي مُعلَّبًا. إنَّ السبب الَّذي يجعل العالم يتجاهل المعلَّبين هو أنَّ لا أحد يفهم مَنْ بداخل الصُّندوق. لكن نيَّاتك الحقيقية واضحة تمامًا، حتَّى إنَّني أعرف طريقتك في النَّظر إليَّ. لا أحب أنَّ أكون مُراقبًا. لا أحبُّ ذلك على الإطلاق.

– لكنني لأجل هذا دفعت خمسين ألف ينّ، أليس كذلك؟

– اعتدتُ أن أرى، لا أن أُرى.

تمايل المعلَّب المزيَّف. ثُمَّ انْتَصَب برشاقة مُذهلة بعد أنْ مال إلى الأمام. فاحْتَكَّ ظهر الصندوق بالحائط مُصدرًا صوتًا تافهًا خاصة بالنسبة إلى كرتون جاف. على العموم، يظلَّ الزّائف زائفًا ولا يُمكن مُقارنته بِعُلبة حقيقيَّة وإن طال استخدامها.

هتف المعلَّب المزيَّف بمرح غير مُناسب، مُمددًا ساقيه:

– كفانا الآن كلامًا عقيمًا..

كانت أطرافه العارية بيضاء معروقة غطَّاها الشعر بشكلٍ واضح، فقلت في نفسي لعلَّه لا يلبس بنطالًا.

– لستُ جائعًا بالمعنى الحرفي، لكن الشَّهية تأتي مع الأكل(*) كما تعلم.

(*) بالإيطالية في الأصل. [المترجم].

وبعدما هتف باسم المرأة، قال آمرًا:

- تعالَيْ. أَرِيه جسدك العاري.

اعتراني ارتباك. فإلى جانب حقيقة أنَّها تلقَّت أمرًا مفاجئًا بالتَّعرِّي، أربكني اضطراره إلى النداء عليها باسمها. أتردد حتَّى في كتابة اسمها هُنا والآن. صِرتُ أدرك مرَّةً أخرى ألَّا بديل عنها بالنسبة إليَّ. كانت الشَّخص الوحيد من الجنس الآخر الَّذي صادف أنْ قابلته، رغم أنَّ اللقاء كان بالصدفة البحتة. وكان استخدام الضمير للتمييز بينهما كافيًا جِدًّا بالنسبة إليَّ؛ إذْ ما من امرأة سواها.

- الآن... وفي الحال؟

ما من أثرٍ ولو ضئيلٍ لأي رفض في صوتها وهي تسأله بدورها. بل لم تَبدُ عليها الحيرة حتَّى. كانت إجابتها تُشبه مداعبة بيضة بكفٍّ مدهونة بكريم للوجه. كانت الطريقة التي تجري بها الأمور الآن تعني أنَّها ستتعرى لا محالة. ذهلت، لكن أطبقت فمي. وسرَى خدرٌ بشفتيَّ فأخفقت في نطق حرف.

- لا فرق بالنسبة إليك، أليس كذلك؟

- كلَّا، لكن..

كان حديثًا عمليًّا قصيرًا.

- يبدو لي أنَّ ثمة بعض أعواد الثِّقَاب هُناك، صحيح؟

انزلقت مائلةً أمامي وعبرت الحجرة بسبب إلحاح المعلّب المزيَّف. كانت مشيتها تُشبه آلة دقيقة صغيرة فلم أشعر بأي هدر في الطَّاقة. التقطت عُلبة ثقاب من جيب سترتها البيضاء ودسَّتها بأطراف أصابعها داخل نافذة ملاحظة المعلّب المزيَّف. استنشقتُ رائحتها بغتة. كانت تشبه نسائم تتدفق مِنْ حقول فول سوداني كالتي أشمُّها عند شاطئ البّحر. وتغضَّن الجِلْد حول قلبي. هل كانت غيرة مِنَ المعلّب المزيَّف؟ حين مالت جانبًا برشاقة وعادت إلى وضعها الأصلي، بدأت فجأةً بفكِّ أزرار ثوبها الرَّسمي الأبيض. عند الزِّرِّ الثاني رمقتني عرَضًا. ولأنَّ النَّظرة كانت خفيفة لأبعد حدّ - كأنَّها تستطيع أن تطفو هكذا في الأثير نصف يوم - فقد بادلتُها نظرة بنظرة دون أن يطرف لي جفن (كان هذا أمرًا مهمًّا: ذلك أنَّني لم أكن أشعر تقريبًا بأنني مرئي مهما طال تحديقها بي). وأطلَّ نور من وجهها. لان حاجباها قليلًا، وبانت أسنانها بين شفتيها الرطبتين. كان تعبيرًا سافرًا. هل انفتحت الأبواب أمامي؟ وتابعت... الزرّ الثالث. ثُمَّ الرَّابع. لو أنَّها تحاول فهمي بحقّ؛ لو أنَّها ترمي إلى إغوائي بذات الوضعيَّة التي برزت بها للمعلّب المزيَّف الليلة الفائتة؛ آنئذٍ لن ينقصَني إلا عُلبة. على القبيحين الاختفاء عن أعين من لا قُبح لديهم كي يخفوه. هذه المرأة وُلدت ضحيَّة لأي مُعلّب بارع في التلصُّص (مصدر القلق الوحيد هو السبب الذي جعل الطبيب أمام هذا الجانب من شخصيتها مضطرًّا للحياة داخل صندوق). ثُمَّ الزرّ الأخير...

كانت تلبس لحسن الحظِّ شيئًا ما تحت ثوبها الأبيض؛ فاستعدتُ اتِّزاني أخيرًا. كانت بلوزة مِنَ الحرير البرتقالي تنسجم مع بشرتها، اصطفَّ بها

سطر من الأزرار البرتقاليَّة الصغيرة، تُشبه بذور العُشب. وتنُّورة صفراء قصيرة مشبوكة من الجنب بثلاثة أزرار سوداء قطر كل منها نحو ثلاثة أرباع بوصة. سمعت صوت عود ثقاب يحتكُّ بالعلبة. كنت أحسب أنَّ بشرتها فاتحة اللون، لكنَّها بدت دكنا قليلًا بسبب الظلال التي ألقتها التنُّورة. رغم ذلك كانت أصابعها التي تتأهَّب لفكِّ أزرار التنُّورة لا ريب فاتحة اللون. في الواقع لم أعُد أستطيع التمييز أيُّهم حقيقي. كانت أصابعها قد تأهَّبت لفكِّ أزرار التنُّورة، ثم ترددت وبدَّلت رأيها، لتنتقل إلى بذور العُشب المرصوصة ببلوزتها. آه، لا بد أن تبدأ بالطبع من هُناك. أمَّا بالنسبة إليَّ فكنت أريد مزيدًا من الوقت. بدأت أشمُّ رائحة سجائر. لقد كانت هِي التي قابلتها مُصادفة منذُ أسبوع خلا – هِي المطمئنة مثل طفلة، التي أزالت ديوني كافَّةً كأنَّها ممسحة قوية لجميع الأغراض – كان من الممكن لو كان الأمر يقتصر عليها أن أصادفها مرَّة أخرى في مكانٍ ما. لكن على أي حال، يبدو أنَّني كنت أتمنَّى أن تسنح لي الفرصة للقاء المرأة التي تلصَّصت عليها الليلة الماضية، المرأة التي كانت شديدة التسامح مع قُبح الآخرين؛ التي تُشبه آلة لتحريري من رغبة جعلتني أنسى شعوري بالوضاعة، كأنَّها مُخدِّر أو كُحُول. ورُغم أنَّها الحقيقة، كان من الصَّعب أن أصدِّق على الفور أنَّهما قَدِ اجتمعا معًا في شخصيَّة واحدة. وبالطبع لم أكن أعرفها بالقدر الَّذي يكفي كي أُبدي رأيًا. إذْ ما فائدة أن تعرف العين اليُمنى ما تراه اليُسرى؟ ما يهم هو الثِّقة؛ حيث نتقاسم همومنا بشكل عادي جِدًّا مع الآخر؛ ونُراقب الأشياء دون وعي خاص. فكَّت زِرَّ بذور العُشب الثالث وكانت لا تلبس شيئًا أسفل البلوزة. كنتُ أشمُّ رائحة سيجارة لكن لا أرى دخَّانًا.

كان التدخين هكذا أمرًا خطأً. ثُمَّ بدأ الدُّخان يتسرَّب بغتةً من شقوق العُلبة ومِنْ نافذة الملاحظة، وكان يملأ تجويف العُلبة حدًّا يعجز معه مَنْ في داخلها عن إبقاء عينيه مفتوحتين.

قال المعلَّب المزيَّف بنبرة انتصار:

- هل أنت مستعد؟ انظر. إنَّها لا تعبأ بي على الإطلاق.

ابتسمت المرأة قليلًا وهي تفكُّ الزِّرَّ الخامس. ابتسامة مترنِّحة. لكن لمْ تزل بعدُ سبع بذور عُشب وينطلق العرض.

- لا بأس لو أردت أن تلتقط بعض الصور.

أُخذت على حين غرَّة. وكانت قد وعدتني أن تعرض نفسها أمامي كي أطمئن. لكن رُغم تجرُّدها من الثياب، لم يكن هُناك ما يدعوني للقيام بالمثل. ليس لديَّ ما يمنعني من خلع ثيابي، لكن في الوقت الرَّاهن لا حاجة لذلك. كنت قلقًا دون داعٍ. مددتُ يدي نحو حقيبة يدي الواسعة كي أخفف من سخافة الموقف (وكانت في السلَّة التي وضعت فيها ثيابي حين خلعتها) وكنت أضع فيها الكاميرا، لكن تراجعت عن الفكرة في النهاية. ذلك أنَّني حين أُعِدُّ الكاميرا هُنا والآن؛ أقرُّ بحياة مشتركة مع المعلَّب. قد يكون ذلك أفضل من التجرُّد من الثياب، لكنَّه يُشبه تسليم مفتاح حجرتي الخاصة على كل حال.

- هذه الخلفيَّة مستحيلة.

وقَدْ فكَّت الزرَّ السَّابع، لوت جذعها ورمقت الحائط من ورائها. انشقَّت

رقبة ياقتها ورأيت مِشدَّ صدرها. كان رماديًّا أدْكَن بدروز مكشوفة مثل كُرة الرَّجبي. في الواقع، رُبَّما كانت الخلفية تفتقر إلى الذوق. ثَمَّة صندوق زجاجي وطوابير من الأدوات المُعقَّمة. سرير فحص رفيع جِدًّا. حوض غسيل مطلي بالمينا فوق سيقان معدنيَّة مقوَّسة رشيقة. ثُمَّ مقعد آلي غريب أشبه بكرسي طبيب أسنان، لكنه مُختلف بعض الشيء. تلك الأشياء هي ما جعل الخلفيَّة شائقة. ثَمَّة شبق في هذه التشكيلة كما بفوتوغرافيا الجحيم. لن أقاوم بالتأكيد غواية التقاط بعض الصور حين تميل الشمس قليلًا ناحية الجنوب، في حال كان لديَّ ما يكفي من أفلام التصوير.

قال المعلَّب المزيَّف بلطف:

- يُمكننا تبديل مكانينا إن شئت. سأذهب إلى هناك..

- لا. لن يُفلح ذلك مطلقًا. سأكون بمواجهة الضوء.

كفى! كفى! سأعترف إن أنا تكلَّمت هُنا. استمرَّت أناملها بفكِّ الزرِّ التَّاسع، وحين تفرغ من الأزرار الثلاثة الباقية سينزلق قميصها.

قال بهِمَّة مُصطنعة:

- أعرف من خلال مراقبتي لك أنَّك تفضِّل الفعل المباشر أكثر من مجرَّد التقاط الصُّور.

لقد بدأ المعلَّب المزيَّف بملء الفراغ الَّذي خلَّفه صمتي بثرثرة عابرة.

- أنا الآخر أفضِّل الفعل المباشر لو أُتيح لي. كفانا زعمًا أنَّها لا تثيرنا. يُمكنك التقاط الصُّور في أيّ وقتٍ تشاء؛ فهو يُشبه أن يُطلب منك أن تتمهَّل

عند اللحظة الحاسمة. كما أنَّك لست مضطرًّا إلى أنْ تعبأ بي؛ إذْ تنازلت عن أي حقوقٍ لي عليها منذُ زمنٍ طويلٍ. لا بد أنَّه قد مضى نحو عام الآن... كانت علاقتنا قد بدأت حين جاءت لي من أجل إجراء إجهاض. وبعد انتهاء العملية، طلبت مِنِّي فجأةً أنْ أسمح لها بالعمل لتسديد ديونها لأنَّها لم تكن تمتلك نقودًا. بذلك الوجه البريء... أصابني الذُّهول... لكن على أي حال في أوقاتٍ كهذه يصل الواحد مِنَّا لقرار بسرعة مُذهلة... وبشكل مفاجئ. لم أستفسر عن اسمها أو اسم الرَّجُل أو أقربائها كما ينبغي. كنت أسعى إلى إبقائها إلى جانبي من خلال تجاهل ماضيها.

- لو سألتني، كنت أجبتك.

- لا أقصد بالضبط أنَّني لم أسَلْ عامدًا.

- لقد سرَّني ذلك على أي حال.

- لَمْ تُخفِ الممرضة التي كانت هُنا حتَّى ذلك الحين إحساسها بالانزعاج. وقد أطلقت عليكِ اللَّعُوب البذيئة.

- وكيف كان رأيك فيَّ؟

- في البدء تصوَّرت أنَّك تشكِّين فيمن حولك بدرجة فظيعة. بعدها اعتقدت أنَّه من الجائز أنَّك مُفرطة الثقة بهم. تفعلين كل شيء بعفويَّة شديدة؛ وتعترفين بخطئِك على الفور بنفس السذاجة إذا تعرَّضت للتوبيخ. يبدو أنَّك تؤمنين أنَّ كل آثامك تُمحى بمجرَّد الاعتراف بالأخطاء.

تسمَّرت أصابعها لفكِّ الزرِّ الأخير:

- هل كُنتُ مُزعجة لهذا الحدّ؟

- كلّا. لقد انمحي كل شيء. حين أعود بتفكيري الآن أشعر أنَّ الغريزة التي ألهمتني ألا أحاول الاستفسار عن ماضيك كانت في محلِّها. إذ من خلال معرفتي بك لاحقًا، كان من الممكن أن تفرِّي دون أن تتركي أثرًا... حتَّى لو مشيت فوق ثلجٍ سقط للتوّ.

ضحكت قليلًا بأطراف شفتيها المطبقتين بإحكام، وحين جذبت أطراف قميصها الَّذي فرغت من فكّ أزراره مِنَ التنُّورة، تركته ينزلق حتَّى أطراف أصابعها ثُمَّ ألقت به إلى حافَّة أريكة الفحص. التوت؛ فتجمَّعت طيَّات ضيقة من اللحم في المنطقة التي يضيق فيها خصرها. كانت طبقة الدهون أسفل جلدها تكاد تكون منعدمة رُغم أنَّها لم تكن شديدة النحول. أطلق هذا المشهد مجموعة من الأفكار، لكن ماذا عن اللحظة الراهنة؟ آه، نعم، إحساس الشمواه النَّاعم الَّذي مسحت به عدستيّ.

- لكنَّنا تمكَّنَّا من التعايش معًا بشكل جيد، أليس كذلك؟

- بل نجحنا بدرجة كبيرة!

مرَّت كلمات المعلَّب المزيَّف عبر الأنف، هازئًا من نفسه.

- على أنَّي وغدٌ سهل الإرضاء. لقد افترضت بشكل عشوائي أنني أستطيع الاحتفاظ بها. أنا الشَّاذُ هُنا. أحلق مرَّتين يوميًّا، في الصباح وفي المساء. كنتُ أتصرَّف كأنَّي دُونْ چوان. زِد على ذلك، حين كانت علاقتنا علاقة طبيب بمريضة جاءت لإجراء توسيع وكشط، كان بوسعنا الحديث

عن رَحمها وبَظْرها كأنّنا نناقش مسألة نضج ثمار تين شوكي بحديقة ما. لكن علاقتنا استمرَّت بعد ذلك كأنَّها تفَّاحة نيوتن... وقانون الجاذبيَّة. لذلك انتفضت الممرضة الأولى وغادرت دون إبطاء.

(ثَمَّة بند هامشي مكتوب بالحبر الأحمر وسهم يُشير للمكان الذي أُدرج فيه بين تلك السُّطور.

«أقسم أنَّني لم أكن أعرف أنَّ الممرضة التي غادرت كانت زوجتك».

: «ما كان هذا لِيُشكِّل فارقًا. إذْ كانت قَدْ ضاقت ذرعًا بدورها»).

- لا أحبُّ أنْ أرى أحدًا يتأذَّى.

- همم. تُرى... متى سألتك...؟ ألم أقُل لك إنَّني أريد أن أعرف إن كنت تحبِّين قضاء اللحظة الأخيرة معي في حال تبيَّن أنَّ العالم في طريقه للفَناء؛ لكنك قلت إنَّ الأمر لو كان بيدك، لقضيت اللحظة الأخيرة في مراقبة البَحر بمفردك.

- كذَّاب! بل لا بد أنَّني قلت إنَّني أودُّ لو كنت برفقة الكثير من البشر قدر الإمكان... بمكانٍ ما مثل محطَّة، أو متجر ضخم... مكان مزدحم.

- لا فارق.

- لا أعتقد أنَّ قيامة العالم بهذه البساطة.

- لَقدْ سدَّدتِ ما عليك على أي حال. ولا تدينين بشيء آخر.

صارت التنُّورة الصفراء أنبوبًا انزلق عند قدميها فوق الأرض. كانت تقف منتصبة فوق التنورة المُلقاة عند قدمها اليُسرى، فالتقطتها بطرف قدمها اليُمنى وطوَّحت بها خفيفة في الفراغ. قامت التنُّورة بحركة ثقيلة غير متوقَّعة وسقطت فوق الأرض على الجانب القريب من سرير الفحص، واصطكَّت الأزرار ببعضها، مُصدرةً صوتًا يُشبه دهس بعض المحار الصغير. ثَمَّة سروال تحتيّ أزرق شفَّاف متناهي الصِّغر يتقاطع مع لحم الوَرِكين. ثنت ساقيها قليلًا ووضعت راحتَيْ كفَّيها فوق الجهتين الظاهرتين من فخذيها. كانت وضعيَّة امرأة على وشك الغوص داخل الماء، لكن بمسحة أكثر هزليَّة. كانت حركاتها تصنع تعاريج داخل الأثير شيئًا فشيئًا، مُسفرةً عن توزيعات للنور والعتمة، تستحدث تيارات، وتنحت عالمًا جديدًا بالكامل. أصابني نُحُولها بالذُّهول كأنَّما أصابني البردُ فجأة. كانت حالة من الغيرة إذْ أرى كل هذا للمرَّة الأولى.

قاطعنا المعلَّب المزيَّف وهي تتأهَّب لدسِّ أصابعها داخل حزام السروال التحتيّ:

- لحظة فحسب.

توقَّفت وهي ترمق شيئًا ما خلف رأسي.

- أنت لا تنظر إليها تقريبًا على الإطلاق. إنَّه أنت مَنْ تخلع ثيابها لأجله على أي حال. استخدم عينيك يا رجل، وأحِسَّها. هل تعلم أنَّ تلك التماثيل الصغيرة خُلقت من طحين الأرز الأبيض؟ ذلك هو الإحساس الَّذي ساورني حين رأيت المسافة من عنقها حتَّى ذراعيها... إحساس متدفِّق يُشبه

عجينة ممدودة قبل أنْ تجفّ. لكن ما أحبُّه بدرجة أكبر هو هذا المنحنى الَّذي ينساب بدءًا مِنْ خصرها حتَّى تكوُّر رِدْفيها. بقعة ما لا يزال فيها شيء من جسد البنت الصغيرة قبل أنْ تتفتَّح وتغدو امرأة ناضجة.

- طيب. بالنسبة إليَّ، أحبُّ ساقيها أكثر.

تيبَّس فكّاي فجأةً واصطكَّت أسناني فيما أنطق هذه الجُملة. ثَقُلَت مُقلتاي وصرت عاجزًا عن رفع عينيَّ في وجهها. وتساءلت، كيف هو مُحيَّاها الآن؟ مع ذلك، انتابني الشكُّ حين انتبهت لغياب أي أثر لدخان سجائر يتصاعد من الصندوق وأنَّ المعلَّب المزيَّف لم يبدأ بالسعال حتَّى. - غير أنَّي لا أفهم... الساقان متناسقتان، ساقان قبيحتان... كأنَّني مضطرٌّ لقراءة لغة أجنبيَّة لا أعرفها. لِمَ أتشبَّث بالسيقان هكذا؟ أجد هذا مُستغربًا.

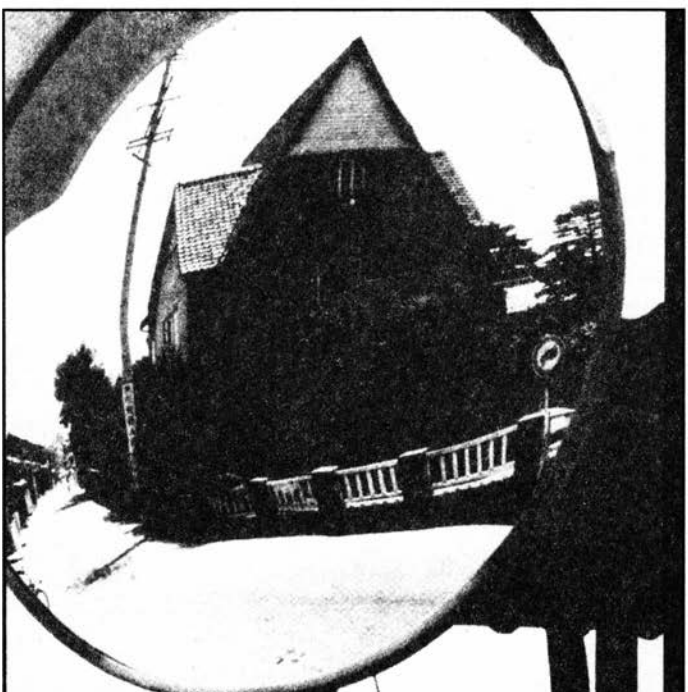

أتخيَّل أنَّني سأواصل العيش حين أرى الأشياء الصغيرة: قطرات المطر؛ القفَّازات الجلدية التي انكمشت بسبب البَلَل. لكن تفارقني الرغبة في الحياة حين أرى شيئًا بالغ الضخامة: مثل مبنى البرلمان؛ أو خارطة العالم؛ أو...

- لأنّها الأقرب للأعضاء الحميمة.

- لا أتفق معك. إذْ لو صحَّ ذلك لكانت تكفي أي ساق. أتساءل ماذا لو لم يكن لها علاقة بالطيران أو الهرب. تُغريني مطاردة السيقان الصالحة للهرب بسرعة.

- أليس هذا أمرًا بعيد المنال؟ هي لا تفرّ، بل تنتظر. هل أقول لك عن الخطأ؟ أنت الآخر بعيد جِدًّا. وما دمت لن تتقدَّم نصف خطوة للأمام، فلن تستطيع حمل وجهك حتَّى. وسأصارحك عن سبب أنَّك لن تقوَى على التقدُّم نصف خطوة.

تجشَّأ المعلَّب المزيَّف وغادر الرُّكن حيث كان يقف، ثُمَّ بدَّل مكان وقوفه ليغدو عند رأس مثلث متساوي السَّاقين قاعدته هي الخطُّ الواصل بيني وبينها.

- إنَّ الأسماك والطيور والحيوانات - تشترك جميعها بحفلات غَزَل قبل التَّزاوج. وبحسب مُتخصصين، يبدو أنَّ تلك الحفلات صيغة مُعدَّلة للهجوم والتهديد. كل المخلوقات الحيَّة لديها نطاقها الخاص النَّافذ، وهي تكشف عن ردِّ فعلٍ غريزي يتمثَّل في إجهازها على أي غازٍ ينتهك هذا النطاق. لكن التَّزاوج لَنْ يتمَّ أبدًا في حال اعتمدت مبدأ الهجوم مبدأ وحيدًا لك. ولأنَّ المُعاشرة هي صِلَة بين جسدين، فلن تحدث إلا حين تسقط الحدود أو ينفتح باب ما. هكذا يُولد تكنيك جديد في التَّزاوج، من خلال حركة أو إيماءة تبدوان لأول وهلة كأنَّهما هجوم لكنه مُغاير بعض الشيء، تكنيك تتشوَّش مِنْ خلاله غريزة الدفاع عن النَّفس أو تسترخي.

الشيء نفسه بالنسبة إلى البشر. نتكلّم عن الرومانسيَّة، لكنها وقبل كل شيء ليست إلا غريزة عدوانيَّة اختبأت وراء الماكياج والريش. وأيًّا ما تكون، فهي لا تُغيِّر حقيقة أنَّ الغرض النِّهائي منها هو انتهاك وتجاوز الحدِّ الفاصل لمنطقةٍ ما. ويبدو مِنْ خلال تجربتي أنَّ الحدَّ الفاصل في حالة البشر يُشكِّل دائرة نصف قطرها نحو ياردتين ونصف الياردة. لا بأس من الغَزَل؛ كما لا بأس من دغدغة مشاعر الطرف الآخر ببعض الخرز المتلألئ وما شابه، على العموم حين تخترق هذا الحدَّ الفاصل تكون قد امتلكت شيئًا بالفعل. ومن هذه المسافة القريبة جِدًّا يُصبح من الصعب، كما قَدْ يتوقَّع المرء، أن نتعرَّف بشكلٍ واضح إلى شخصيَّة الغريم الحقيقيَّة. فلا يبقى أمامنا إلا أن نلمسه ونشمَّ رائحته.

- وإلامَ ترمي حين أقول وأفعل كل ذلك؟

- حين تتقدَّم نصف خطوة للأمام، تغدو عند هذا الحدِّ بالضبط.

- وماذا بعد؟

- أنت مُذبذب بالتأكيد. ها أنت قد اجتهدت كي تجعل المرأة تحثُّك على إبراز جواز مرورك عبر الخطِّ الفاصل، أليس كذلك؟ ولو تقدَّمت نصف خطوة أخرى فإنَّها ستطلب منك، شئتَ أم أبيتَ، أنْ تُشهر هذا الجواز. هذا بالطبع تصريح بالمرور. ولا ريب أنَّك تتنازل حين تستخدمه عن أي ذريعة أو حقّ في التراجع إلى العُلبة. أنت تخشى الاعتراف بهذا، وتُهدر الوقت بسبب خوفك. لقد قيدت يدها وقدمها هُناك، أترى؟ لقد أعقت سريان الزَّمن.

أدركت صِحَّة حديثه حين أمعنت التفكير فيما قال. كانت قد تسمَّرت في مكانها تقريبًا بعد أن أمسكت بأصابعها شريط سروالها التحتيّ المطّاط. وكانت عيناها اللتان انغرزتا في الفراغ بصورة غامضة كأنَّهما تبحثان عن شيءٍ ما وراء دماغي، مفتوحتين على اتساعهما كأنَّهما عينان اصطناعيتان.

- ما الخطأ؟

أصدر المعلّب المزيَّف صهيلًا فيما يمضغ نهايات الكلمات:

- آه... أتساءل: "أما مِنَ أوغاد بين أولئك الَّذين يُبغضون نشرات الأنباء"؟ ألست أنت من يُناقض نفسه، أنت الكافر بالتغيير؟ تخشى الوصول إلى ما تُطالب به؛ لذلك تُوقِف الزَّمن.

- إن مثل هذا العمل الفذَّ شيءٌ مستحيل، ينبغي القول.

- لقد قرأتُ حكاية الرَّجُل الَّذي حنَّط عشيقته وعاش معها مُحَنَّطة. يقول إنَّ عشيقة مُحَنَّطة أجدَر بالثقة مِنْ عشيقة حيَّة وأكثر إثارة.

- لا أميل لهذه الأمور للأسف.

- لا بأس في ذلك على الإطلاق. أليست هذه هي النتيجة التي انتهينا إليها؟ على العموم، الأمر الواضح الوحيد هو أنَّك لا ترغب في الخروج من الصندوق.

- قُلتُ لك إنَّني تخلَّصت منه قبل أنْ أجيء إلى هنا.

- لا بأس إذن، لكن اسمح لي أن اسألك، ماذا تعمل وأين في هذه اللحظة بالتحديد؟

- كما ترى. أثرثر معك... هُنا.

- أفهم. لكن إنْ صحَّ ذلك، من يدوِّن تلك الدفاتر وأين يدوِّنها؟ من ثَمَّ فهو ليس شخصًا يكتب داخل عُلبة على نور لمبَة مكشوفة داخل غرفة الملابس على شاطئ البحر؟

- آه. ليس كل ما يُعرف يُقال. ذلك أنَّك إن تكلَّمت أنت نفسك ستعترف أنَّكما أنتما الاثنين لستما إلا شظايا من خيالي.

- همم... تُرى.

- لا ريب في ذلك.

- بالتأكيد، فواحدٌ مِنَّا فقط نحن الثلاثة هو الموجود حقًّا. وهو الَّذي يستمر في الحقيقة في كتابة هذه الدفاتر. وكُلُّ ما جرى ليس إلا مُناجاة هذا الشَّخص بينه وبين نفسه. حتَّى أنت عليك أن تعترف بهذا. وبالطريقة التي تجري عليها الأمور، فإنَّ هذا الشَّخص سيستمر في الكتابة دائمًا وإلى الأبد كي يتشبَّث بالعُلبة بكل قوَّته.

- أنت مُتشكِّك جِدًّا. لا أنتظر إلا أن تجفَّ ثيابي التحتيَّة، وساعتئذٍ أغادر في الحال. لقد دعكت نفسي بقسوة لدرجة أنَّني أحسُّ وخزاتٍ خفيفة حين تهبُّ الرِّياح على جلدي. وقَدْ مكثتُ داخل العُلبة بعض الوقت كي أتحاشى الرياح، وما مِنْ سبب خاص يجعلني أشغف بالدفاتر. وسأتوقَّف عن الكتابة على الفور وسيكون هذا هو السَّطر الأخير.

- حين تجفُّ ثيابك التحتيَّة هل تنوي زيارتنا حقًّا؟

– بل جهّزت لزيارتكما بالفعل. لكن منذُ البداية رتّبت لذلك حقيبة بالغة الصِّغر. لا أريد بشكل صارم إلا شيئًا واحدًا كي أتخلَّص من العُلبة، لكن لا غنى عنه. لا أستطيع أن أترك العُلبة إنْ لم يكن لديَّ، هل تَعِين ما أقول؟ بنطال. سأتمكَّن من الخروج إلى العالم لو كنت ألبس بنطالًا. لا فرق لو كنت عاري الخصر أو حافي القدمين ما دمت ألبس البنطال. خلاف ذلك، يغدو تجوالي بالشَّوارع دون بنطال مدعاةً لإطلاق صيحات الاستنكار، بصرف النَّظر عن حداثة حذائي أو أناقة معطفي. إنَّ المُجتمع المُثقَّف هو مجتمع البنطال على نحوٍ ما. لقد جهّزت مئونةً لِما سيجيء لحُسن الحظّ، ووضَّبتُ بنطلونًا واحدًا فقط للاستعمال المستقبلي. كنتُ ألبسه للمرة الأولى الأسبوع الفائت حين حضرت للعلاج. لن يقف حجر عثرة إن استخدمته حشوة لسقف العُلبة. ثَمَّة كاميرا احترافية... أمَّا باقي الأشياء فليست بذات أهميَّة خاصَّة ولن يساورني أدنى ندم لو ألقيتها متى رأيت أنَّها مصدر إزعاج. كلَّا، لستُ مضطرًّا لرميها، إذْ يمكنني أن أعطيها لك: مستلزمات النظافة الشَّخصيَّة؛ شفرات موسى آمنة؛ ثقاب؛ كوب ورقي؛ سدَّادات للأذن؛ قنِّينة حراريَّة؛ مرآة رؤية خلفيَّة بسيارة؛ شريط مطَّاط عازل للماء... دواء مُسكِّن؛ قطرة عين؛ مِركروكروم إلى آخره. على أنَّك تستطيع التخلِّي عن هذه الأشياء ما دمت طبيبًا ولديك مثلها بالفعل... سِتّ صور مقطوعة من المُجلَّد الثَّاني مِنْ كتاب *مجموعة مِنَ الروائع الفوتوغرافيَّة المُعاصرة للعراة* ومعها أنبوب للرؤية... أمَّا بالنسبة إلى تعليمات الاستخدام فستفهمها بمجرَّد أن تحاول استخدامه... ثُمَّ بطارية جيب وقلم حبر والنثريات الأخرى مثل لوح بلاستيكي أو طوق مِنَ السِّلك ومفردات للاستعمال

اليومي يَصْعُب وصفها. تبدو أشياءَ تافهة، بيد أنَّها تؤلِّف مجموعة ضروريَّة وفاعلة بالعيش أقرَّتها تجربة الحياة داخل عُلبة. أنا لا أتفضَّل عليك، لكنَّها هدية وداع مناسبة لمُعلَّب جديد؛ ومن ثَمَّ قد يكون من الملائم أن تمتلك مذياعًا صغيرًا لبعض الوقت في البداية. ذلك أنَّنا أحيانًا ما يغمرنا بين الحين والآخر شعورٌ لا يُوصف بالوحدة، بصرف النظر عمَّن يعذِّبهم إدمان نشرات الأخبار مثلي.

- حقًّا، متى تتوقَّع أن يجفَّ غسيلك؟

- لقد توقَّف المطر للتوِّ وصار الهواء رطبًا لحدٍّ ما. الثياب نصف جافَّة وحين ينسكب النُّور ويتبدَّل اتجاه الرِّيح لن يستغرق جفافها وقتًا طويلًا.

- إذن فأنت تقصد أنَّها لا تني مُظلمة حيث أنت؟

- انظر هُناك، ثَمَّة شيء يلمع بالقرب من التقاء الأفق بالبحر. لا بد أنَّها قوارب الحَبَّار مُبحرة. لقد تأخَّر الوقت بها، وسوف تنير قريبًا.

- لا آبَهُ إن كانت ثيابك لم تجفَّ بالكامل بعد. البسها على أي حال، ولا تكن نِمكيًّا. حتَّى البول الَّذي بقَّع السِّروال التحتاني سيجفُّ وحده فوق جسدك. سنملُّ الانتظار إن لم تُسرع.

- أحسُّ كأنَّني أُصبت بالبرد. رُبَّما لأنَّني لم أنَلْ ما يكفي من النَّوم، لكن قدميَّ ساختنان وأشعر برعدة. تتحسنان حين أدفنهما في الرِّمال، لكنهما باردتان. رُبما استغرقت طويلًا في الحَمَّام. كان جُرحي يؤلمني جِدًّا وفشلت في غسيل جسدي كُلِّه حين رُحتُ إلى مستشفاك الأسبوع الفائت، على

أنّي حرصت على أن أتخلّص نهائيًّا وفي الحال من تراكم ثلاث سنواتٍ من الأوساخ. فاِسْتنفدتُ صابونة جديدة كاملة. ليتك رأيتها، كانت صابونة مخصوصة وقد توافر أمامي كثير من الوقت، أو بالأحرى افترضت أنّ ما أفعله سيستحوذ عليّ تمامًا؛ لأنّه في غضون هذا الأسبوع شغلتني أمور شتّى. حاولت أن أنحت الصابونة على هيئة جذع امرأة، أي امرأة؛ لأنّني أدركت أنّني عاجزٌ لا محالة عن نحت امرأة تُشبهها. ثُمّ ثبّت بعض شعيرات الأنف بين ساقيها، لكن بصراحة كانت تُشبه ضفدعًا أكثر منها امرأة رغم أنّني حاولت أن أنحتها بواقعية تامّة. لا بأس، كانت الصّابونة من نوعيّة وخامة جيدتين بصرف النظر عمّا آلت إليه الآن. في البدء غمرت نفسي بالماء تمامًا أسفل المِرشّة، بعدها غطّيت جسدي كلّه بالصابون ودلّكته بقوّة باستخدام ثيابي التحتيّة بدلًا من قماشة الغسيل. وبعد أنْ فركت جسدي بأظفاري حتّى تأذّى، اغتسلت. كررت هذه المسألة أربع مرّات فصفا لون ماء الشّطف الأدْكَن. في المرّة الرّابعة غسلت شعري، وبدأت فقّاعات كثيرة بالظُّهور. لكن بعد ذلك تلخْبط كل شيء. كنت أتمنّى أن أحصل، بعد حمّام طويل والتخلُّص من الشُّحوم، على ملمسٍ ناعمٍ يُشبه تمرير الأصابع فوق زجاج مصقول. لكنّي فشلت. أثناء ذلك انبرت الصّابونة ولم تعُد صالحة للاستخدام. ثقلت ذراعاي وأخفقت برفعهما، واتّقد جسدي كُلُّه كأنّ طبقة مِنْ جلدي انسلخت. أحسستُ برغبة في التقيُّؤ. على أي حال رُبّما كان من الخطأ أن أحاول التخلُّص من أوساخ ثلاث سنوات بقطعة صابون واحدة. ورُبّما أصبحت كومة قاذورات، عدا عظامي. بمجرّد أن ارتميت مُنهكًا فوق الرِّمال، سمعتُ فوقي صوتًا يُشبه حصًى يتساقط من شاحنة.

لم يكن شيئًا ذا بال؛ مُوتور المضخّة. كنتُ مهزومًا. حتّى لو استغرقت ثلاثة أعوام أخرى، أستحمُّ بمياهٍ مالحةٍ تتفجَّر مِنْ محفورةٍ عند شاطئ البحر مُباشرة، ما استنفدتُ الصابونة أبدًا.

– مَنْ مِنَّا سيستسلم أولًا؟ مَن يستمر في الكلام أم من يستمر في الإنصات؟

– آه! ها أنا أدرك أخيرًا حقيقتك في الواقع. لطالما كنت أعتقد أنَّ طريقتك في التعبير عن نفسك شديدة البراعة... ثمرة خيال. لكنَّ ادَّعاءَك أنَّك لست ثمرة خيالي لن يجعلك حقيقيًّا. ذلك أنَّ حجرة الفحص هذه، وأنتما داخلها، ليست إلا الخربشات المتناثرة فوق حيطان عُلبتي. محض خربشات. أعتقد أنَّك ستفشل في تصوُّر الوضع، بالنظر إلى وجودك داخل عُلبتك، على أنَّ ثَمَّة تباينًا بين العُلبة الأصليَّة والعُلبة المستعارة. أنا الآن أنظر في الواقع إلى تلك الحجرة الموصدة التي تتَّسع لشخصٍ واحد. إلى جانب أنَّه ما من أحدٍ يستطيع تقليده لأنَّه ما من أحد رآه، حيث تصطفُّ رسوم الجرافيتي بكل أركان الحيطان الجوَّانيَّة لِعُلبة كرتون غطَّتها ثلاث سنوات من العرق والتنهدات... هذه قِصَّة حياتي... ثَمَّة مُسوَدَّة خارطة للبلدة من أجل جمع المواد الغذائيَّة ومذكِّرة توضيحية عن هذه الدَّفاتر. إلى جانب كل هذا، ثَمَّة شفرات ومُخططات لم أفهمها أنا نفسي بصراحة. كل ما أحتاجه هُنا.

– كم الوقت الآن في ساعتك؟

– آه... الخامسة إلا ثماني دقائق.

– لقد بدأت الكتابة على الشَّاطئ في الثالثة وثماني عشرة دقيقة بالضبط، أليس كذلك؟ ساعة عجيبة. أتخيَّل أنَّه منذُ بدأت لم تمرَّ سوى ساعة وأربعٍ وثلاثين دقيقة.

– أحرى بك ألَّا تنسى أنَّك لست إلا خربشاتي. تقول إنِّي أتشبَّث بالعُلبة بشكلٍ مفرط؟ ستتلاشى تمامًا مع الخربشات أنت الآخر ما إن أتخلَّص منها حسبما تنصح.

– أنت متفائل بعض الشَّيء.

– بل أُبغض نفسي قليلًا بسببك.

– أترى... صفحات دفترك تبلغ التسع والخمسين. تسع وخمسون صفحة خلال ساعةٍ وأربعٍ وثلاثين دقيقة. بصرف النَّظر عن نظرتك للأمر، هذا مُحال. أودُّ القول.

– كم مرَّة حذَّرتك؟ أنت تُسهب كثيرًا. أودُّ أن تتذكَّر ما فعلت حتَّى الآن. كم صفحةً يمكنك كتابتها في المتوسط خلال ساعة؟ عادة ولا صفحة. حين كنت تكتب بأسرع ما يُمكنك لم تكن تتجاوز الصفحات الأربع في أحسن حالاتك. وكُلُّها لم تكن سوى خربشات مُريعة.

– ثَمَّة أوقات تمكَّنت فيها من كتابة ما يزيد.

– لا بأس إذن. هل نتفاهم ونقول إنَّك تستطيع كتابة خمس صفحات بالسَّاعة؟ قسمة تسع وخمسين صفحة على خمسة تُعطي أحد عشر ويبقى أربع. إحدى عشرة ساعة وخمسون دقيقة، اتفقنا؟ وما دامت هذه هي

صفحاتك الأخيرة، فنحن نتحدَّث تقريبًا عن اثنتي عشرة ساعة، ألا تتفق معي؟ ما مجموعه اثنتا عشرة ساعة من الكتابة المستمرة دون طعام أو شراب. لو بدأت بالثالثة صباحًا، فمن المستحيل قطعًا أنْ تقلَّ الساعة الآن عن الثالثة مساءً.

– هل أُذكِّرك أنَّ هذه دفاتري. بأي طريقة أكتبها فإنَّ هذا يرجع لي تمامًا.

– رُبَّما، في ظروفٍ ما. ورُبَّما، مثلًا، كتبت كل هذا الهُراء لسببٍ ما لا أدريه. أو رُبَّما مرَّ ما يتجاوز السَّاعات الأربع والعشرين كنتَ خلالها فاقد الوعي. أو رُبَّما فقد دوران الأرض اتِّزانه بسبب كارثة طبيعيَّة ما. لكن حين تتمادى إلى حدِّ الزَّعم بذلك، آنئذٍ يُمكنني أن أطرح احتمالات مُختلفة كُليًّا. بلى، مُختلفة تمامًا. لا داعي إلى الزعم بأنَّك صاحب تلك الدفاتر؛ لأنَّه ما مِنْ مشكلة مطلقًا حتَّى لو كان المؤلِّف شخصًا آخر غيرك.

– كُفَّ عن إلقاء تلك الاتهامات الباطلة. أنا أكتب بِالفعل. السَّاحل مُظلم وتُغلِّفه رائحة البحر، وتتوالى فوقك حشرات دقيقة مثل دخان حول لمبَة قذرة مكشوفة في حجرة تغيير الثياب. وهي تُصدر لسببٍ ما صوتًا يُشبه قطرات المطر حين تتساقط فوق عُلبتي، فأدرك أنَّها أضخم مما توقَّعت. أدسُّ الآن سيجارة بين شفتيَّ، وأشعل ثقابًا فيضيء اللهب رُكبتيَّ العاريتين، فأُقرِّب طرف السيجارة المُحترق منهما وأنظر – أحسُّ سخونةً واضحة. تِلك وقائع لا يمكن لأحد أن يشكَّ فيها. وإن قُدِّر لي أن أتوقَّف عن الكتابة هُنا والآن، فلن تظهر شخصية أو سطور أخرى.

– همم... إذن من الجائز أنَّ شخصًا مُختلفًا يكتب في مكانٍ آخر.

– مَنْ؟

– أنا، مثلًا..

– أنت...؟

– نعم، رُبَّما أكون أنا مَنْ يكتب. مَنْ يواصل الكتابة ويتخيَّل أنَّك أنت مَنْ يكتب ويتخيَّلني.

– لِمَ؟

– من أجل اتهام المعلَّب. رُبما أحاول أن ألقي في روع النَّاس أنَّه موجود حقًّا.

– هذا تحوُّل غير متوقَّع. لو افترضنا أنَّك المؤلِّف، آنئذٍ يُصبح المعلَّب محض خيال بكل بساطة.

– حسنًا، افترض إذن أنَّني أحاول أن أغرس في رأسك أنَّه غير موجود كي أبرهن على وهميته.

– آه، كنت أتساءل في الواقع عمَّا لو لم يكن كل هذا واقعيًّا. كان لديَّ هاجس. لكن بصرف النَّظر عن عدد المكائد التي تدبرها، فمصيرها الفشل. لأنَّني أمتلك دليلًا ماديًّا. بلى، رُبما كان عليَّ أن أحذِّرك قبل أن نتفاوض. فرُبَّما ما كنت لتتصرَّف بتهوُّر لو كنت تعرف أنَّني أحمل سلاحًا. كلَّا، لن أسيء استعمال هذا الدليل؛ إذ لو كنت أنوي ذلك كنت استخدمته

منذُ وقت طويل. لكنني سأعطيك كل الأدلَّة في وقتٍ لاحقٍ في حال بيَّنت إخلاصك.

– معذرةً، لكنني لا أفهم ما تحاول التلميح إليه.

– رجاءً. أشعر ببعض الدُّوخة بسبب قِلَّة النَّوم. لا بأس إذن، اسمح لي أن أصارحك. مَنْ، يا تُرى، أطلق عليَّ الرَّصاص ببندقيَّة الرشّ؟ لقد رأيتُ شخصًا ما.

كررت المرأة كلامها بغتة، مرددةً العُذر ذاته:

– كثيرون لديهم بنادق رشّ في هذا الحي. يبدو أنَّ أبناء عُرْس تعيث الفساد في عشش الدَّجاج.

بدأ الزَّمن بالحركة شيئًا فشيئًا. لم أكُنْ أرغب في إيذاء المرأة، على أنَّي وجدت اضطرارها لتأييد المعلَّب المزيَّف أمرًا لا يُغتفر.

– ثَمَّة دليل راسخ للأسف. ذلك أنَّني جذبتُ مِصراع الكاميرا سريعًا فور أن أُصبت – ردّ فعل احترافي. ورأيتُ الصورة المُظهَّرة في اليوم ذاته. كانت صورة رائعة. منظر خلفي لشخص يتسلَّق الطريق المُتحدِّر بهمَّة. كان يحاول إخفاء بندقية ما أسفل ذراعه الممدودة بطول جسمه. لن أنسى طريقة تسريحة شعره ولا بدْلَته المهندمة باللحظات الأخيرة كي تلائم كتفيه المدوَّرتين، ولا ثنيات بنطاله المثيرة للشكِّ رغم جودة خامته ولا الحذاء الخفيض المُميَّز الَّذي يُشبه شبشبًا.

عندئذٍ تبدَّلت نبرتي إلى وتيرة واضحة سلسة، ووجَّهت كلامي إليها بالتحديد:

– هلَّا قمنا بلُعبة تخمين بسيطة؟ مهنة ما يخلع فيها المرء حذاءَه ويلبسها باستمرار؛ بها فرصة في الغالب للقعود على الطريقة اليابانيَّة؛ وتتعلَّق بالفئات الأعلى في المستوى المادِّي؛ مهنة يستطيع الفرد فيها أن يُمشِّط شعره كيفما شاء دون أن يكترث بآراء الآخرين. تُرى ما تخمينُك؟ لا أحسبها بتلك الصعوبة، فأي شخص سيفكِّر على الفور في طبيب يقوم بزيارات منزليَّة، أليس كذلك؟ فضلًا عن أنَّ الطريق الجبلي الَّذي صوَّرته كان إلى جانب مصنع الصويا عند السَّفح مُباشرة..

اتَّخذت الأحداث مَنحًى فظًّا بغتةً عند هذه النَّقطة. إذْ بدأ المعلَّب المزيَّف – المعلَّب المزيَّف الَّذي ظلَّ حتَّى الآن ينتصب مُعتدلًا دون أي تعبير؛ غير مؤذٍ، كأنَّه سلَّة نفايات نبتت لها ساقان – يرجُّ عُلبته على نحوٍ أخرق، ويُصدر صوتًا مُزعجًا. انفتح الستار البلاستيكي فوق نافذة الرؤية واندفعت خلالها عصا طويلة. كانت بندقيَّة رشّ، صوَّبها إلى عيني اليُسرى مباشرة.

قلت بلهجة عفويَّة نصف مازحة:

– توقَّف! يبدو أنَّني مُصاب بلمسة من رهاب أطراف الجسم، هذه نقطة ضعف بي. لذلك يُصيبني التلويح لي على هذا النحو..

– ألن تُريني الفيلم؟

– لم أُحضره معي؛ فهو ورقتي الرَّابحة الوحيدة التي ستضمن لي حقًّا مساويًا في التعبير.

فأمر المرأة بصوت مُدوٍّ:

- فتِّشيه!

تملَّكتها الحيرة ورفعت بصرها تجاهي متوسِّلة. بدأت تميل إلى الأمام، وهي تشبك كفَّيْها أمام ثدييها وكأنَّها سترفع ياقة الثوب. عندئذٍ انفتح الجزء الأمامي من سترتها البيضاء المكويَّة على اتساعه (هل لبستها في وقتٍ ما دون أن أنتبه؟) بقي الزرُّ الفوقاني وحده مَحْبُوكًا. كانت عريانة تحت الثوب الأبيض. توقَّعت هذا لحدٍّ ما، ومع ذلك بوغتُّ. ومنحني العُري أسفل اللباس الأبيض إحساسًا بالتعرِّي يتجاوز العُرْي المعتاد. لم يكن الثوب الأبيض ثوبًا أبيض، بل انقلب زيًّا شَعائريًّا فوق قربان. كانت البشرة حادة الملامح؛ المتناسقة، توحي بأنَّها آلة ما غريبة لم أَعِ ما هي. الفكُّ الضيق وبطنها المدوَّرة كانا وحدهما ما لم ينسجما معًا، بل كانا جديرين بطفلة. خرَّبت رأسي واندلعت فوضى عارمة داخل دماغي كأنَّها فوضى داخل حقيبة. انتقلت ساقها اليُسرى للأمام وهي تحاول أن تدعم الثقل المائل. فتقلَّص مجال رؤيتي على الفور وتأهبت لهجوم، لم أَعِ أنا نفسي سببًا له.

- لا بأس، سأفعلها بنفسي؛ فهو أمر لا يستحق أنْ تُزعِج نفسكَ به.

واتَّجهت ناحية الصُّندوق الموجود في الرُّكن بجانب البَّاب حيثُ وضعت ثيابي المخلوعة. فتحت حقيبة تسلُّق الجبال (يُحتمل مِنْ مُخلَّفات الجيش الأمريكي) وأخرجت لُعبة تمساح محشوَّة.

- أعتبر نفسي محظوظًا لأنَّي أرى أنَّك تشعر بالذنب. بصراحة كنت أشعر أنَّ ظروفك ملائمة بشكلٍ غريب.

كان التِّمساح الَّذي أخرجته يقلُّ طوله عن ثماني عشرة بوصة ومُحيط جذعه ست عشرة بوصة ونصف البوصة. مجرَّد تمساح لُعبة مدهون باللون الأخضر. مُقلتان مغروزتان ونابان، ظَهرٌ ناتئ، ومخلبان باللون البُنِّي الفاتح، وفمٌ أحمر مُطبق. سيتلاشى بالتأكيد حماس كل مَنْ ينظر إلى هذه اللعبة المرحة مفرطة البراءة للقتال؛ ذلك أنَّ البالغين غالبًا ما تزول أحقادهم أمام لعب الأطفال إلا في حال كانت لديهم كراهية مرضيَّة للأطفال. لكن هذه، حسبما أرى، لم تكن مجرَّد دُمْية عادية، بل تمساح بلاكجاك اخترعته. لا أشير إلى لعبة الورق بل إلى الهرَّاوة، السلاح الفتَّاك الَّذي اكتسب سمعته الشَّائنة بسبب انحياز المافيا والشُّرطة السِّريَّة بالدَّرجة الأولى إليه. انتزع بُرادة الخشب والحشوة الإسفنجية ولا أحمل في العادة سوى الكيس الخارجي، لكن بسبب الهاجس الَّذي راودني هذا الصباح حشوت الدُّمية مسبقًا برملٍ من الشَّاطئ. ستحسُّ بمدى خطورتها إذا أمسكت بذيلها وطوَّحتها فقط، ذلك أنَّك قد تهشِّم جمجمة خَصْمك إن أجهزت عليه بكل قوَّتك. بالتأكيد لا داعي للهجوم بحماس كبير، إذْ تستطيع أن تؤذي دون أنْ تترك جرحًا ظاهرًا، وتلك هي ميزة الهراوة الكُبرى. بعد ذلك، فُكَّ طرفها وانثر الرمال حول الحديقة. فلن يخطر ببال أحد على الإطلاق، إن ثارت متاعب، أنَّ كيسًا على هيئة تمساح يُمكن استعماله كسلاحٍ قاتل.

تظاهرت أنِّي سأناول التمساح للمعلَّب المزيَّف ببعض التردد، ثُمَّ أجهزتُ على طرف ماسورة البندقيَّة من أسفل. كانت القوة التدميريَّة تفوق التصوُّر من حيث السرعة، فاصطدمت الماسورة بالإطار العلوي للنافذة، ووثبت العُلبة. صُعِق الطبيب، وندَتْ عنه آهةُ غضب. وفي الوقت نفسه، سمعت

صوت تنفيس يُشبه صوت الهواء الصادر من إطار درَّاجة مثقوبة. انطلقت الرَّصاصة نحو السَّقف لكن صوت اصطدامها كان مكتومًا. انتزعت البندقيَّة من قبضة الطبيب، لكنَّه دفع ذراعه خارج نافذة الرؤية حتَّى لا أهزمه. تشبَّث بوجنتي اليُمنى كأنَّها كعكة أرز، فهويت بحقيبة الرِّمال بقوَّة مفاجئة فوق قصبة ساق غريمي البعيدة. وانبعث صوت مكتوم ثقيل كأنَّ فأسًا صغيرة تقطع أشجارًا لم تنضج. زعق الطبيب وسحب ذراعه إلى داخل العُلبة، فأطلقت يغمرني العرق صيحاتٍ حادَّة. وبدأت أضرب على أُمِّ رأس الصندوق أحاول إيقافه ثُمَّ توقَّفت. لم أشأ إيذاء الصندوق. فواصلت ضرب قصبة ساقه البعيدة لكن بحذر أكبر هذه المرَّة (سأتورَّط في موقف مُعقَّد إنْ استطاع أنْ يمكث داخل المستشفى بحجَّة عظامه المكسورة). اعتصر الطبيب نفسه في كُتلة صغيرة وتجمَّد تمامًا مثل سلَّة النُّفايات كان قال إنَّها هو. ما كنت أتخيَّل أبدًا أنَّ ثَمَّة رجلًا يختبئ داخل الصندوق لولا تأوُّهاته مثل أنبوب فارغ. في البدء رمقت العُلبة بوجهٍ خالٍ من التعبير وقد ذابت شمس العاشرة الشَّاحبة التي تدفَّقت عبر النَّافذة في بياض الحائط المدهون بالملاط وملأت الغرفة، وفي داخلها بدت العُلبة مثل حفرة واسعة.

أعتقد أنَّني لو لم أكن من يكتب تلك الدفاتر الآن (إذْ لا يُمكنني أنا الآخر إلا أن أعترف بما في فروق التوقيت التي أشار إليها المعلَّب المزيَّف من تناقض) وأيًّا كانت هُويَّة من يكتبها، فإنَّ طريقته في تطوير مسار الحكاية شديدة السخافة. وما دام بلغ هذا الحدَّ فلن يخرج المشهد التالي عن مسارٍ واحدٍ لا ثاني له. ألتفت وأرمق المرأة. تُرى أي موقف سيُمليه عليها المؤلِّف الآن؟ ستوضح النتيجة ما كسبته أو خسرته جرَّاء تنازلي عن العلبة بالنظر

للطريقة التي ستتعامل معي بها، سواء أكانت مُفرحة أم مُحزنة. فعلى سبيل المثال، هل ستقابلني وأزرار ثوبها الأبيض مفكوكة أم مقفولة؟ كلَّا، ليس من الملائم أبدًا أن أجعل الأزرار مِقياسًا لموقفها. لكنَّها قد تنسى قَفْل الأزرار بسبب ما أصابها من ذهول، ومن جانب آخر قَدْ تُحكم قفلها كي تُقابلني بشكل رسمي وحتى لا تفوتنا طقوس فكِّها. هكذا تغدو قراءة مُحيَّاها أمرًا سهلًا دون ريب طالما أحافظ على مسافة الياردتين ونصف الياردة التي تفصلني عنها. وسأعرف لو بدا عليها الارتياح الَّذي لا يُمكن إنكاره في ملامحها المشدودة، أنَّ علاقتها بالطبيب كانت تقوم على النفور منذ البداية وأنَّني سوف أنقذها من استبداده وقمعه. لكن لو خافت من لقائي، فسأدرك ساعتئذٍ أنَّهما كانا متواطئين وأنَّ عليَّ الفرار من عرين الأسد هذا.

كفى. أيًّا كان ما كان فهو سخيف بدرجة لا توصف. ليس الكريه في الأمر هو الافتقار إلى المنطق بل على العكس، الكريه هو أنَّ كل شيء قد جرى بسلاسة بالغة. كانت الحقيقة أكثر تَشظيًّا، مثل أحاجي الصور التي ضاعت أجزاء كثيرة منها وامتلأت بشطحات من خيال. ورغم حقيقة أنَّني رُبما لا أكون أنا، لكن هل كان من الضروري بالنسبة إليَّ أنْ أواصل الحياة وأتحمَّل عناء كتابة هذه الدفاتر؟ رُبَّما أبدو مكرورًا، لكنَّ المعلَّبين ضحايا مثاليون. كان ينبغي أنَّ اقترح، لو كنت الطبيب، كوبًا من الشاي؛ لأنَّه حينئذٍ سيكون من السَّهل بالنسبة إليَّ أن أدسَّ قطرة سمّ. أم تُراهما... رُبَّما... أجبراني على احتساء كوب الشَّاي بالفعل؟ كنت أتساءل. رُبَّما شربت. ممكن. إذْ لم يكن هناك دليل قاطع على أنَّني لا زلت في قيد الحياة.

إقـــرار

البيانات سليمة كافَّة. وما دمت تسأل عن الجثَّة التي جرفها البحر عند حديقة طوكيو السَّاحليَّة، سأدلي طيَّه بشهادة مفصَّلة بكل إرادتي، ودون أنْ أُخفي شيئًا.

الاسم: س.

العنوان الدَّائم: محذوف.

المهنة: مساعد طبيب (تمرجي)

تاريخ الميلاد: 7 مارس/ آذار 1927.

اسمي الحقيقي «س»، لكن الاسم الكامل استخدمه حين أمارس الطبّ، والاسم المُسجَّل بديوان الصحَّة العامة هو اسم جرَّاح عسكري كان رئيسي حين التحقت بالجيش باعتباري فردًا بالفصيلة الطِّبيَّة أثناء الحرب. وقد استخدمته بإذن مِنَ الضَّابط آنف الذِّكر.

لم أُدْنْ بعد فِي أي جريمة جنائية قطّ، ولا خضعت لاستجواب الشُّرطة أو المُدَّعي العام كمُشتبَه به.

لَمْ أكن يومًا موظفًا حكوميًّا ولا تلقَّيت نوطًا يومًا؛ أو أموال إعانة؛ أو معاشًا.

لا أزال عَزَبًا، لكن في الحقيقة، فيما يتعلَّق بعائلتي، كنتُ أعيش حتَّى

السنة الفائتة برفقة زوجتي العُرفيَّة؛ «نانا»، التي ساندتني في شُغلي من خلال عملها كممرضة إلى جانب مسئوليتها عن الحسابات كافَّة. كانت «نانا» فِي الأصل زوجة شرعيَّة لطبيب الجيش الَّذي استعرت اسمه وهويته أثناء التدريب. ولم تتسبب علاقتي بها في أي مشاكل مع الطبيب؛ إذ كانت هذه العلاقة بعلمه ورضاه. وحتَّى العام الفائت لم يكن هُناك تنافر واضح بيني وبين «نانا»، لكن حين وظَّفت «توياما يوكو» كممرضة مُتدرِّبة، استاءت نانا واقترحت أن نعيش منفصلين. وافقت، وإلى الآن كان هذا ما نفعله.

أدَّيت واجباتي العسكريَّة كمجنَّد بالفرقة الطبيَّة أثناء الحرب، ثُمَّ مارست الطبَّ لحسابي الخاص مستفيدًا من تلك الخبرة. كنت أتمتَّع بسمعة طيبة بين المرضى ولَمْ أطلب قطُّ تعليماتٍ أو عونًا من طبيبٍ مُسجَّل. تتركَّز مهارتي الخاصَّة على نحوٍ جوهريّ بمنطقة الجراحة مثل استئصال الزَّائدة الدُّوديَّة. سأفكِّر في استعمال اسم آخر إذا اتَّهموني بممارسة الطب بشكلٍ غير قانوني. وأقدِّم تعويضات للعالَم وأعده بألَّا أتورَّط بالعمل الطِّبِّي مرَّةً أخرى.

الآن سأناقش أمر الجُثَّة، سبب الوفاة مجهول، وهذا ما تتساءل بشأنه.

حـالـة «س»

أنت تكتب الآن.

غُرفة مُظلمة حيث أُطفئت الأنوار عدا مصباح فوق طاولة العمل. ترفع رأسك عن الإقرار الَّذي تكتبه عند هذه اللحظة تحديدًا وقد أخذت

نَفسًا عميقًا. وحين تُميل، في الوضع ذاته، عنقك ناحية اليمين، يتخطَّى خيطٌ رفيعٌ من الضوء الحافَّة اليُمنى للطاولة. ويتسرَّب أسفل الباب شُعاع من الدِّهليز. سيُنقش ظلُّ من يمرُّ بالدهليز فوق هذا الشعاع شاء أم أبَى. تتريَّث، سبعُ ثوانٍ، ثمانٍ... لا أثر لأحد.

أخفقت طبقات الدِّهان في إخفاء خدوش السَّطح فوق الباب الأبيض القديم. تردُ إلى خاطرك، وأنت تحملق في الباب، أمور عِدَّة. ما الصوت الَّذي يجتذب اهتمامك الآن؟ هل هو خيالك ليس إلَّا؟ بلى، أنت تسمعه... هُناك... ها هو... من اتجاهٍ مُغاير. تُجيل النظر بالنَّافذة. مأوًى متنقِّل مِنَ الكرتون معمول بِدقَّة على مقاس المأوى الَّذي كان يلبسه المعلَّب الجالس فوق الفراش المجاور للحائط. تُرى، هل أخذ المعلَّب الحقيقي مسألة حضوره بعين الاعتبار؟ كلَّا؛ فالفسحة بين وقع خطواته قصيرة جِدًّا. ولا هي خطوات كلب أيضًا. يُحتمل تلك الدَّجاجة. تلك الدَّجاجة الغريبة التي تعلَّمت السير ليلًا بوقتٍ ما. تتسكَّع هُنا كل ليلة بحثًا عن الطَّعام. هل تُشكِّل دجاجة هائمة بليلٍ ظاهرةً مفرطة الغرابة أم لا؟ ولأنَّها تستأثر بكل الحشرات الليليَّة التي تدبُّ دون خوف، فأمامها وفرة من الطَّعام ولا بد أنَّها تتغذَّى جيدًا، لكنها مهزولة سقيمة. على مَن يُنعمون بمهارات استثنائيَّة سداد تعويض غير مُنتظر (تبدو كمَن يتلقَّى الآن درسًا من دجاجة).

تحاول رفع نصف كوب بيرة إلى شفتيك، وتقرر الاكتفاء بِبِلّ طرف لسانك. البيرة ماسخة وغير صالحة للشرب. مضت أكثر من أربع ساعات منذُ قعدت هُنا. ورُغم اقتراب نهاية سبتمبر، فإنَّ الطقس موحش. تمنع

العرق الَّذي يتدفَّق من منابت الشَّعر عند جبينك بقطنة منقوعة في الكحول وُتبلِّل شفتيك الدَّبقتين بلُعابك، لكنك تعجز تمامًا عن تشغيل المروحة أو التكييف. عليك ألَّا تفوِّت سماع أي خطوات قَدْ تدبّ. لقد صِرت متشككًا بصورة فظيعة.

يرقد لوح سميك من الزُّجاج فوق المكتب. فوقه شهادة نصف مكتوبة. الشِّهادة المتعلِّقة بالحادث الَّذي لم يقع بعد لكننا على يقين أنَّه سيحدث. تُنحِّيها جانبًا وتفتح دفترًا مِنْ قطع الرُّبع بسطور أفقيَّة برتقاليَّة اللون... مُدهش، لم أكن أعرف أنَّك جهَّزت دفترًا يشبه دفتري بالضبط. تقلب الغلاف في ذهول. تبدأ الصفحة الأولى بالجملة التالية:

«هذه مُدوَّنة معلَّب. أستهلُّ في هذا الوقت كتابة هذه المدوَّنة داخل عُلبتي. أنا داخل عُلبة كرتون على مقاس دماغي وتُغطِّيني كُليًّا إلى الوَرِكيْن».

«عِند هذه النُّقطة تحديدًا، المعلَّب هو أنا».

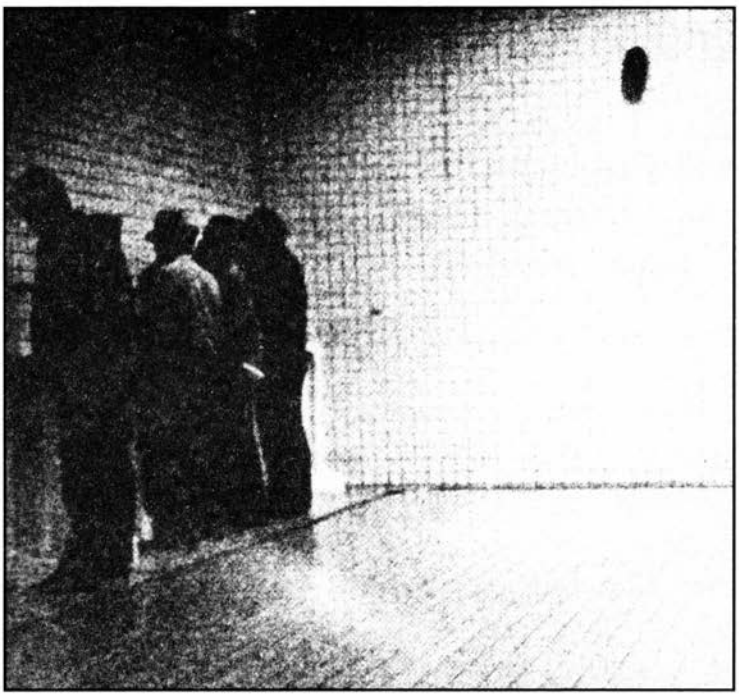

البلاطات البيضاء مرقَّطة ببُقَع بلون أوراق الأشجار الجافَّة وفيها حزوز غائرة للوقاية من الانزلاق. يتهادى برفق في تلك الحزوز خطٌ رفيعٌ من الماء، ويُشكل لفترةٍ قصيرةٍ من الوقت بركة صغيرة، قبل أن يتدفَّق مرَّة أخرى ويغيب وراء الباب.

تُقلِّب أكثر من عشر صفحات وتفتح عند صفحة فارغة. تُمسك قلمك الحبر وتتخذ وضعيَّة الكتابة، لكن تبدِّل رأيك وتلقي نظرة على ساعتك. بقيَت تسعُ دقائق على منتصف الليل. يوشك السبت الأخير في سبتمبر على النهاية. تنهض من مقعدك، القلم والدَّفتر في يدك. تمشي إلى الفراش. تُميل العُلبة وتستعد للنوم، تُنزلها من فوق دماغك من الخلف. تغدو والعُلبة فوق دماغك تكوينًا جلس على حافة فراش. من الواضح أنَّك اعتدت الدخول والخروج من العُلبة لحدٍّ ما. تعدلها حتَّى تصبح نافذة الرؤية صوب المصباح فوق المكتب. بَيد أنَّه لا يوجد ما يكفي من الضوء لتسجيل الملاحظات. تُشعل البطَّارية المُعلَّقة فوق نافذة المُلاحظة، وتسوِّي اللوح البلاستيكي الَّذي جهَّزته، وتبدأ تسجيل ملاحظاتك.

«ما يلي مُلخَّص الحادث: المكان مدينة طوكيو، الإثنين الأخير من سبتمبر..».

من الواضح أنَّك ترغب في البدء بتسجيل الأحداث الماضية لبعد غدٍ حين لم يكن قد حدث شيء بعد. لِمَ العَجَلة؟ أم لعلَّها ثقتك الكبيرة بنفسك هي ما يشدُّ أزرك؟ ولأنَّك تحاول بناء كرونولوچيا أحداث تكتبها بالفعل الماضي، فَمِن البَدْهيّ أنَّ تلك الأحداث كانت تجري بالفعل حين بدأت في قراءة تلك الدَّفاتر. كنت على خلافٍ مدركًا لنتائج تلك الأحداث؛ لأنَّك تمكَّنت من عملِ تقديرٍ واعٍ. بَيدَ أنِّي أودُّ أن أقرأ دفاترك؛ إذْ لا أصدِّق في وجود أي غاية واضحة أخرى للحادث سوى جلب الموت.

تبدأ الكتابة.

«ثَمَّة جُثَّة مجهولة جرفها التيار على مشارف حديقة ساحليَّة مطروقة. كانت الجثة تلبس فوق رأسها عُلبة مصنوعة من كرتون ومؤمَّنة بحبل مربوط حول وسطها. بالقطع كان مُعلِّبًا يهيم بأرجاء المدينة بوقت متأخر وسقط، بطريق الخطأ، في قلب قناة ما، فجرفت الأمواج الجثَّة إلى الشَّاطئ. لم يكن يحمل ممتلكات باستثناء العُلبة. أسفر التَّشريح عن تحديدِ وقتٍ مُحتمل للوفاة يقع قبل ثلاثين ساعة تقريبًا».

قبل ثلاثين ساعة... لقد كنت شديد الصَّرامة بهذا الشأن. ستلقي بنا تلك الساعات الثلاثون إلى اللحظة الراهنة تحديدًا، هذا إذا افترضنا أنَّ التشريح كان بوقتٍ باكرٍ من صباح يوم الإثنين. أو في غضون عِدَّة ساعات من الآن على أقل تقدير. من الواضح أنَّك أنت الآخر قد حزمت أمرك على مواجهة الموت. تغلق دفاترك في عُجالة، وتنزلق من فراشك وتبرُك فوق الأرض. اندفعت داخل العُلبة التي غطست بمحاذاة ظهرك. فراحت الأشياء داخل العُلبة تصطكُّ ببعضها البعض وتُصدر جلبة. يغمرك الارتباك، فتضم العُلبة إليك وترمي بصرك فوق كتفيك. ترفع عينيك لأعلى، وتعتصرُ أذنيك لعلها تلتقطان أي خشخشة وراء الجدران، أو فوق السَّقف. يرسم الخوف خطًّا مِنْ دِهان أسفل وجهك. يبدو دِهانًا سريع الجفاف، فتغطِّي وجهك تجاعيد تُشبه قماشًا رقيقًا. ينتابك اضطرابٌ بالغ. لِمَ لا تكون أكثر واقعيَّة؟ لن تفعل إلا ما تقوَى عليه، مهما حاولت.

تعتدل وتواجه الباب. تبدأ بالمشي. تحافظ على مرفقيك قريبين من جنبيك، وأصابعك كُلُّها، مطويَّة للداخل قليلًا. تمشي ثلاث خطوات فتخار قُواك.

تغيِّر اتجاهك وتسير أمام المكتب. تقعد، وتمسك رأسك بين كفَّيك. تنزلق الدَّفاتر التي وضعتها بين مرفقك وجانبك فوق المكتب في هدوء؛ ومن ثَمَّ يمضي الوقت بليدًا كما تظنّ.

أنت تُحملق الآن في حافة اللوح الزُّجاجي السَّميك فوق المكتب. زُرقة شفَّافة لا تنتمي لأي مكان، لا حِسَّ لها بالمسافة بين سطحيها. زُرقة خضراء لا متناهيَّة. لون خطر ملؤه غوايات التحليق الزرقاء. تغرق فِي الأزرق. وحين يغوصُ جسدك بعيدًا فيه عن الأنظار، تبدو وكأنَّك ستستمر في السباحة إلى الأبد. تتذكَّر المرَّات العديدة التي تعرَّضت خلالها لهذه الغواية. زُرقة الصحو مندلعًا مِنْ رفَّاص باخرة... الماء الآسن بمنجم كبريت مهجور... حُبيبات سُمِّ الفئران الزرقاء التي تُشبه حلوى الهُلام... الفجر البَنفْسَجيّ الَّذي تراه وأنت تنتظر القطار الأول دون وجهة مُعيَّنة... هو زجاج نظَّارات الحُبّ الملوَّنة التي توزِّعها جمعية مساعدة محاولي الانتحار، أو إن تشأ، النَّادي الرُّوحي للقتل الرحيم. زجاج مصبوغ بِغِشاء رفيع من شمس شتويَّة شاحبة يخلعه تقنيٌّ ماهر بحرص بالغ. أولئك الَّذين يلبسون تلك النظَّارات هم وحدهم من يستطيعون رؤية محطَّة النهاية التي ينطلق منها القطار ذو الاتجاه الواحد.

تستحوذ عليك العلبة حدَّ الابتلاع. رُبَّما سمَّمتك، وهي ليست إلا وسيلة. أسمعُ أنَّها في الحقيقة مصدرُ خَطرٍ لِلَّون الأزرق.

«لون المطر الَّذي يصيب الشحَّاذين بنزلات البرد. لون موعد غلق مصاريع المتاجر بممرات المترو. لون ساعة التخرُّج التي ربحها المرابي.

لون الغيرة المسفوحة فوق حوض المطبخ الفولاذي. لون أولى صباحات البِطالَة. لون حبر بطاقة الهُويَّة المهدورة. لون آخر تذكرة سينما اشتراها المرشح للانتحار. لون الثُّقب الَّذي نخرته ساعات من القلويَّة المنيعة كأنَّها إخفاء هوية أو سُبات شتوي أو قتل رحيم».

لكن حين أزحزح عينيَّ بضع بوصات، أراك بالفعل خارج الثُّقب. لست إلا مُعلَّبًا مزيَّفًا مهما تظاهرت بالجديَّة. لن تكون إلا نفسك. ترمق الآن تقويمًا مِنْ شركة أدوية كنت وضعته تحت اللوح الزُّجاجي فوق المكتب. مطبوع عليه شعارات شهريَّة: على الشِّمال؛ «موسم مُركَّبات الڤيتامين والكورتيزون»، وعلى اليمين؛ «سبتمبر ونقص انسجام الأعصاب اللاإراديَّة»، واستقرَّت بينهما العلامة التِّجاريَّة التي تصوِّر أبقراط بلون كريمي مُحاطًا بحكمة لاتينيَّة ما. يشدُّك الحَرْف الأحمر في الرُّكن الأيسر. الأحد الأخير مِنْ سبتمبر. اليوم السَّابق مُباشرة لليوم الَّذي ستنجرف فيه جثَّة الغريق إلى مشارف الحديقة السَّاحليَّة. في الغدّ. كلَّا، بل خلال بضع دقائق اليوم بالفعل. لن تختفي الكلمات المطبوعة مهما تحاول ألا تراها. فهي مثل تأريخك المكتوب في الزَّمن الماضي. تحطُّ كفَّيك المبسوطتين اللتين باعد بينهما عرضُ كتفيك فوق حافَّة المكتب. بلى، لا بأس بذلك. تنقل وزنك للأمام وتستند على مرفقيك. الآن تستطيع النهوض بيُسْر. من يُمكنه إيقاف الأشياء حين تبدأ؟

رغم ذلك، فإنَّ تِلك الشهادة غير المُكتملة هي ما يُزعجني. أتوسل إليك أنْ تتلفها وترميها قبل أنْ تغادر كرسيَّك. لو سارت الأمور كما خُطط لها، فإنَّ شهادةً كهذه سينتهي بها الحال كفيلٍ أبيض مهدور، أمَّا لو جرى العكس، فإنْ الموقف سيسوء كثيرًا عمَّا تصفُه.

إقــرار - يُتْبع

الآن، بالنسبة إلى حادث الجثَّة التي تستفسر عنها، أستطيع أنْ أقول لك بيقين إنَّ الجسد يعود للنقيب الطبيب الَّذي استعرت اسمه كي أمارس الطبّ. وقد دعوته نقيبًا طبيبًا لا بسبب رُتبته لكن بسبب استخدامي اللقب نصفَ مازحٍ على مدى سنوات طويلة، حتَّى صارت عادةً لازمتني. اسمح لي أن أدعوه هكذا. كان خطر انتحار الطبيب قائمًا منذُ وقتٍ مضى وأتأسَّف بِشدَّة لأنَّني تغافلت وأخفقت في منعه قبل أن ينتحر. يغمرني ندمٌ كبير. وألتمسُ مِنك فرصة كي أُفسِّر الموقف.

عُينتُ تمرجيًّا للطبيب العسكري في أحد المستشفيات الميدانيَّة قبل عام من نهاية الحرب. وقد اضطررتُ للمشاركة بنصيب كبير في فحوصات ومُعالجات المرضى؛ لأنَّ الطبيب كان مُنهمكًا آنذاك في أبحاثه عن إنتاج السُّكر مِنَ الخشب. كانت ذاكرتي قويَّة وأناملي خبيرة درجة تفوق المُعتاد لحُسن الحظّ، فاكتسبت القدرة على إنجاز جراحات مُعقَّدة لحدٍّ بعيد بإرشاد من الطبيب. اسمح لي أن أقول كلمة بشأن بحثه: خلال الحرب ظهر نقص كبير في السُّكَّر وصارت الحلوى باهظة الثَّمن، ولو كان قُدِّر له أن يستخرج السكَّر من الخشب لكان اكتشافًا يُفيد العالم. ذلك أنَّ الطَّبيب لاحظ أنَّ الماعز تأكل الأوراق؛ المُنتج الخام الَّذي تتألف منه الأشجار، فانقطع للبحث معتقدًا في ضرورة وجود إنزيم ما نشط داخل أمعاء الماعز يُحيل السيلولوز إلى نَشَا، وراح يسعى ليل نهار لفصل واستخراج هذا الإنزيم.

وفي يوم سقط الطبيب - لحظّه العاثر - مريضًا، لا أدري إنْ كان مردّ ذلك إصابته بالعدوى جرَّاء البكتريا التي تسكن أمعاء الماعز أم هو التسمُّم الناتج عن تذوُّق الخشب المُعالَج. كان مرضًا غريبًا: أصابته حُمَّى عنيفة طوال ثلاثة أيام متعاقبة، بعدها عانى تقلُّصاتٍ عضليَّةً حادة مصحوبة بتشنُّجات واضطرابات عصبيَّة خلال دورات امتد كُلٌّ منها ثلاثة أيام. أخفق الطبيب نفسه في تشخيص حالته ويَئِس زملاؤه من تعافيه. منذُ ذلك الحين وأنا أترقَّب صدور مطبوعة تتعلَّق بالموضوع بكل مرَّة تسنح لي فيها الفرصة، لكن ما مِنَ إشارة حتَّى لاسم المرض إلى الآن. كنتُ أحمل تعاطفًا عميقًا تجاه الطبيب جعلني أبذل جهدي في رعايته، لكن حالة الرَّجُل المريض تأرجحت دون تقدُّم شافٍ. ولا أزال أتحسَّر على هذا اليوم الَّذي عجزت فيه عن تحمُّل مشهد معاناته، وأمام اِستحلافه المتواصل لي بدأت بتدبير المُخدِّرات لأجله يوميًّا، فظهرت عليه أعراض الإدمان مع بلوغ الحرب نهايتها. على أي حال، لم أتخلَّ عنه وتمَّ تسريحنا من الجيش معًا.

عملت مع الطبيب بعد التسريح كي نفتتح عيادة شاركت فيها كمساعد في الترتيب والممارسة. لم تتحسَّن حالته الصحيَّة بالطبع، وفي الحقيقة كان عاجزًا بشكلٍ شخصيٍّ عن إجراء الفحوصات أو تقديم العلاج، بخلاف ما كان يقدِّمه لي من توجيهات عبر المُخطَّطات الطبية.

وما دمت تسأل، أودُّ أن أخبرك دون مواربة عمَّا دفعني للاستمرار في ممارسة الأنشطة الطبيَّة غير القانونيَّة، رغم معرفتي بأنَّها غير قانونية.

أولًا كانت هُناك ضرورة تفرض توفير مُخدِّرات الطبيب. وفيما يتعلَّق

بتلك النُّقطة لَمْ يكن هناك دخل لمسألة من مِنَّا الأعلى رتبةً ومن مِنَّا الأقل، فلم أكن مُرغمًا بأي حال. بل كان عملًا عفويًّا أدَّيته بدافع من الصداقة، وارتأيت أنَّه من الضروري أنْ أضطلع بالمسئوليَّة كلِّها. أمَّا بالنسبة إلى سؤالك عن أنَّه ألم يكن من الأجدى أن أولي اهتمامًا خاصًّا بعلاج مدمني المُخدِّرات، فإنَّني أودُّ أن أجيب بما يلي: كان ثَمَّة صعوبة بالغة في علاج إدمان الطَّبيب للمخدِّرات - إذْ كان مُختلفًا عن المرضى العاديين - فضلًا عن أنَّ المُعدَّل الفعلي للشفاء من الإدمان يكاد يقترب من الصفر. وهكذا في حين أدرك أنَّ توفير المُخدِّرات يغدو قتلًا رحيمًا بعد فترة ما مِنَ الزَّمن، إلا أنَّ نفسي لم تطاوعني فأتخلَّى عنه.

الأمر التَّالي هو أنَّني لا أستطيع أن أنكر حقيقة أنَّ مَعاشي كانت تكفله عباءة مؤهلات الطبيب المهنيَّة. بَيدَ أنِّي لم أستغل نقطة ضعفه، وهي اعتياده المُخدِّرات؛ إذ كانت الحسابات كافةً في قبضة زوجة الطبيب؛ «نانا» التي تورَّطتُ لاحقًا معها في علاقة حميمة. ورغم ذلك كان الطَّبيب يخشى أنَّ أتخلَّى عنه؛ لذلك لم يتوانَ عن الضغط بكل قوَّة على «نانا» كي تقيمَ معي علاقة تعمل كأداة تحُول بيني وبين أن أرحل. يغدو مثل هذا الهوَس ملحوظًا في كثيرٍ من الأحيان لا سيَّما بالمراحل المتأخرة من إدمان المُخدِّرات. ثالثًا، كنت أدرك أنَّ شهرتي التي تتنامى يوميًّا وبراعتي التى تلقَى اعترافًا، سببان جرؤت لأجلهما على الاستمرار في ممارسة الطبّ. لا يوجد بالطبع معيار موضوعي يمكن مِنْ خلاله تقييم تكنيكات طبيب مُحترف على وجه الدِّقة، وفي الحقيقة، كان استمراري - حسبما أظن - ينبع مِنْ عدم الإحساس بممارسة الدَّجل بشكلٍ سافر. لكن الأدْهَى هو أنَّ اهتمامي بالطبِّ راح

يتنامى بالتدريج، إلى جانب استيعابي جديًّا ودون توقُّف آخر المعلومات في كتب الطب والمراجعات المُتخصصة. لقد وفَّرت لي اثنتا عشرة سنةً من الخبرة والضَّمير والعقل المُتطلِّب، ثقة بالنفس تجاوزت مرحلة ما إذا كنت حاصلًا على رخصة من عدمه. وفي واقع الأمر، كثيرًا ما كنت أُصاب بالدهشة حين أفحص مرضى جاءوا لي من مصحَّات أخرى؛ بسبب التشخيص الخطأ وغير المسئول لهؤلاء الأطباء مِمَّنْ تخرَّجوا في الجامعة وكانوا طلابًا بليدين هُناك. على أي حال، لا أقصد بذلك تبرير جريمتي؛ فأيًّا ما كانت أسبابي، من غير المسموح أن نتجاوز القانون.

وقعت نقطة تحوُّل مهمة خلال العام الثَّامن. إلى ذلك الحين كنتُ جعلت الطبيب يتولَّى مسئولية الاتصالات الخارجية، مثل حضور اللقاءات الطبيَّة. لكن سلوكه وكلامه غير الطبيعيين بدآ في لفت الأنظار تدريجيًّا فضلًا عن الإساءة إليه والتشهير به، بما في ذلك طرح مسألة أنَّه مجنون، وهو الأمر الَّذي كان يُلقي بظلاله علينا. إضافةً إلى ذلك كنت أشعر بالخطر جرَّاء التحقيق معنا حول الكميَّة المفرطة من المُخدِّرات التي كُنا نستعين بها. وهكذا بعد أنْ سيطرنا على الأمور بمساعدة الطبيب أغلقنا العيادة وانتقلنا إلى هنا في هذه المدينة. هذا هو سياق الأحداث حتَّى اللحظة.

لكن حالة الطبيب الذِّهنيَّة ساءت بدرجةٍ أكبر بسبب هذا الموقف. إذْ سَئِم الحياة وأعلن رغبته في الانتحار. وبناءً على اقتراح من «نانا»، توقَّفنا عن السماح له بالظهور علانية ولو بالأحداث الخارجيَّة وقررنا أنَّه من الضروري أنْ أنتحل اسمه. ورغم أنَّه كانت هُناك بعض التعديلات الشَّكليَّة

في البِنْيَة الخاصة بنا، فإنَّ الموقف الحقيقي ظل دون تغيير، بل كان الطبيب على توافق تام مع الخطَّة. ولحسن الحظّ كانت ثقة المرضى فيَّ قويَّة هنا أيضًا، بل أستطيع القول إنَّني كنتُ على ثقة كبيرة من أنَّه لَنْ تُرفع عليَّ دعاوى ضرر ولَنْ أُلاحق قضائيًّا وإن تأكد النَّاس من زيفي. ففي حال اتفقنا على أنَّ المتضرر الَّذي لا يعي أنَّه متضرر ليس متضررًا؛ فإنَّني أودُّ القول إنَّه كذلك كنتُ أنا؛ فلا أنا أحسست يومًا أنَّني أوذي أحدًا ولا تسببت بضرر لأحد، ورغم ذلك لا أظنُّه من الصحيح أن نتجاوز القانون. فلا يجوز لي أن أتعدَّى على القانون ما دام يحميني ويحمي ممتلكاتي باعتباري مُواطنًا في الدولة.

نبلغ الآن السنة الأخيرة. كنتُ قد شرحتُ سلفًا كيف ألحقتُ ممرضة مبتدئة بالعمل معي وكيف صار هذا سببًا في انفصالي عن «نانا». سوى أنَّني كنت أُبلغها الإيرادات والنفقات كافةً وأُبقي على اعترافي بحقوقها كشريك بالإدارة. إلى ذلك، افتتحت «نانا» مؤخَّرًا مدرسة للبيانو في المدينة راحت تمرِّن فيها الطُّلاب على العزف؛ لهذا أرجو منك الاعتراف بعدم وجود أخطاء في شهادتي بعد الحصول منها على مزيدٍ من التفاصيل عن الوضع.

ما من سبب مباشر يخطر ببالي الآن دفعَ الطبيب للفرار من المستشفى واختيار الموت في عُزلة. لقد استخدم حُجرة بالطابق الثَّاني، لكن من غير الممكن أن نفترض أنَّه مسئول عن تصرفاته كافَّة. كان يمضي للفراش ويصحو في مواعيد متفاوتة وكثيرًا ما كان يستخدم سلَّم الطوارئ في

الحضور والذهاب كما شاء. ولا بد أن أحكي هنا عن نزاع صغيرٍ شبَّ مؤخَّرًا. ذلك أنَّ الطبيب أظهر هوَسًا مرضيًّا بالحلوى مُتذرِّعًا بالحنين إلى بحثه القديم الَّذي كان ينتج فيه السُّكَّر من الخشب، وقَدْ حاولت التخفيف من هذا النهم حفاظًا على صحَّته فأصابه غضب عارم. على أنِّي لا أصدِّق أنَّها كانت السبب في موته؛ إذْ ما دامت الجثَّة كانت تلبس عُلبة كرتونْ فوق رأسها، فمِنَ المتصوَّر، حسبما أرى، أنَّه لم يكن يعتزم الموت في الأصل. بل رُبَّما انزلق ببساطة أثناء سيره فوق الجسر الَّذي كان لا يزال طريًّا جرَّاء مطر البارحة.

تسأل أيضًا لِمَ كان يلبس كرتونة فوق رأسه. لا فكرة لديَّ على الإطلاق. طوال شهور عديدة راح المنبوذون يهيمون بأرجاء البلدة يلبسون عُلبًا من الكرتون، وثَمَّة شهود عيان. أمَّا إنْ كنت تسأل ما إذا كان الكرتون هو تنكُّر من الطبيب، فلا أستطيع أن أتمادى وأنكر احتمال أنَّه رُبَّما كان يتخفَّى دون أنْ أدري. لقد كان الطبيب يعتقد أنَّه تنازل لي عن شخصيته إلى جانب اسمه وعنوانه ورخصته وصار عدمًا. كما أنَّه لا يصعب أن نفهم سبب إحساسه حين خرج أنَّه يُحاول إخفاء نفسه من خلال وضع عُلبة فوق دماغه؛ إذ كان قد أُصيب بكراهية شديدة للبشر. وقد بيَّنت نتائج تشريح الجُثَّة تقرُّح الندوب الناجمة عن إبر الحقن في باطن الذِّراع وفي الفَخِذَيْن. وعندما يبلغ الإدمان هذا الحدَّ يغدو مثل هذا السلوك الشَّاذ أمرًا غير مُستغرَب.

لقد رأى شهود عيان مُعلَّبًا يدخل ويغادر المستشفى، ومِنْ شهادتهم والندوب التي خلَّفتها طلقات الرَّصاص منذُ فترة طويلة، فإنَّ صلته بالمستشفى

محلُّ شكّ. لذلك اُستدعيت. ولولا شاهد العيان لكانوا تخلَّصوا من المعلَّب باعتباره جثَّة مجهولة الهُويَّة. هنا يجب القول أنَّني كنت سأجد أي انتقاد يوجَّه لاستمراري في الممارسة غير القانونية للطبِّ دون أن أكشف عن ذلك، أمرًا مثيرًا للأسف. وكُنَّا، أنا والممرضة، قد تعهدنا بألَّا نزور حُجرة الطبيب إلا إذا رنَّ الجرس، وكَمْ من نهاراتٍ كاملةٍ مضت دون أن يدقَّ هذا الجرس. حتَّى أصابنا الشكُّ في وقت متأخر من ليلةِ أحدٍ فتحققنا من حُجرته واتفقنا على أنَّه إن لم يعُد حتَّى الفجر، فلا مفرَّ بالتأكيد من البدء في عملية بحث مع الشُّرطة حتَّى ولو افتُضح أمر أنشطتي الطبيَّة غير القانونيَّة.

كان الطَّبيب يرفض بقوَّة، أكثر من أيِّ شخصٍ آخر، أنْ أتخلَّى عن عملي كطبيب. فمِنْ ناحية، كان يجتهد في تملُّقي بل وتهديدي بإيحاءات مكرورة أنَّه قد ينتحر في حال توقَّفت عن ممارسة الطبّ. ودهاء مُدمني المُخدرات وتهوُّرهم من أجل الحصول على المُخدِّر أمران معروفان جدًّا. كان انتحار الطَّبيب في الواقع مشكلة كبيرة. إذْ ستحمل شهادة الوفاة في حال نجحت في استخراجها، الاسم واللقب اللذين أحملهما، وآنئذٍ لنْ أتمكَّن إلا نادرًا من تقديمها للمكتب الحكومي. لذلك كنت أُضطر مرَّة تلو الأخرى إلى أن أستحلف الطبيب بأدبٍ بالغ كي ينحِّيَ جانبًا فكرة الانتحار. لكنه كان على العكس تمامًا، يطالب بكميات أكبر من المُخدِّر. أمَّا بالنسبة إلى أوامره المُستبدَّة كي أتركه يتملَّى جسد الممرضة المبتدئة حديثة الوصول؛ «توياما يوكو» العاري، بل إقناعها أن تعطيَه حقنة شرجيَّة وهي عارية، فقد كانت سببًا لمخاوف ضخمة بالنسبة إليَّ. لم أكن أكرهه؛ ذلك أنَّ الأصحَّاء

لا يدركون الآلام التي يُعانيها المرضى؛ لهذا أرى أنَّه من الضروري أن نتعامل معهم دائمًا بأكبر قدر ممكن من الرأفة.

كان قد مضى وقت طويل منذُ استغنى الطبيب عنِّي، فلم أجد ما يضطرني إلى الاستمرار في خداع العالم وممارسة عمل طبِّي غير قانوني من الآن فصاعدًا. إذْ تسبب الممارسة غير القانونيَّة للطبِّ متاعب للمريض، اقتصاديَّة وبدنيَّة. كانت وجهة نظر الطبيب أنَّه لا جريمة بلا صاحب حقّ، لكنني كنت أعتبر أنَّ انتحال صفة طبيب جريمة في حدِّ ذاتها، وقدْ أمعنت التَّفكير جيدًا بهذا الأمر. لذلك أحبُّ أن أنتهز هذه الفرصة كي أكشف النقاب عن كل شيءٍ وأضع حدًّا للمسئوليات الجسام التي كنت أحملها بقلبي منذُ أمدٍ بعيد.

كل ما سلف حقيقي تمامًا.

ليس على الجلَّاد إِثْم

من الواضح أنَّك قررت أخيرًا أن تقوم بعملٍ ما. الصَّوت المعدني الغامض الَّذي أسمعه الآن هو صوت حُقنة توضع داخل جهاز تعقيم. أستطيع تمييز هذا الصوت من أي مسافة. مثل جُرْذٍ صحراوي يُلاحق رائحة الماء من مسافة ستة أميال.

أواصل... تبدو الكَوَّة في مصطبة الدَّرَج كأنَّها تُخشخش في الرِّيح...

ما مِنْ خطأ... إنَّه الصَّوت الوحيد الَّذي أتمكَّن من سماعه في تلك الأوقات حين ينفتح باب حُجرتك وينغلق. أسمع... صوت قدميك الحافيتين تدوسان بحذر في الرُّواق المطلي بالبلاستيك. تجيء ببطءٍ بمُعدَّل خطوة كل ثانية. بالطبع، رأسك مُغطًّى بالعُلبة تمامًا. يتبدَّل الصوت مع الخطوة الحادية عشرة وتبدو كأنَّك تدوس فوق سجَّاد مُبلَّل. أتخيَّلك الآن وقد وضعت قدميك على الدَّرج للتوّ. تتسلَّق، خطوة فأخرى وبالتدريج تتباطأ سرعة تقدُّمك. تصلُ سريعًا إلى المصطبة وتتوقَّف برهة، عندئذٍ توارب عُلبتك وتتطلَّع إلى أعلى. تتبِّع الدرابزين بمحاذاة الرُّواق بالطابق الثاني، تبلغ حُجرة صغيرة وراء بئر السلَّم في نهاية الرُّواق. الباب عبارة عن ألواح ملمَّعة من خشب السَّرْو، لا يمكن تمييزها عن الحيطان على الإطلاق، وتمنح الممرَّ الضَّيق إحساسًا بالاتساع.

مشرحة.

لا تبدو الحجرة مُختلفة لأنَّها تضمُّ جثثًا؛ بل تبدو كحجرة عاديَّة احترامًا لمشاعر المرضى الَّذين يترددون على المستشفى (أو أولئك الَّذين قضوا بعض الوقت بين جدرانها)، لا سيَّما مرهفي الحسِّ منهم تجاه الموت. إلى جانب أنَّ مَخرَج الطوارئ قريب وملائم لنقل الجثث للخارج.

بالطبع، لم أصبح جُثَّة بعد. لا أشعرُ بمرح كبير، لكنني لا أزال حيًّا. وسبب وجودي داخل المشرحة أنا الَّذي لا يزال حيًّا - ينبغي أنْ أشدد على هذه النُّقطة بقوَّة كرْمي لك - ليس المعاملة المُعتادة التي تحظى بها الجثث بخاصَّة، بل لأنَّني طلبت البقاء هُنا. أحبُّ هذه الحجرة. كما يتناسب عدم

وجود أية نوافذ مع حالتي المزاجيَّة الرَّاهنة بشكل شديد المثالية. لَقَدْ تدنَّى العمل التنظيمي لتلاميذي مؤخَّرًا بصورة ملحوظة، وضوء النَّهار يُصيب عينيَّ بوخزٍ خفيف كأنَّ رمالًا هيَّجتهما. لم يعُد عندي أي ردود أفعال بشريَّة دفاعيَّة كمشاعر الغضب والاستياء والكراهيَّة، كما أشعر أنَّني على راحتي تمامًا في هذه الحجرة التي تتطابق مقاساتها كُليًّا مع تابوت... فارتفاعها ضِعْفَا ونصف عرضها.

تبدو هامدًا منذُ جئت إلى هذه الحجرة. وأعتقد أنَّه مثلما أُفتِّش أنا عن دلائل عليك على الجانب الآخر من الباب؛ كذلك أنت الآخر تفتِّش عن دلائل عليَّ. رُبَّما لو كان الباب حيًّا كان أطلق ضحكة قويَّة سخريَّة مِنَّا. أتفهَّم ترددك على أي حال. لكن عليك أن تفي بواجبات الجلَّاد رغمة الظروف كافَّةً ومهما كان قدر تعاطفك معي. من الطبيعي أنْ ينقبض صدرك. فحتَّى أنا، إن تبادلنا موقعينا، كنت سأرتعد وأتردد. بل إنَّ من تقتله يعلم تمامًا أنَّه يُقتل. لا تستطيع أن تثرثر على راحتك مع شخص تؤذيه ويُدرك أنَّه يتعرَّض للقتل. تُرى هل ستشعر بارتياح أكبر إذا تجادلنا عن الموت بدلًا من تبادل حديث قصير عنه. رُبَّما لن يُفلِح ذلك. السِّجَال أكثر بشاعة. على أي حال، سرعان ما سيبلَى نسيج أعصابنا ونحنُ نتبادل النظرات في صمت قبل أنْ تُطلق دارة كهربائية قصيرة تحرقنا تمامًا.

أفضل شيء بالنسبة إليك هو أنْ أسقط بالنوم سريعًا. آنئذٍ عليك أنْ ترسلني بسرعة أثناء نومي إلى ذلك العالم الآخر. لكنَّك تعلم صفعة المُدمن الخفيفة. ذلك أنَّ المُدمن رغم أنَّه يظل تائهًا طيلة الوقت، فإنَّ نومه لا يكون

عميقًا. وأنت لست بهذه الحماقة كي تتوقّع مني أن أنام بعمق. لستُ نائمًا في الواقع. أقعدُ فوق الفراش دون أن يتوقّف قلمي. أمسح الإفرازات من عيني بحَمْض البوريك، لن ترغب أن تراني في هذه الحالة. لكن قد تسترسل. قبل أنْ تلمس يدك مقبض الباب... وبمجرَّد أن تكشف عن دلائل على الحركة خطوة واحدة مِنَ الجانب الآخر... أتظاهر بالنوم. أظنُّك ستنتبه على الفور إلى هذه الحيلة، على أنَّك ستكون على راحتك أكثر مما لو كنت نائمًا بالفعل. قد أستيقظ لو كنت قد نمت فعلًا في حين لن تضطر للقلق في حال كان نومك مصطنعًا. على أي حال، قبل ذلك سأرمي الدَّفاتر على الأرض وأجتذب انتباهك وأدعك تعرف أنَّني في نومٍ مُختلقٍ واعٍ. سيكون الجاني الرئيس المسئول عن قتلي دائمًا هو أنا، أمَّا أنت فلست إلاّ متواطئًا. لن أحمِّلك المسئولية وحدك أبدًا. ولأنَّ كل الأوقات مناسبة كغيرها فأنا أريد منك أنْ تبدأ. حتَّى في هذه اللحظة تحديدًا، لا فرق. سأضع نهاية لهذه الدَّفاتر ما إن تبادر بعملٍ ما.

مكتبة
t.me/soramnqraa

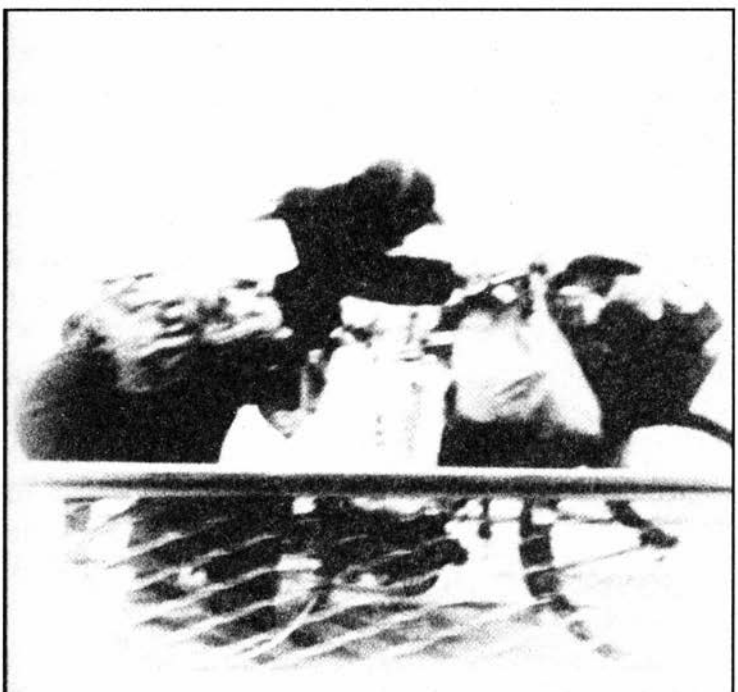

ها هُنا مدينة المُعلَّبين. إخفاء الهُويَّة فريضة على القاطنين، وحقُّ الحياة هُناك مكفولٌ فحسب لأولئك الذين لا هوية لهم. أمَّا المُقيَّدون في السجلات، فعقابهم الوحيد أنَّهم مُقيدون في سجلات.

سأتركُ لك ما يُشبه بَيانًا موجزًا بعد الوفاة إن ترغب. لا أجد هذا البيان ضروريًّا إلا أنَّه قد يمنحك شعورًا ما بتحسُّن طارئ. رغم ذلك، من السخيف أن تُتهم بارتكاب جريمة تُسمَّى المساعدة على الانتحار. معظم النار من مُستصغَر الشَّرَر. رُبَّما يكون من المناسب أن أفصل السطور القليلة التَّالية (وأقفل عليها داخل كيس بلاستيك كي لا تتبلل) ثُمَّ أربطها بأصابع الجثَّة. لكن مهلًا. كلَّا، ليس بالأصابع بل بمكانٍ ما يسهُل للجثة تعليق هذه الدفاتر فيه. آه، تُرى ماذا لو ألفُّها حول عنقي؟ كلَّا؛ فما دمنا نريد أنْ يبدو الحادث كأنَّه موت عارض فسأخفيها بركنٍ ما داخل هذه الحجرة، حتَّى تصل إلى هنا سلطات التحقيق المتشككة بطبعها. سأدسُّها داخل صامولة السرير، هكذا لن تكون واضحة للعين من أول وهلة، وفي الوقت ذاته يكتشفونها على الفور دون جهد يُذكر. أمَّا باقي الدَّفاتر، فسأحرقها بالطبع.

لقد اخترت الموت بنفسي. وستكون حماقتي هي المسئول الوحيد في حال أسفرَتِ التحقيقات عن وقوع جريمة...

كلَّا، ليس من الحكمة أن أُفرِط في الاعتذار في هذه السُّطور. سأغرس بذور الشَّك في الواقع إن أنا فعلت ذلك. من الأفضل أنْ أكون أكثر مُباشَرةً.

كنت مصممًا على الموت. ولِنكفَّ عن رياء الأمل عند هذه النُّقطة. فالحلوى تظل صلبة حتَّى تضعها في فمك وتبدأ في مصِّها. لكنك ترغب في أن تسحقها مرَّة واحدة. لكن انتبه: لا تعود قطعة الحلوى إلى سيرتها الأولى حين تنكسر.

تُرى هل أبدو كأنَّني لا أزال أحمل تعلُّقًا راسخًا بالحياة؟ تنفضح مشاعري الحقيقيَّة دون إرادة منِّي. لكن لا فائدة من القلق؛ إذْ يبقى التعلّق تعلُّقًا. وعقلي يعي جيدًا ضرورة ألَّا أواصل الحياة أكثر. مِنَ المُدهش أنَّني لا أزال بكامل قواي العقلية. لكنه عقلٌ هشٌّ كقلعة مِنْ رِمال على ساحل البحر بدأ المدُّ المرتفع في محوها. وستختفي دون أثر بعد موجتين أو ثلاث موجات كبيرة أخرى. أُبدِّل رأيي فورًا، ويغمرني إحساسٌ شَرِه بأنَّني سأقاوم الموت. أولًا سأتودَّد للمرأة بوقاحة وإنْ رفضتني (وسترفضني) سأقتلها وسأستمتع بالتهام جثتها طوال أيام. هذا ليس مجازًا، بل سأضعها حرفيًّا داخل فمي، وأمضغها، وأتلذَّذ بها فوق لساني. لقد حلمت فعلًا أنَّني آكلها مرَّةً تلوَ الأخرى. لن أطبخها طويلًا، فلا بأس بنصف تَسوِيَة. هي مطيعة، ولن تزول ابتسامتها حين تغدو لحمًا يؤكل، وسيغدو مذاقها شيئًا ما بين لحم العجل والطيور البريَّة وسيكون شهيًّا. من الواضح أنَّ مشاعري نحوها قَدْ تقلَّصت وهي تدور الآن حول شهوة الطعام. لكن إذا استشرت تلك الشهوة لحد التهامها، آنئذٍ لن أستطيع تجنُّب التعلّق بالحياة، سواء شئت أم أبيت. وهكذا أتمنَّى لو وضعت حدًّا لحياتي وعقلي على حاله من النشاط. لا ريب أنَّ الانتحار فعل نبيل، لكن ما دام فعلًا فإنَّه لن يتحوَّل إلى واقع عبر العقل أو التمنِّي وحدهما. فقد يتحوَّل قليل من التعلُّق؛ أو قليل من الرغبة، إلى مبررين للتردد. أستطيع ألَّا أدَّعي أنَّني أضرب عُرْض الحائط بيد العون التي تمدُّها لي على الأقل. لذلك أتوسَّل إليك، ألنْ تساعدني من فضلك حين أطلب المساعدة؟ فهذا لأجلك ولأجلي.

ما المشكلة؟ لِمَ هذا البطء الشَّديد؟ لقد وعدت أنَّني سأتظاهر بأنَّني كنتُ نائمًا، أليس كذلك؟ إنْ لم تسرع سأتحوَّل لقطعة خشب أو حجر. أظن أنَّك غادرت دون أنْ أنتبه إليك (ورُبَّما لا. فلَنْ تستطيع التسلُّل أكثر مِما كنت حين جئت).

«ألا زلت موجودًا؟ أجبني إنْ كنت موجودًا. ما رأيُك لو دخلت فحسب؟»، حاولت أن أناديك عبر الباب، مُعتصرًا أحبالي الصوتيَّة المنتفخة لأقصى حدّ.

وما مِنْ مُجيب. ولا حتَّى إشارة تدل على حركة. صار سكون الليل وجعًا كأنَّ لوحة معدنيَّة صفعت وجهي فراح يتردد صداها عبر طبلتَي الأذن. تُرى هل أخطأت؟ باتت خشخشة الكوَّة فوق الدَّرَج وصرير الرُّواق كأنَّ ثَمَّة مَن يُجفف الأخير بممسحة رطبة. رُبَّما تردد الصوت بسبب الرياح الجافة المفاجئة التي جاءت عاصفة من الجبال بعد ثلاثة أيام متعاقبة من الأمطار المتواصلة. إلى ذلك، بلغت الأحوال حدًّا لا أستطيع معه ألَّا أصل إلى استنتاج طائش. على أي حال، لمْ ترسلها لي الليلة. لا بد أنَّ جسدها العاري كان عنصرًا أساسيًّا للمساومة كي أواصل الحياة حياتي؛ ذلك أنَّني لن أنتحر ما دمت أراها. تتمُّ قريبًا عشرة أيام منذُ بدأت في تجهيز العُلبة (تابوتي) وما دامت لم تكشف وجهها، فلا مناص من القبول بحقيقة أنَّ التجهيزات قد اكتملت أخيرًا وأنَّ عقوبة الإعدام قد صدرت. ورَغم أنَّ الإشارات وراء الباب قادتني إلى استنتاج متهوِّر، فإنَّ حضورك كان مسألة وقت.

بعد برهة ينفتح الباب بهدوء وثبات، فأتظاهر بالنوم على الفور. لا داعي إلى أن أزعج نفسي بالتحقق؛ إذ ما من شخصٍ غيركِ يمكنه أن يفتح الباب بمثل هذا الهدوء. أستمر بالنوم المُصطنع. تكتمين أنفاسك قليلًا حتَّى تألفي الرائحة النَّتِنة هُنا، وقبل أنْ تبدئي بالتنفُّس مرَّة أخرى، تبتلعين ريقك. تنزلق كُتلة مِنْ ثلج بحجم إبهام كانت قد علقت بثديك بوصة أو بوصتين إلى الأسفل. تخلعين العُلبة، ثُمَّ تضعين حاوية ماء بلاستيكيَّة على الأرض أثناء تفحُّصك الحجرة الطويلة الضَّيقة التي بلا نوافذ، وتصيبك الدَّهشة مرَّةً أخرى من قدر التشابه بينها وبين تابوت. بالنسبة إلى الضوء، لا يوجد إلا عمود فلوريسنت ثلاثين واط مَخْبوء داخل السَّقف. ثَمَّة شريط دَبِق لاصطياد الذُّباب مموَّه مثل زهرة صناعية مُعلَّق عند أحد طرفَي العمود. في منتصف الحجرة بالضبط، تحت الزَّهرة الصناعية مباشرة؛ كالقلب، سرير المستشفى الحديد. أنام مثل قطعة هُلام وكأنَّني أوشك على السُّقوط منه. تصيبني تبعات كل نفس التقطُّه بارتعادة كأنني كومة جَلِيد ذائب. وكان جسدي يُشبه لوح تزلُّق لَمْ يُبع فوق طاولة سمَّاك. كان الكيمونو الليلي المخطط بخطوط رأسية مفتوحًا من الأمام، وفوق بطني، منشفة بلون الأسبراجسْ المغلي نُقشت عليها وردة باهتة من كثرة الغسيل. ثَمَّة شُعيرات متناثرة على السَّاقين البارزتين من تحت المنشفة، رطبتين كأنَّهما حبَّار مُقشَّر طازَج. ومع أنَّني أحاول طرد الهواء الَّذي أستنشقه من أنفي عبر فمي المُغلق، فإنَّ شفتيَّ كانتا ترتعشان مثل صمامات مطَّاط سميكة. تتشبَّث كريستالات الأمونيا والميثان بالصمامات المطاطيَّة وتتألق كأنَّها ثياب راقصة. كانت أعضائي الدَّاخليَّة تبدأ بالتحلُّل شيئًا فشيئًا بكل مرَّة أنام فيها. لكن رغم ذلك،

لن أصبح جنّة. تمسكين أنفك، وتنساب دموعك لأن المواد المتحللة بالعرق المؤكسد تحرق عينيك. تعجزين عن تحمُّل ذلك زيادة. ألم أكن أقول دائمًا إنه ما من داعٍ للاستمرار في الوجود؟ فقط فكّري في القاتل باعتباره شخصًا يتأكّد من تقدُّم عملية التحلُّل – وهذا حقيقي.مكتبة سُر مَن قرأ

تحاولين لكز كتفي على خفيف، وأستمر بالتظاهر بالنوم. تلفّين شريطًا مطاطًا حول أعلى ذراعي اليسرى وتصنعين بمبضع جُرحًا صغيرًا بباطن المرفق بحثًا عن وريد. لن تستطيعي غرس إبرة مباشرة بشكل جيد بسبب قُرحة تكوَّنت فوق جلدي. الجلد شاحب ولا تخرج منه سوى كمية ضئيلة من الدماء. تُمسكين الوريد بقطنة ماصَّة وتغرسين الإبرة. يتدفّق دَمٌ أسود ثقيل إلى داخل المحقن. المكبس مسحوب إلى الآخر حتّى التدريج نمرة عشرين، لكن لا يوجد في داخله إلا ثلاثة سنتيمترات مُكعَّبة مِنْ هيدروكلوريد المورفين. تفكّين المطّاط حول أعلى الذِّراع وتحقنين السنتيمترات الثلاثة. حتّى وإن أفقت خلال العمليَّة (وهذا مستحيل لأنّني بالأساس أصطنع النوم منذُ البداية) فبإمكانك أن تختلقي ما تشائين من تبريرات دفاعًا عن نفسك، كأن تدَّعي مثلًا أنّك تحقنيني بالمورفين بسبب صعوبات في التنفُّس أو ما شابه. تتسارع أنفاسي على الفور وتتراخى ملامحي المستريحة ثُمَّ تظهر أمارات الموت حول فمي. تدفعين المحقن أكثر فلا يندفع إلا الهواء. يتمدد الجزء المكشوف من وريدي كمثانة سمكة. تسحبين الإبرة وتُغطين الجرح بلاصقة طبيَّة وتضغطين بقوَّة عليه براحة إصبعك. سأتجاهل خشونة معاملتك لي ما دام لا الشفاء ولا الإصابة بالقروح يشغلانني. كما أنَّه من الوارد أنَّ أكون غارقًا بالفعل داخل حلم؛ لذلك سيبدو قطع إصبعين لي مثل مضغ

سُجُقّ مُتبَّل جِدًّا. فجأةً يتبدَّل تنفُّسي بشدَّة مرَّة أخرى. يضطرب ويتسارع. يخشخشُ داخل حلقي كقطَّة تموء، وبغتةً ينقطع مرَّة وإلى الأبد. فِي الحلم، أقفُ عند مدخل مدينة بلا ظلال، ثَمَّة عددٌ لا متناهٍ هُنا من الأقواس المُشيَّدة التي تشعُّ نورًا. أضحكُ بجنون حين أُهرع خلالها، ويطفو جسدي خفيفًا في الهواء وتتلاشى ظلالي ومعها وزني. تصطكُّ أسناني وأنا ممدَّد في الفراش، يثبُ نصفي السفلي إلى أعلى (مثل سمكة تثبُ خارج الماء) فتصطكُّ ضروس الفراش معي هو الآخر. يُطقطق ألف زنبرك لكل منه رنين مُختلف مثل خشب جاف داخل مدفأة. يختلط الصرير داخل الحلم ويتردد صداه بين غابة الأقواس، ويبدأ في عزف ترنيمة جنائزيَّة لأجلي. وفيما أحلِّق في دوائر وذراعاي تعانقان ركبتيَّ، أشعر بابتهاج هائل وبعضٍ مِنْ رقَّة العاطفة. أرى صورة مُقرَّبة لها وهي تنتحبُ لأجلي. وتغدو رائحة الشتاء هي، كما يفعل شجر الصَّنوْبَر اليافع. ينفتح ثُقب في الهواء حين أمدُّ أصابعي ويصبحُ شَرَجًا. أختنق. ويتدلى لساني حين أفتحُ فمي بسبب الضَّغط شديد الانخفاض في الخارج ولا يعود لوضعيته الأولى. أكاد أُقحم لساني المنتصب في شرج الهواء، فيُظلِم الحلم، وينقطع، وأموت.

***

تجيئين زاحفةً فوقي. تمسكين في يدك حاوية الماء وتضعين ردفيك فوق صدري ويطرد ثقلك أنفاسي التي تتحوَّل نهاياتها إلى صوت يُشبه تهشُّم بيض سمكة... فوتْ... فوتْ... وبعد أن تُفرِغي الرئتين تضعين قمعًا ضخمًا داخل فمي وتدلقين محتويات خزَّان. في الوقت نفسه ترفعين وركيك

وتقلِّلين من وزنك فوقي. فِي الخزَّان ماء بحر. تتراقص دوَّامات صغيرة فوق سطح الماء داخل القُمع الَّذي تسدُّه بقايا أعشاب بحريَّة. وحين تزيلين السدَّادة يتردد صوت يُشبه المصمصة بضرس مسوّس، ورُبَّما غمر ماء البحر فمي. في حالة كهذهِ، من الجيد أنْ ترفعي وركيك بسرعة أكبر. تصل الحاوية سَعَة رُبعَيْ جالون إلى النِّصف مع اكتمال نهوضك. هكذا تكتمل التحضيرات كي تبدو الجثَّة كأنَّها ماتت غرقًا.

(لَنْ تستطيعي بالطبع تضليل التشريح الرَّسمي أبدًا. ولا بد من اكتشاف عوالق بحريَّة بأعضاء أخرى خلاف الرئتين مِنْ أجل استصدار تصريح قانوني بأن الوفاة كانت نتيجة الغرق. ذلك أنَّه سيكون من المستغرب ألَّا تحتوي الرئتان إلا على ماء البحر، وهو ما لا ريب أنَّه سيصبح مثارًا لشكوك ستغدو جثَّتي آنذاك عُشًّا لها. كما أنَّ هُناك دلائل ماديَّة لا يمكن إغفالها، بصرف النَّظر عمَّا بالجسد من انتفاخ جرَّاء الماء أو من ندوب بسبب ما قضمته الأسماك، ومنها: عناقيد الندوب متفاوتة الشكل التي شكَّلت نسيجًا صلبًا يمتد مِنَ الذِّراع إلى الرُّسْغ ومِنَ السَّاقين إلى ظهر الرُّكبتين. سيتضح لأي شخص مِنَ الوهلة الأولى أنَّ الجثَّة لمدمن مخدرات، بل لمواظب على الاستعمال اليومي للمُخدِّر فترة طويلة. كان الوضع ليختلف لو كان ثَمَّة نفق تحت الأرض، لكن في بلدة ريفيَّة صغيرة كهذه، لا يستطيع كثيرون شراء لوازمهم من المخدِّر لدرجة الإصابة بهذا القدر الموفور من الندوب. لا بُدَّ كان إرهابيًّا استغلَّ ضعف طبيب ما. أو ما لمْ يكن الحال هكذا، فلا بد هو الطبيب نفسه. في الواقع طبقًا لإحصاءات المهنة، يكشف العاملون بالحقل الطِّبي عن النسبة الأعلى بين مَن يتحولون إلى مدمنين. أنت بالطبع

في موقف عاثر؛ إذْ سبق أن خضعت للتحقيق بسبب الكمية التي تستعملها مِنَ المخدِّر، وأعتقد أنَّني أتفهَّم رغبتك بالبدء في كتابة إقرار. لكن على أي حال فات الأوان الآن، وما يمكنك عمله بالوقت الرَّاهن هو التأكُّد من سير باقي الأمور دون عقبات. هيَّا، هيَّا، لا بأس، ستصير الأمور على ما يُرام. لقد أفسدت متعتك للتوّ، لكن مِنْ غير المحتمل أنْ تطرأ مشكلة الآن. لا بد أنَّك أبلغت الشُّـرْطيين كافَّةً بالفعل عن تواجد المشرَّدين مِمَّن يضعون عُلبًا فوق رؤوسهم، وإهدار أموال الميزانيَّة القوميَّة على التحقيقات القانونيَّة بشأن المشرَّدين المُتوفَّين، بصرف النَّظر عن طريقة موتهم، عمل محظور).

نصل الآن إلى المرحلة الأخيرة. لا بد من التفكير في مسألة نقلي إلى قاع دَرَج الطوارئ. أتصوَّرها مهمَّة ثقيلة بالنسبة إليكِ أنتِ النحيلة جدًّا. كما أنَّي قَدْ أتقيَّأ بعضًا مِنْ ماء البحر مِنْ رئتيَّ المتخمتين وأبلل ياقتك حين تحملينني فوق كتفيك. يُستحسن أنْ تأخذي المنشفة التي ألبسها أثناء العمل وتلفِّيها حول عنقك. بعدها تعودين لحمل العُلبة. أثناء ذلك، إياكِ أنْ تنسي التخلُّص من ماء البحر المتبقِّي في الحاوية. فقد يتسبب سهو تافه بنتائج مُهلكة وغير متوقَّعة. ثُمَّ تضعين العُلبة فوق جُثَّتي وتربطينها بحبل إلى خصري لتأمينها. يُفضَّل تأجيل هذا لحين تعبئة الجثَّة داخل مقطورة الدَّراجة. كما يُفضَّل أيضًا أن ترتدي بنطالًا وحذاءً طويلًا قبل ارتداء العُلبة. بذلك تكتمل كل التجهيزات ولا يتبقَّى سوى أمر واحد، أنْ تغادري. لكن ألا ترين معي أنَّه مِنَ الأفضل حفاظًا عليك أن تغطِّي الجثَّة بفوطة ما؟ كلَّا، ستبذر الفوطة البيضاء بذور الشكِّ كما أنَّه ما من احتمالٍ واردٍ للقاء أي أحد في الطريق.

وطبعًا حتى إنْ حدث، يُمكنك أن تنحرفي جانبًا وتدعينه يمر. الطريق منحدر ومحور المقطورة جيد التشحيم وستتحركين بيسر وهدوء. لكن انتبهي من الكلاب. ستواجهين المتاعب إن اتَّبعك هذا الأخرق المدلل. لهذا تأكَّدي من تقييده قبل أن تنطلقي.

الآن بالنسبة إلى مكان إلقاء الجثَّة، أودُّ أن أقترح المكان وراء مصنع صلصة الصويا حيثُ اتخذنا القرار من قبل. لا أستطيع أنْ أزعم أنَّ الأرض هناك مستوية وتصلح لسحب المقطورة. لكن الجرف يهوي مباشرة نحو الماء، كما أنَّ مسألة أنَّ التيار قَدْ يجرف أي شيء لا شكَّ تصنع منه مكانًا مثاليًّا لإلقاء جُثَّة. ستكون السَّاعة قد تجاوزت الواحدة والنِّصف آنئذٍ بالفعل وستنتهي المهمَّة بحلول الثَّالثة على أبعد تقدير. خلاف ذلك، يكون المدُّ العالي قد خبا، ويتوقَّف التيار داخل القناة، ولن تتمكَّني من إنهاء الأمور الليلة. وإذا أرجأتِ الأمور الكريهة إلى الغد...

(انقطاع مُباغت غير مُبرَّر)

صفحات أخرى...

الأخيرة

طيب، يبدو أنَّه قد آن الوقت الآن لتوضيح الموقف. سأخلع العُلبة وأكشف عن وجهي وأسمح لك، أنت فقط بأن تعرفي المؤلِّف الحقيقي لتلك الدَّفاتر وغاياته الحقيقيَّة.

قد تعجزين عن تصديقي، لكن ما كتبته ليس افتراءً بأي حال. ثمرة خيال رُبَّما، لكن ليست افتراءات. الافتراء يُضلِّل ويجعل المرء يتوه عن الحقيقة، في حين أنَّ الخيال قد يغدو طريقًا مُختصرًا يقود إلى الحقيقة. وقَدْ خطونا بالفعل خطوة إليها، وسيتضح كل شيء فجأةً مع تصحيحٍ صغيرٍ أخير.

لست مضطرًّا للاعتراف بالحقيقة بالطبع. كذلك أنت، لست مضطرَّة لتصديقي. هذه ليست مسألة اضطرار، لكن بصراحة مسألة مزايا وعيوب قائمة. ما من مزيَّة بالخداع ولا أرغب بالحديث عن قصةٍ بوليسيَّةٍ ما رُبَّما كانت تحظى بعددٍ كبيرٍ من الحلول.

أرى بالطبع أنَّ مؤشرات العصر كافَّةً صارت مؤخَّرًا تنحرف باتجاهٍ لا يُناسب القصص البوليسيَّة. تخطر لي أثناء الكتابة على سبيل المثال الطريقة التي يتوسَّع بها نظام التَّقسيط. قليلون من ينجون الآن من الشراء بالتقسيط، تمامًا كما لم يعُد ثَمَّة من يخشى الرَّصاص، بعكس ما كان عليه الحال في الماضي. لكن مع الشراء بالتقسيط يرهن المرء كل شيء، يفضح نفسه وعمله وبيته لتأمين ما اقترضه من مال. تقريبًا كل من يتمتَّعون باسم جيد ووظيفة ثابتة يحظَوْن بالقدرة على الحصول على مُخالصة من الديون، وبطبيعة الحال الأماكن الشاغرة للمُجرمين والمُحققين قليلة جِدًّا. لا أحد هذه الأيام إلا رجال العصابات والمُعلَّبون يرغب في إخفاء هُويَّته إلى الحدِّ الَّذي يرفض معه مُتعة الشراء بالتقسيط. بيدَ أنَّي هو ذاك المعلَّب؛ ممثِّل حركة مُناهضة التقسيط. لذلك أختم بحلٍّ واضح، حتَّى وإن كنت ضد العصر: الكشف عن سِرِّ تلك الدَّفاتر.

تُرى ما رأيك الآن بالقتل الرَّحيم. سأستشهد بسابقة رسمية أصدرتها محكمة ناجويا العُليا في فبراير 1955؛ وذلك لمنحك خلفية مناسبة.

يُباح القتلُ الرَّحيمُ وفق الشروط التَّالية:

1. حين يسقط مريضٌ ما فريسةَ مرضٍ عُضالٍ يتهدَّده بموتٍ وشيك.
2. حين يغدو احتمال الألم فوق طاقة المريض بشكلٍ واضح.
3. حين يغدو الهدف منه هو التخلُّص من آلام المريض.
4. حين يوافق الشَّخص محل المسألة في كامل قواه العقليَّة، ويطلب القتل الرَّحيم على وجه التَّحديد.
5. في حال توافر سبب يستدعي التصديق على تلك الخطوة، غير مسموح بأي تدخل طبِّي إلا عبرَ طبيبٍ مُتخصص.
6. لا بد أن تكون وسائل الموت مناسبة أخلاقيًّا.

في رأيي أنَّ نصَّ هذه السَّابقة القانونية يتشبَّث أكثر من اللازم بعض الشيء بالأبعاد الماديَّة. فمِنْ وجهة نظر إنسانيَّة، أعتقد أنَّه نصٌّ متردد جدًّا وتقليدي جِدًّا. لأنَّه أحيانًا ما تكون هُناك حالات تتساوى فيها الآلام المروعة الناجمة عن العطب الذِّهني والمعاناة الجسديَّة. لكن مثل هذه الأمور لا تُمثِّل أهمية هُنا. ما أردت قوله هو إن اضطررنا للتعاطي مع أشخاص يعيشون بأماكن لا يُطبق فيها القانون، آنذاك تصبح كل جرائم القتل قتلًا

رحيمًا. لا يُمكن أن يكون في قتل مُعلَّب جُرْم يفوق القتل بساحة الحرب أو عقوبة أنزلها جلَّاد. حاول فقط على سبيل التجربة أنْ تطبِّق بنود السابقة القانونيَّة السَّالفة الخاصَّة بالمريض على مُعلَّب. فأنا أثق أنَّك تعي أنَّ المعلَّب هو الآخر شأنه شأن الجندي العدو أو المُجرم المُدان، يُشكِّل وجوده أمرًا ليس محل اعتراف قانوني منذ البداية.

وهكذا، يغدو التحقُّق من هُويَّات من ليسوا مُعلبين حقيقيين أفضل مِنَ السؤال عن هوية مُعلَّب حقيقي. هذه مقاربة أقرب للواقع في رأيي. فلدى المعلَّب تجارب هو وحده مَنْ يستطيع الحديث عنها؛ ومغامرات لا تليق إلا به، تجارب لا يُمكن لأي مُعلب مزيفٍ أبدًا أنْ يكون قد مرَّ بها.

على سبيل المثال، تغدو أيام الصَّيف القليلة الأولى التي يمرُّ خلالها مُعلَّب ما بتجربة التحوُّل إلى مُعلَّب أولى أيام عذاباته. شعور بالاختناق يجعله يرغب في خربشة ذكرياته بأظفاره. لكن لو كانت الحرارة فقط هي المشكلة، لكان مقدورًا عليها، بل يمكنه إن ساءت الأمور أن يتَّجه إلى مدخل مبنى ما أمام أحد الأنفاق كي يتلقَّى دفق الهواء البارد. لكن غير المُريح بالأمر هو العرق الدَّبِق الَّذي لا موعد لجفافه، والَّذي يبني طبقاتٍ من وَسَخ يؤلِّف بيئة مناسبة للبكتريا والخَمَائر والعفن. تكفُّ غدد العرق عن التنفُّس أسفل طبقات الوَسَخ المُختمر؛ تنهج وتلهث مثل رخويات جافَّة فِي مدٍّ منخفض. ويغدو تحمُّل أُكال الجلد المتفسِّخ أكثر صعوبة، حيثُ يتجاوز أي ألم في الأحشاء. إنَّ حكايات التعذيب التي يُغطَّى فيها

السَّجين بالقَطِرَان أو حيثُ تُجنُّ راقصة ما طُليت بغبار الذَّهب، ذات دلالة ضخمة في رأيي. يومضُ بياض الفاكهة مشرقًا أمام عينيَّ مكان أنْ قشرتها بسكين. لكَمْ كنتُ أودُّ أن أتجرَّد مِنْ جلدي بها في ذلك العلبة، كما يُقشِّر المرء ثمرة تين.

لكن تعلُّقي بالعُلبة ربح في نهاية الأمر. وبعد رُبَّما أربعة أو خمسة أيام اعتاد جلدي على الوسَخ، بل وفارقني أي إحساس بالانزعاج. رُبَّما تكيَّف جسدي، فيما يتعلَّق بمعدَّل تنفس الجلد، عليَّ الاقتصاد في كمية الأكسجين المستهلكة. إنْ صحَّ ذلك، أكون أنا الَّذي كان بالأساس يعرق بغزارة نهاية هذا الصيف قد صار يعرق لكن بدرجة أقل كثيرًا. يعرق المُعلب بقدر زيفه.

أثناء ذلك، اسمح لي أكتب عن شحَّاذي فابنْ. أبغض من قَدْ يلقاهم مُعلَّب. هؤلاء الشَّحاذون العجائز المخرِّفون الَّذين تغطيهم جميعًا شارات وعلامات وزينات ألعاب تُشبه قشور سمكة، ويحملون أعلامًا صغيرة تحملُ شموسًا مُشرقة ناتئة من قبعاتهم كأنَّها شموع كعكة عيد ميلاد. كان الواحد منهم يلاحقني بكل مرَّة يراني فيها وفي مرَّة أخفقت في تجنُّب هجومه المُباغت؛ الَّذي مرَّنت نفسي على تجاهله، فغافَلني على حين غِرَّة. راح يُصدِرُ زعيقًا بلا معنى واندفع تجاهي ثم غرس شيئًا ما فيَّ من فوق العُلبة. حين أبعدته بصعوبة لاحقًا وأخرجت الشيء، رأيت أنَّه كان مجرَّد راية صغيرة تحمل شمسًا مُشرقة تزيِّن القبَّعة.

أصابني ارتباك هائل؛ فبضع بوصات أخرى إلى الجنب كانت كفيلة بأن

تجعل قبضته تخترق أذني. بعد ذلك، وفيما يخصُّ شحَّاذي فابنْ فحسب، قررت أنْ أهاجم أولًا على خلاف ما تعودت عليه. فأُتيحت لي بفضل ذلك فرصة للاستفادة من إلقاء الأشياء الثقيلة خارج العُلبة. في المقام الأول (في حال كنت تستخدم يدك اليُمنى) تثني ذراعك اليُمنى التي تبرز خارج نافذة الرؤية أفقيًّا نحو الدَّاخل مُرتكزًا على مرفقك ثُمَّ تلوي الجزء العلوي من جسدك بما في ذلك العُلبة جهة الشمال. ثُمَّ متَّبعًا جسدك في رحلة العودة، تمدُّ ذراعك بحزم في اتجاه الهدف. يُشبه ذلك بشكل جوهري لعبة رمي القرص لكن دون جري. لن تتمكَّن من ادِّعاء أنَّك مُعلَّب حقيقي ما لم تكن قادرًا على التعامل مع شحاذي فابنْ.

لكن عادةً تمرُّ أيام المعلَّب هادئة، بعد خروجه إلى البلدة. وبلا حوادث تستحق الذِّكْر تقريبًا. كما لا يستمر الوعي بالذات والخجل مِنَ الآخرين أكثر من شهرين أو ثلاثة، حين يتداخل تعلُّق المعلَّب بمظهره الخارجي مع المعيشة. ذلك أنَّك لا تستطيع التوقُّف عن ممارسة مثل هذه الوظائف اليوميَّة مثل الأكل والتغوُّط والنَّوم بصرف النَّظر عن ماهيتك. بالنسبة إلى النوم والتغوُّط، لا يختار المُعلب مكانًا معيَّنًا، في حين يختلف الأمر تمامًا بالنسبة إلى الأكل. ذلك أنَّنا نعجز حين تنفد مِنَّا المواد الغذائيَّة، شئنا أم أبينا، عن أن نسارع إلى البحث عن موارد. وسيكون أول ما يطرأ على بالنا في حال رغبنا في الحصول على الطعام دون دفع الثمن أو إثارة المتاعب هو التماس البقايا. ولذلك فمن الطبيعي أن يتجه تفكيرك إلى الأماكن الأكثر ازدحامًا بالمدينة والتي تمتلك الوفرة والتنوُّع.

يتطلَّب البحث عن طعام براعة خاصة. لكن الموقف يختلف بالنسبة إلى المشردين عنه بالنسبة إلى الشحاذين الَّذين اعتادوا على ظروف البحث شيئًا فشيئًا؛ إذْ ليس كل ما يتوافر يصلح للمُعلَّب لمجرَّد أنَّه طعام. ليست مسألة ترف لكنَّها النظافة. لا يعني ذلك بالضرورة أنَّ بقايا الطعام قذرة، لكنَّها بطريقةٍ أو بأخرى تخلِّف انطباعًا ليس سارًّا جِدًّا لاسيما أنَّ الروائح الكريهة تضايقنا. لقد كانت الرائحة النَّتِنَة، بالتحليل الأخير، هي الشيء الوحيد الَّذي أخفقت تمامًا في التآلف معه خلال السنوات الثلاث الماضية.

ظللت على حالي من النُّفور مِنَ الرائحة بسبب الشُّعور البغيض النَّاجم عن الطعوم التي لا تتوافق مع بعضها. السمك له رائحة السمك، واللحم له رائحة اللحم، والخضراوات لها رائحة الخضراوات – لكل شيء رائحته الفريدة، ونحنُ نطمئن ونشعر بالرضا حين نُقلِّب ما أكلناه داخل أفواهنا واثقين من ماهيته. لذلك يُربكنا طعم الموز إذا كُنَّا نتوقَّع روبيانًا مقليًّا، وتُصبح قطعة شوكولا مُقززةً لو كانت بطعم محار مقلي. بل الأدهَى من ذلك هو أنَّه ما من طريقةٍ يتساوى بها طعام ما مع روائح بقايا امتزجت معًا بصورة عشوائيَّة. هذا شيء غير مقبول نفسيًّا على الإطلاق، حتَّى وإن استوعبه المرء من حيث المبدأ.

الخطوة الأولى الآن من أجل الحصول على الطَّعام هي البحث عن البقايا التي تكون جافة وبلا رائحة بقدر المستطاع. على أي حال، تلك البقايا عسيرة بدرجة مُدهشة؛ إذْ تنتمي بقايا الأطعمة التي تلقي بها المطاعم إلى فئتين. الأولى هي تلك البضائع سهلة التلف والتي لا تظل صالحة فترة طويلة،

وهي غزيرة وكثيرة العدد من وجهة نظر كميَّة حيثُ يتم فصل الأشياء غير القابلة للأكل (مثل العيدان المستعملة والأوراق التالفة والأطباق المكسورة وما شابه)، أمَّا الأشياء الصالحة للأكل فتُجمع داخل حاويات بلاستيكيَّة ضخمة تنقلها الشاحنات إلى مزارع الخنازير كل صباح. تضم الفئة الثانية تلك البقايا ذات الشكل المُحدد والتي لا يُمكن تقديمها مرَّة أخرى إلى زبونٍ آخر بعد أنْ تبقَّت مِنْ زبونٍ سابق – على سبيل المثال: خبز؛ مقليات؛ سمك مجفف؛ جُبن؛ فطائر؛ فاكهة وما شابه. لكن رغم أنَّها تبدو شائعة الانتشار فإنَّك لن تعثر عليها مهما بحثت. رُبَّما يكون السبب وراء ذلك هو إمكانية استعمالها مرَّة أخرى ما دامت لا تتعفَّن بسهولة رغم أنَّها مقطَّعة إلى أجزاء. في الحقيقة، ستفوز بالفُتات إذا كسرت رغيفًا جافًّا فضلًا عن مخزون رائع من السَّمك المقلي وعظام الدجاج.

أثق أنَّني كتبت عن هذا من قبل لكن في إمكان أي مُعلب أن يحصل بسهولة على الطعام عبر شبابيك المتاجر. كما أنَّه ليس بحاجة حقيقيَّة إلى بقايا الطعام. لكنها توفِّر فرصة جيدة للتعوُّد على البلدة، وهو الأمر الضروري في الواقع كي يستمتع بالحياة بين النَّاس باعتباره مُعلَّبًا. آنئذٍ يبدأ الزمن في رسم دوائر خرسانية يغدو هو مركزًا لها، أينما يكون.

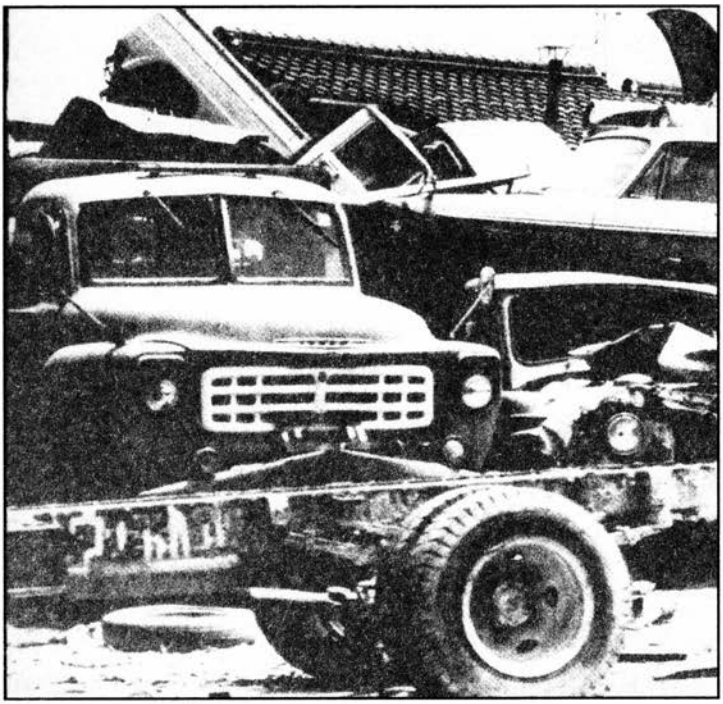

الغايات الوهميَّة لأولئك
الذين ظلُّوا يركضون، لكن
لم يصلوا قطّ -
الاستاد الليلي...
حيث لا تزال الرايةِ تُحلِّق
لكن كُلًّا من المُحكَم والمتفرِّج
غادر منذ زمن بعيد.

لا يسأم المرء مِنَّا على الإطلاق أبدًا؛ ذلك أنَّ خلفيَّة الصُّورة تمرُق بسرعة خاطفة في حين تسير مقدِّمتها بخُطًى كَسُولة. وعند المنتصف تسكن الأشياء تمامًا. على أي حال، المعلَّب المزيَّف وحده مَنْ يصيبه السأم داخل عُلبته.

الآن أودُّ أنْ تفكِّر بشأن هذه المسألة: مَنْ مِنَّا المعلَّب؟ ومن مِنَّا أخفق في أن يصبح مُعلَّبًا؟

حالة «د»

كان «د» صبيًّا تمنَّى أنْ يغدو قويًّا. كان غالبًا ما يتضرع إلى الله أن يُصبح أقوى. على أنَّه كان يجهل كيف يزيد من قوته. وفجأةً خطرت له يومًا فكرة: فقرر أنْ يحاول ويبني مِنْفَاقًا من الخشب الحُبيبي والكرتون والمرايا. ثبَّت عند طرفَيْ أنبوب مرآتين متوازيتين تميلان بزاوية خمسٍ وأربعين درجة، ما يُتيح له النظر عبر الطرف البعيد من الأنبوب المثبَّت أفقيًّا أو رأسيًّا. ثم ألحق مفاصلَ ورقيَّة بالمرآة الواقعة عند الطرف العلوي على وجه التحديد، بحيث تُصبح لديه أداة تُتيح له تعديل زاوية الرؤية بشكل معقول من خلال التلاعب بخيطٍ يتحكَّم فيه من الأسفل.

قرر تجريب المئفاق بين السياج وسقيفة الجيران كأول اختبار له. كان مكانًا اكتشفه في طفولته حين كان لا يزال يلعب الاستغمَّاية، وهو مسافة

ضيقة تقع بالجزء المخفيّ بين الشَّارع وجانب المنزل بالطبع. استطاع أنْ يشمَّ حين طأطأ رائحة فضلات فأر مختلطة برائحة الأرض الرَّطبة. في البداية، كبس جسد المثفاق بقوَّة فوق جبهته مُستندًا بساعديه على ركبتيه، ثُمَّ راح يحاول بالتدريج دفع الطرف العلوي فوق السياج. كان الشَّارع عبارة عن مُنحدَر حادّ، والجدار شاهق الارتفاع. لذلك، قليلون هم من كانوا يأبهون بأي شيء بخلاف التركيز على المشي فوق طريق محفوف بالمخاطر. حاول «د» أن يُطمئن نفسه مستخفًّا بمخاوفه، لكن الهلع أصابه حين رأى مشهد الشَّارع منعكسًا فوق مرآة، بل أحسَّ بعتاب هذا المشهد له. فأخفض رأسه بصورة غريزيَّة وأثناء ذلك اصطدم طرف المثفاق بالسياج وتحطَّم مُصدرًا صوتًا مكتومًا يُشبه برتقالة تُهرس. أصلحه بشريط سولِفان وهو يمسح العرق الَّذي تلألأ فوق وجهه.

بالمرَّة التالية واصل المراقبة في تحدٍّ للمشهد المسكوب من العدسة. عاود التركيز ووجد أنَّ أعصابه المشدودة ترتخي هي الأخرى. آنئذٍ أدرك أنَّه لا داعي للخوف من أنْ يبادله النظر شخص آخر، فتبخَّر على الفور شعوره بالذنب وبدأ المشهد بالتبدُّل أمام عينيه. كان يُدرك التغيير الَّذي لحق بالعلاقة بينه وبين المشهد، وبالعلاقة بينه وبين العالم بشكلٍ واضح. وبدا واضحًا أنَّه نجح في تحقيق هدفه الأول من بناء المثفاق.

لم يكن ثَمَّة ما هو جديد بشكل خاص. تخلَّل نور ناعم لكن نافذ تفاصيل المشهد كافة، وكان كل ما تقع عليه العين مريحًا ورشيقًا كالمخمل. انمحى تمامًا من وجوه المارَّة وتصرفاتهم كل ما قَدْ يتسبب بخصومة بينه وبينهم.

اختفت النظرات المستهجنة والغاضبة وغابت الحوافُّ الخشنة مِنَ النتوءات والمنخفضات التي تصنع المشهد - إشارات الشوارع؛ سواري التليفونات؛ الجدران والرَّصيف الخرساني. امتلأ العالم بنعومة باكورة ليلة سبت ستستمر إلى الأبد. رمق الشَّارع وراء المرآة عابثًا وردَّ الشَّارع ابتسامة الصبي الولهان. صار العالم سعيدًا ما إن نظر إليه الصبي. فطبع في مُخيلته توقيعه فوق معاهدة سلام بينه وبين الدُّنيا.

راح «د» الَّذي أحسَّ بالبسالة والجرأة يتنقَّل من مكانٍ لآخر مُحدِّقًا في الشَّارع الَّذي لم يعترض بدوره. بل أصابت العالم شهامة غير مشروطة طوال المُدَّة التي كان «د» ينظر خلالها عبر المئفاق. إلى أن دبَّر ذات يوم مغامرة صغيرة قرر فيها أنْ يحاول اختلاس النَّظر إلى مُستراح الشقَّة المجاورة. كان كوخًا مستقلًّا يبعد مسافة قليلة عن البيت الَّذي تسكنه سيدة تعمل مُدربة جمباز «باليدلْ سكولْ». رُبَّما لا تعيش في الكوخ حاليًّا، لكنَّها تستفيد مِنْ كونه عازلًا للصوت لأنَّها كانت تتمرَّن على عزف البيانو هُناك من حينٍ لآخر. لَمْ يكُنْ على يقين تام من هذا الأمر، كما لم يحاول التأكُّد.

أحسَّ أنَّ الفكرة كانت لديه منذ فترة طويلة بمجرَّد أنْ فكَّر في أن يتلصَّص عليها. بل أحسَّ أنَّ جهوده كافةً قبلًا كانت تحضيرًا لذلك. كان الكوخ مُلاصقًا للسياج وعلى الجانب الآخر منه مباشرة يقع مُحترفه الصَّغير المُشيَّد في نهاية ممشى يفصله عنه سور. كانت أصوات المياه المتدفقة داخل المرحاض مسموعة بوضوح أكبر بفضل هذا الموقع، وأكثر قربًا من صوت البيانو المكتوم الَّذي خففت الجدران العازلة للصوت مِنْ نغماته العالية.

في الحقيقة، لَمْ يكن يسمع صوت البيانو وجلبة الماء المتدفق بالوقت ذاته، لكن مقطوعة المُعلِّمة الأثيرة التي تعزفها دائمًا في نهاية التمرين، وكانت شائقة وحزينة، كانت تمتزج داخل رأس «د» مع صوت الماء الجاري الَّذي يختلط بدوَّامة الهواء داخل التجويف الخزفي الأبيض، بطريقة تبدو واضحة المغزى. كان يتخيَّل حين يفكِّر في وجود بشر داخل مرحاض مُجاور أنَّه يشمُّ بخار بول، وكان اللحن المُعتاد كافيًا لجعل عضلات ظهره تنتفض برغبة حِسيَّة.

وفقًا للاستطلاع الَّذي نفَّذه خِلسةً في وقت سابق، كانت هُناك فتحة ضيقة لكنس التراب عند مستوى الأرض تمامًا. لن تكون هناك مشكلة لَو كانت مفتوحة، لكن لو كانت مُغلقة فليس أمامه إلا اختلاس النَّظر عبر الفتحة القريبة من السَّقف، وهي عمليَّة شاقة لكن ستكون فعَّالة لأنه ما من شيءٍ إلا ستار لمنع الحشرات؛ إذْ أُزيلت مروحة التهوية (لا ريب تعطَّلت). كان يُحب اختلاس النظر إلى داخل المراحيض من الأسفل قدر الإمكان. وكانت زبدة الحياة تراوغ عينيه ما إن يتخيَّل أنَّه يتلصَّص عليها.

حتَّى الآن وفقًا لتقديراته، فأنَّ جارته المُعلِّمة تفرغ من العزف على البيانو نحو الخامسة مساءً تارة، وتارةً أخرى نحو الثَّامنة. وكانت الاحتمالات أكبر أن تذهب للمرحاض عقب العزف نحو الثامنة. كان هذا الموعد شاقًّا بالنسبة إليه؛ إذْ يكون والداه كلاهما بالبيت، ويتعذَّر عليه الخروج إلى الحديقة. في الخامسة لا يكون أبوه قد عاد للبيت بعد، أمَّا أمُّه فغالبًا ما تكون في الخارج كي تتسوَّق وجبة العشاء. وإذا كان مصممًا على تنفيذ

خطَّته فقطعًا الساعة الخامسة هي الموعد المناسب. لكن النَّهار يكون طالعًا آنئذٍ، وثَمَّة احتمال أنْ تكتشفه المُعلِّمة، لكن بالوقت ذاته لا يمكنه إلا أنْ يثق في المئفاق. وهي ثقة مُطلقة في إدارة الجهاز اكتسبها مِنْ خلال مراقبة البلدة مِنْ أماكن شتَّى. إلى ذلك، كان قد حسم أمره وغطَّى عزمه على التلصص على ما به من تردد مثل معطف ثقيل لم يَحلْ لونه.

حين عاد من المدرسة ذلك اليوم أعدَّ ذريعة ما كي يؤخِّر خروج أمَّه للتسوُّق؛ هكذا يضمن أن يغدو حُرًّا قرابة الخامسة عصرًا. وفي قرابة الرَّابعة وأربعين دقيقة وبعد أنْ تأكَّد مِنَ انتهاء التمرين وأنَّ المعلِّمة قد بدأت تعزف المقطوعة النِّهائيَّة، ترك أمَّه تخرج. انزلق داخل حذاء خفيف طوى حافتيه الخلفيتين مثل مركوب، متأبطًا المئفاق، بعدها تسلل إلى الحديقة. لم يبلغ المئفاق النَّافذة الصَّغيرة مِنْ هذا الجانب من السياج الخشبي على عكس ما تصوَّر. وكان ثَمَّة فرص كبيرة لكشف مسألة تلصُّصه مِنْ هذا الجانب من السياج؛ لذلك فكَّر في الاتجاه إلى الجانب الآخر حيث تقلُّ تلك الفرص. وما دام لم يكن قد أبلغ ضحيته صراحة أنَّه كان يتلصص عليها؛ فستواصل الزعم بأنَّها لم تنتبه حتَّى وإن أدركت أنَّه يتجسس عليها. كان يتوقَّع بشكل غامض أنَّ ينشأ تواطؤٌ ما بين مَنْ يُراقَب ومَنْ يُراقِب. ولم يكن يستطيع دون ريب أن يصدِّق أنَّ ذلك الاعتراف الخَجُول والمتحفِّظ بحبِّ ذلك التلصص يستحق كل هذا اللوم.

انزلق «د» تحت السياج الخشبي ونهض بالجانب الآخر. كان رطبًا أكثر من حديقة بيته. وكانت المسافة بين المبنى والسياج التي غطَّتها حشائش

إسفنجيَّة بغطاء سميك، لا يتجاوز عرضها قدمين ونادرًا ما كان يدخلها أحد. انزلق جانبًا وجَثَمَ بالمسافة بين المرحاض والسياج. كان محظوظًا؛ إذْ كانت فتحة كنس التراب مفتوحة بوصتين كاملتين. بالطبع استعمل المثفاق أفقيًّا. تسارعت أنفاسه وتأذَّى صدره؛ فاستند على السياج وأغمض عينيه. وبعد أَنِ التقط أنفاسه عدَّل المثفاق واتَّخذ موقعه. في البداية دخل طاس المرحاض الخزفي مجال الرؤية. لم يكن أبيض كما تصوَّر لكن أزرق باهت. غطَّى قرميد أبيض الأرضيَّة واصطفَّ خُفَّان مطاطيان فضيان. كان مجال الرؤية ينحرف يَمْنةً ويَسْرةً رغم محاولاته لضبط المرايا وفشل في تثبيت الزاوية المطلوبة. لا بد أن يهدأ. وكان يضع الأنبوب أفقيًّا لذلك كان مضطرًّا للفِّه كي يرى ما بالأسفل وما بالأعلى. وكانت الجدران مِنَ الأبلكاش المغطَّى بدهان خشبي مجزَّع.

بدا له أنَّ الوقت يمرُّ ببطء شديد وأنَّ الموسيقا هي الأخرى اليوم تبدو طويلة بشكلٍ خاص. أحسَّ جسده بالكامل يسخن وترددت أنفاسه مثل صافرة. شقَّ الضَّغط جمجمته وحلَّقت مُقلتاه كأنَّهما رصاصتان مصنوعتان من الفلِّين. بالقطع سوف تعود أمُّه قريبًا. وهاجمت إيقاعات البيانو الطَّنانة مفاصل رُكبتيه كأنَّها مرض عصبي ما. وتملَّكه دافعٌ لا يُقاوم كي يقتحم البيت ويدمِّر البيانو.

مع ذلك، بلغت الموسيقا نهايتها بطريقةٍ ما. وسرعان ما ترددت الفواصل العديدة الأخيرة التي اعتادها. ثُمَّ الوتر المسحوب النّهائي. قال «د» لنفسه ألا يتوقَّع الكثير، ذلك أنَّ التطلُّع للنجاح بأول مرَّة وقاحة هائلة. ولأنَّ

حرارة اليوم كانت مُرتفعة واليوم جاف، فإنَّ عدد مرَّات التبوُّل تقلُّ نسبيًّا لا محالة. مع ذلك، عجز إلا أنْ يترقَّب. بدأ «د» بالارتجاف. وأخفق في الحصول على كفايته من الهواء عبر أنفه فقط فترك فمه مفتوحًا، وراح جسده بالكامل يخفق كأنَّه مضخَّة.

ثم تردد صوت بالقرب من أُذنه بغتة.

- مَنْ أنت؟ وماذا تفعل؟ إياك أنْ تحاول الهرب. إنْ فعلت سأبلغ عنك.

انكمش. التصق بالأرض وعجز أنْ يحوِّل عينيه كي يرى مِنْ أي اتجاه يجيء الصوت. فكَّر أنَّ تنفُّسه المقتر يُشبهُ الطرف المُضيء الأحمر مِنْ لعبة نارية تتدلى من شريطها الورقي.

- دُر حول الواجهة وتعالَ مِنْ مدخل البيت.

لم يحمل الصوت وعيدًا بالغًا، وكان ذلك مصدر ارتياح.

- لا بأس... انهض. أسْرِع الآن.

بدا الصوت صادرًا من المرحاض دون ريب، على أنَّه أخفق في رؤية صاحبته. مِنْ أين وكيف، تساءل، استطاعت أنْ تراه؟.

- لا تنسَ تلك الآلة الغريبة هُناك، واتجه مُباشرةً إلى الواجهة. الباب ليس موصدًا، تستطيع الدُّخول مِنْ خِلاله.

هل ستستمر في التبوُّل، أم ستتوقَّف الآن؟ كان موضع المئفاق خطأ بالقطع.

- ألا تفهم؟ لن تستطيع الهرب. دُرِ الآن على الفور حول الواجهة، دون تلكُّؤ.

لم يكن أمامه إلا الإذعان، وبدا أنَّ الفرار أمنية مستحيلة. كانت ترجمة التحذير من الهرب تعني أنَّه إذا لم يهرب فلن تشي به للمُدرِّسة أو عند أبويه؛ ومن ثَمَّ عليه أن يطوي هُنا صفحة العقوبة أيًّا كانت. دار حول مبنًى متقدِّمًا في اتجاه المدخل وهو يضمُّ إلى صدره المئفاق الَّذي أثبت عدم جدواه، وقد سيطر عليه إحساس الحَمَل الَّذي يُدفع إلى المسلَخ. وتبدَّل الباب الَّذي طالما كان يوحي إليه بملمس طيَّات لحم، إلى ملمس خرساني.

وراء الباب مُباشرة قاعة موسيقا فسيحة بداخلها بيانو. رأى الخشب العازل للصوت منقَّطًا بثقوب أصابته بالحِكَّة ما إن نظر إليها. تنبسط فوق الأرض سجَّادة خضراء. انفتح باب آخر ما إن أوصد الباب الأول، ودخلت المُدرِّبة. تردَّد مِنْ خلفها صوت الماء المندفع. بدا واضحًا أنَّها انتهت مِنَ التبوُّل بعد انكشاف أمره، وتشابك في خياله ردفاها الأبيضان الناتئان في المرحاض مع دوَّامة الماء المتدفِّق. ولأنَّه كان يعجز عن رفع وجهه فقد أحسَّ بالضيق كأنَّه كان وجهًا لوجه مع ردفيها العاريين.

- سأوصد الباب.

استطردت فيما تلفُّ خلفه، وتردد صوت دوران المفتاح.

- ألا تستحي؟

- بلى.

– صوتك يتغيَّر. ما فعلته طبيعي، كما أرى، على أنَّي أمقت التصرفات الدنيئة. رُبَّما تستحي، لكنني أستحي أكثر، ارتباكك يُصيبني بالارتباك أنا الأخرى. ماذا نفعل؟ لو تستَّرت عليك، ستكرر صنيعك مرَّة أخرى..

– كلَّا.

– لا أصدقك.

– لن أكرر حقًّا ما فعلت.

– لكن حتَّى إنْ صدقتُك. لا أستطيع مطلقًا أنْ أدعَكَ ترحل دون عقاب. رأيي أنْ أجعلك تذوق من نفس الكأس.

التفتت المُعلِّمة إلى البيانو وشرعت تعزف فوق المفاتيح فجأة. كان اللحن جزءًا من المقطوعة التي تعزفها في الختام عادة. كانت رائعة، مثل رخام مُكدَّس، وتختلف تمامًا عن الصوت الَّذي يسمعه عبر الجدار. كانت تُشبه راية مِنْ حرير تنساب في النسيم. فازداد إحساس «د» بالبؤس والدناءة، وأخيرًا أخفق في إيقاف الدُّموع التي انهمرت.

– ما رأيُك في هذه المقطوعة؟

– أوه، تروق لي.

– هل تروق لك حقًّا؟

– تروق لي كثيرًا.

– هل تعرف مؤلِّفها؟

– شوبان. الرَّائع، المُدهش شوبان.

كفَّت فجأةً عن العزف على البيانو ونهضت.

– طيب، إذن، اخلع ثيابك. تجرَّد منها، وسأذهب إلى الغرفة الأخرى.

لَمْ يستوعب «د» ما قالته على الفور، وحتَّى حين انسحبت المُعلِّمة، بقي على حاله يقف ذاهلًا بعض الوقت.

– ما خطبُك؟ لماذا هذا البطء الشديد؟

تردد صوتها عبر الجانب الآخر مِنَ الباب.

– أنظر إليك الآن مِنْ خلال ثقب المفتاح. تستطيع أن تفعل ما طلبته منك إن كنت تعتقد حقًّا أنَّك قد تسبَّبت لي في الإحراج.

– وماذا عليَّ أنْ أفعل؟

– قُلته لك! اخلع ثيابك. لقد سبق لك أن وضعتني بالموقف ذاته، فلا أعذار الآن.

– ألن تسامحيني؟

– بالقطع لا. أيُّهما أفضل، أن أبلغ أباك أم أمَّك؟

كان «د» مهزومًا. غطست معدته حتَّى المثانة، وبدا أنَّ صدره صار أجوف. لَمْ يكن يكره التعرِّي بوجهٍ خاص، وبالنسبة إلى تلك النقطة كان لديه تصوُّر أنَّهما سيصلان معًا إلى تفاهم مُشترك. لكنه لم يكن يثق بنفسه على الإطلاق. إذْ كان واثقًا من أنَّ ذَكَره لا ريب سينتصب ما إن يتجرَّد

من ثيابه، شاء أم أبَى. آنئذٍ، هل ستغفر له المُدرِّبة تصرُّفًا كهذا؟ لا يعتقد أنَّها ستغفر له أبدًا، بل قد تغضب ولَنْ تتغاضى عن جريمته هذه المرَّة. أو تنكفئ على وجهها من شِدَّة الضَّحك. وفي كلتا الحالتين، كان موقفه بائسًا جِدًّا. أدرك أنَّه حقير فتساءل ألن يخفَّ انتصابه قليلًا؟ لكن هيهات. ذلك أنَّ ذَكَره كان قد بدأ يشتد بالفعل ما إن فكَّر في أنَّه سيتعرَّى. وحتَّى لو تعرَّض للسخرية، سيواصل ذكره الانتصاب.

استكان. تحدَّى قبحه وخلع معطفه. تجرَّد من قميصه، وأخفض بنطلونه. صار عاريًا تمامًا. وحصل على انتصاب قوي. مع ذلك لم يصدر أي ردِّ فعل. ظل كل شيء وراء الباب هادئًا تمامًا. ليس الصمت العادي، بل سُكات كأنَّ جسمًا ما يقبع مرتعدًا هُناك. كانت نظرتها التي تتحوَّل إلى نور أسود تنغرز عبر ثقب الباب. تبخَّر اللون أمامه ولم تبقَ إلا توزيعات للنور والظلّ، وفقد أخمصا قدميه الإحساس. كان يترنَّح وبدأ يُنزل منه ماء ما. لم يكن بولًا، بل سائله المنويّ. فشل في أن يمنع نفسه، فجثا فوق ركبتيه وغطَّى وجهه بكفيه وتظاهر بالبكاء. لم تكن ثَمَّة دموع بالطبع. وعلى الفور، جفَّت أحشاؤه كشاطئ بحر فجرًا.

– هل تعي الآن؟

كان صوتها جافًّا هو الآخر على الجانب الآخر من الباب. أومأ. في الواقع، كان قد وعى تمامًا. وعى بعمق، أكثر مما أظهرت إيماءته لها، بل أكثر مِما أدرك هو نفسه.

– من الأفضل أن تعود لبيتك الآن.

واربَت الباب وسقط فوق الأرض مفتاح الباب الأمامي مُحلِّقًا بالهواء بلا صوت. كان بابًا يستطيع أن يفتحه من الدَّاخل دون مفتاح.

***

كان باب المستشفى الذي وصلت إليه أخيرًا موصدًا. ثَمَّة بطاقة مُعلَّقة تُعلن عدم إجراء فحوصات اليوم. في الخلف راح الكلب الوَدُود يتشمَّم بصوتٍ أجشّ. أرنُّ الجرس، لكنني وقَدْ نفدَ صبري أندفع إلى الدَّاخل دون انتظار الإذن. ثَمَّة بادرة أنَّ ثَمَّة قادمًا. ينفتح الباب بقوَّة فجأة وتدعوني امرأة للدخول على عَجَل بذراعين مفتوحتين على اتساعهما. تسير باتجاه الدَّاخل وهي تُغمغم شيئًا ما. لا أعي حقًّا ما تقول، لكن يبدو أنَّها تدمدم بينها وبين نفسها، تخلط بيني وبين المعلَّب المزيف (أو الطبيب المزيف). أفضل شيء هو تصحيح سوء الفهم هذا على الفور. أشرع بالتفسير.

- لست الطبيب. بل المعلَّب الحقيقي... العمل الأصلي. مصوِّر الفوتوغرافيا السَّابق الَّذي كان ينتظرك أسفل الجسر الليلة الفائتة..

أمعنت النَّظر بي سريعًا من رأسي حتى قدميَّ بشفتين مفغورتين. تكسو وجهَهَا أماراتُ الالتباس والدَّهشة.

تقول:

- أنا في مأزق.

ثُمَّ تُردف:

- لم تفِ بوعدك. اخلع عُلبتك فورًا. رُبَّما لا تعلم، لكن..

- آه، بلى. تتكلَّمين عن الطبيب. لقد رأيتُه منذ فترة قليلة في الشَّارع.

- اخلع العُلبة رجاءً.

- لكنني لا أستطيع. فلأجل هذا جئتُ بمثل تلك السُّرعة.

- لن يُفلح ذلك... ليس عند النُّقطة التي بلغناها.

- لكنني عارٍ. تمامًا. بعد أنْ رأيتُك في المستشفى أخذت حمَّامًا بحجرة تغيير الملابس، وكنتُ أنتظر حتَّى تجفَّ الثياب التحتيَّة التي غسلتها. واضطررت أنْ ألبس شيئًا ما قبل أنْ أغادر العلبة. كنت أنوي المجيء إلى هنا بعد أنْ أتخلَّص منها؛ لأنَّني أردت أنْ ترَيْ كيف أفي بوعودي. لكنني غفوت. سقطت بنومٍ عميقٍ كأنَّني تدحرجت وانسحقت تحت أسطوانة بناء. إلى ذلك، راودتني سلسلة أحلام فشلت في النوم خلالها رغم أنَّي بقيت ممددًا حتَّى فترة قريبة، ولا أزال أعاني قِلّة النَّوم. لكن لمَّا فتحت عينيَّ كان بنطالي وثيابي التحتيَّة التي نشرتها كي تجفَّ قد اختفت. يا لها مِنْ فوضى! كنت أتخيَّل أنَّني رأيت حُلمًا قرب الفجر ركض داخله إلى جانبي عدد كبير مِنَ الأطفال يحملون راية مُثبَّتة في طرف سارية، لكن رُبَّما لم يكن حُلمًا، بل حقيقة. وانتابني شعور لمَّا أمعنت التفكير أنَّها لم تكن راية بل بنطالي. لم أدْرِ ما أفعل. كان عليَّ على الأقل أنْ أجد بنطالًا بمكانٍ ما، وبطريقةٍ ما. سأجد بنطالًا، ستفي أي خرَق قديمة بالغرض. وقد اتجهت إلى البلدة أثناء انغماسي في تلك الأفكار، عِندها صادفت مُعلِّبًا يُشبهني بالضبط، يمشي بالمنطقة عند طرف الجسر. لقد فات الأوان، برأيي، لم يكن هُناك متسع من الوقت للبنطال وكان عليَّ الوصول إلى المستشفى.

بدأت تضحك فجأة. أمالت جسدها فوق كعبيها وهي تهتزُّ ضاحكة. في البدء ضحك كريه ساخر، لكن في المنتصف غادرته النكهة اللاذعة، واستحال ضحكًا مستمتعًا. تفرغ من الضَّحك، تسترخي، وتتبدَّل نبرتها لنبرة جَذِلة ودودة.

- لا أكترث لتعرِّيك. الوعد وعد.

- آسف. ألا يمكنك أن تُقرضيني بنطالًا؟ أي بنطال قديم سَيفِي بالغرض.

- طيب، إذن، سأتعرَّى أنا الأخرى. على أي حال، أنت تنوي أن تلتقط صورة لي، حسبما أعتقد. ليس علينا أنْ نخجل، وكلانا عارٍ؟

- ليس الرجل العاري بأمرٍ ذي بال، أليس كذلك؟

- أوه، أنت مُخطئ.

تُجيب بملامح مُحايدة، وتبدأ على الفور بخلع ثيابها. البلوزة؛ التنُّورة؛ السُّوتيان.

- لا يروق لي هذا الصندوق. لا أُطيقه ثانية أخرى.

تقف عارية أمامي دون تحفُّظ. حول شفتيها لمسَةُ غيظ، لكن في عينيها يتوارى استعطاف خبيث. هي عارية، لكن لا يبدو أنَّها عارية مُطلقًا. التعرِّي يناسبها بدرجةٍ كبيرة، بخلافي. أتصوَّر أنَّ الجزء الأسفل من جسدي الَّذي تجرَّد من العُلبة، بوجه خاص، هزليٌّ بصورة مُفرِطة.

- أغمضي عينيك برهة. تحوَّلي إلى ذلك الاتجاه.

- لا بأس.

تُردد وقَدِ امتلأ صوتها بالضحك. تُدير ظهرها وتميل بكتفها على جدار الرُّواق. أخلع ثيابي وأحسُّ أنَّ جسدي بالكامل يرتعش قليلًا. أتخلَّص من الصُّندوق بهدوءٍ وأقترب منها مِنَ الخلف بلا ضجَّة، ثم أضع يدي فوق كتفها. لا تحاول المقاومة فأختصر المسافة بيننا أكثر، وأردد بيني وبين نفسي بلهجةٍ قاطعةٍ أثناء اقترابي أنَّه ينبغي عليَّ أنْ أحافظ باستمرار على هذا القُرب.

- هل الأمور على ما يُرام؟ تُرى ماذا لو اضطر الطبيب للعودة؟

- لن يعود. بل إنَّه لا يرغب حتَّى..

- رائحة شعرك طيبة جِدًّا.

- يا لجمال ردفيك المشدودين..!

- أعترف... كنتُ مزيَّفًا.

- شششش... لا تقُلْ شيئًا..

- لكن تلك الدَّفاتر حقيقيَّة. إنَّها الوصيَّة التي أعطاها لي المعلَّب الحقيقي كي أحتفظ بها.

- العرق يغمرك تمامًا..

(لكن لا حاجة للاعتذار. ذلك أنَّ الكتابات التي يتركها الموتى لا يُمكن التسليم حتمًا بأنَّها حقيقية. فأولئك الَّذين هم على وشك الموت لديهم غيرة وحسد غير مفهومين تجاه الأحياء، ومِنْ بينهم هؤلاء الجانحون الَّذين تقلُّ كراهيتهم نحو معسول الكلام بشأن «الحقيقة» لأدنى درجة، والَّذين يتستَّرون في أفضل الظروف على الأكاذيب. إنْ المرء يعجز تمامًا عن ابتلاع الطُّعْم كاملًا لمجرَّد أنَّها كتابات المُتوفَّى).

يخلع المعلَّب عُلبته داخل حُلْمه. هل هذا هو الحلم الَّذي راوده قبل أنْ يبدأ بالحياة داخل عُلبة، أم هو حلم حياته بعد أنْ رحل عنها...؟

كنت مُتَّجهًا نحو البيت الموجود على قِمَّة مُنحدَر عند مَخْرَج المدينة. وصلت في نهاية المطاف أمام البوَّابة، بعد أنْ سافرت طويلًا باستخدام عربة يجرُّها حصان. رُبَّما يكون البيت عند المدخَل لا عند المخرَج، بالنظر إلى طول الرحلة.

ليست العربة التي يجرُّها حصان إلا عبارة دارجة؛ ذلك أنَّه لم يكن حصانًا بل في الواقع رجلٌ يلبس فوق رأسه عُلبة من كرتون. كان الرَّجُل هو أبي إن شئنا الدِّقة. وكان قَدْ تجاوز السِّتين بالفعل. لذلك كان من الطبيعي أن تكون لديه بعض الجوانب المُحافظة؛ وبالتالي أصرَّ أن يقوم بنفسه مقام الحصان بعد أن رفض بكل قوَّته أن نتخلَّى عن عادة مُتوارثة داخل القرية منذ عصور سحيقة، مفادُها ضرورة أن أقابل العروس ليلة الزفاف على

مَتْن حنطور. على أي حال، أخفى أبي نفسه داخل عُلبة كرتون حتَّى لا يتسبب لي في الحرج، واضعًا في اعتباره أيضًا ألَّا يصدم العروس.

بالطبع ما كان الحال يصل بأبي لهذا الحدِّ قطُّ لو كنتُ أمتلك أجرة استئجار عربة حنطور. ولا كنت طلبت ذلك منه. وعمومًا، كانت فكرة أن أتخلَّى عن الزفاف لأنَّني أعجز عن سداد أجرة حنطور أمرًا مُشينًا. هكذا لم يكن أمامي في الواقع إلا أن أُعوِّل على مساعي أبي الحميدة.

لكن أبي الَّذي كان يبلغ مِنَ العمر ستين عامًا بالفعل ليس حصانًا بالقطع. كان يركض لاهثًا فوق طريقٍ وَعرٍ مُنحدر، ورغم ذلك لم تبلغ سرعته عُشر سرعة حُصان حقيقي. لم يكن في وسعي حتمًا أن أنزل وأدفع العربة من الخلف، فراحت العربة تزحف بطيئة. كان الزَّمن وحده ما مضى عنيفًا. إضافةً إلى ذلك، بلغ نداء الطبيعة ذروته بسبب الارتجاجات العنيفة، ولا يُمكن لومي على ذلك.

توقَّف الحنطور. وفكَّ أبي شيئًا مِنَ العُلبة بدت مثل حزام جلدي (لا أدري اسمه) يُربط ببطن الحصان ثُمَّ رفع بصره نحوي عبر نافذة الرؤية المفتوحة في واجهة الصندوق، وابتسم ابتسامة شاحبة، مُنهكة. تكلَّفتُ الابتسام وتقدَّمت ببطءٍ أهبط مِنْ عربة الأمتعة. قلت حنطورًا، لكن في الواقع كانت عربة أمتعة. لم يكن هناك اتفاق على ألَّا تكون عربة أمتعة، وأستطيع بعد زواجي أنْ أفعل بها ما أشاء. أركض وألهث وأنا أجرُّ قدميَّ إلى جانب الطَّريق، وفي الوقت نفسه أفتح سوستة البنطال. راودني إحساس عميق بأنني تحرَّرت فيما يخفُّ الضغط على مثانتي، كأنَّني أحلِّق فوق جبال بعيدة.

- شوبان! يا لها مِنْ معزوفة!

تردَّدت مِنْ ورائي صرخة أبي الحائرة. كنتُ مُفرطًا في لا مبالاتي. وقد انتصب دغل من أشجار النخيل بين بيت العروس والطريق، تأكَّد لي أنَّه يُخفيني تمامًا. لكن عروسي كانت قد تعبت من الانتظار، وبدا أنَّها سمعت صوت العربة من بعيد فخرجت على الفور إلى جانب الطَّريق كي تُرحِّب بي. ومِنْ سخرية القدر أخفت نفسها بسبب الحياء والعنت وراء أشجار النَّخيل التي كنت أستتر خلفها. تبادلنا النظرات ورأت عَوْرَتي دون شكّ. فرفرف ثوبها الأبيض بين الغصون وسمعت خطواتها الرَّاكضة الخفيفة وصوت باب يُصفق كأنَّ مطرقة خشبيَّة تدقُّه. لقد ضاع كل شيء. يحتدم صدري وأنا أعبر الحبل المتمايل بين الرَّجاء واليأس، وقبل أن أصل إلى الجانب المُقابل بخطوَة واحدة أخرى فحَسْب، كان الفأس قد هوى. وأصابتني خيبة أمل عميقة.

- أنت وليُّها يا أبي. افعل شيئًا أتوسَّل إليك.

انهمرت دموع الاستياء، دون أنْ يتوقَّف بَوْلي عن التدفُّق وأنا أبكي مقهورًا، حتَّى صنع بولي حُفرة في الأرض على هيئة بركة صفراء تنفثُ بُخارًا وهي تتسع شيئًا فشيئًا.

آنئذٍ قال لي أبي ناصحًا وهو ينقر فوق بطن الصُّندوق عدة نقرات متتابعة بيده التي أخرجها مِنَ الفتحة:

- أَصْغِ يا شوبانْ، ليتك تتخلَّى عن الأمر برُمَّته. ليتك تكفُّ عن هذا

الجهاد المهدور؛ إذْ لا يصلح الرَّجُل المهووس بكشف عورته للزواج... هذا إحساس عام لدى بنات اليوم.

- لكنَّي لست مهووسًا بكشف عورتي!

- قد يبدو الأمر هكذا بالنسبة إليها. لقد رأتك، كما تعلم.

- لكننا كُنَّا سنتزوَّج على أي حال، إذن ما الفارق..

- أتوسَّل إليك، ألا تستطيع أن تُظهر بعض الاحترام لأبيك الَّذي بلغ به الحال أن جعل من نفسه حصانًا؟ لحسن الحظِّ أنْ لم يكن هُناك شهود عيان آخرون؛ ذلك أنَّني ما كنت أرغب في أن يعرف أي أحد عن هذه الفضيحة، حتَّى ولو كُتبت مئات المُجلَّدات عَنْ سيرة شوبانْ الذَّاتية. الأقدار التي تعوِّل على التبوُّل لا تصلح لكتابة سيرة ذاتية على الإطلاق. على الإطلاق حقًّا. لا أزعم بالطبع أنَّك أخطأت؛ ذلك أنَّ المسئولية تقع على عاتق مَن يتحاملون ضد كشف العورة وعلى إدارة البلديَّة التي تهمل بناء مراحيض عموميَّة. حسنًا، هيَّا بِنا. ليس لديك ما يربطك بتلك البلدة، فَلْنَذْهَب إذن إلى مدينة كبيرة حيثُ توجد وفرة من المراحيض العامَّة. وهناك سنتبوَّل ونتغوَّط كيفما نشاء.

لَنْ يبرأ جُرح فؤادي بمجرَّد السَّفر إلى مدينة. لكن لِمَ كان أبي يُشير لي باسم شوبانْ؟ أقرر ألا أتمسَّك برأيي حين أُفكِّر أنَّني لست الوحيد الَّذي تأذَّى. هكذا... أوافق تمامًا على ما ذهب إليه أبي لَمَّا قال إنَّ هذه البلدة لم تعُد مكانًا يصلح للإقامة. وكان الوقوف بلا حولٍ ولا قوَّةٍ أثناء التبوُّل قد أصابني باضطراب شديد.

تخلّينا عن العربة، لكن أبي رفض بشكلٍ قاطع أنْ يخلع العُلبة. كان شريكًا في المسئوليَّة عن الوضع الرَّاهن؛ لذلك أصرَّ على أنَّه كان مِنْ واجبه باعتباره أبي أنْ يواصل لعب دور الحصان بالوقت الحالي. فصعدت فوق كتفيه موليًا ظهري للبلدة التي عشت فيها فترة طويلة.

استأجرنا على الفور حين وصلنا إلى المدينة حُجرةً فوق السُّطوح مزودة ببيانو وقررنا الاستفادة بوقتنا. كنت أحسُّ أنَّنا دُرنا ودخلنا بيتها مِنَ الخلف، لكن هذه النُّقطة لم تكن واضحة. العمل اليدوي أفضل لصرف الانتباه عن الأسى. وقَدْ حصل أبي بطريقةٍ أو بأخرى على ورق رسم وأقلام، فرحت أرسمها مِنَ الذَّاكرة مستندًا على البيانو. ولست في حاجة إلى أن أقول إنَّ لوحاتي تحوَّلت إلى صور امرأة عارية حين غدوتُ أكثر براعةً في الرسم.

- شوبانْ، موهبتك ليست سيئة. أعترف وأعتقد أنَّك تدرك ذلك، لكن بذات الوقت فإنَّ وضعنا المالي ليس في أفضل حالاته. لِذا ما الحل؟ جرِّب ألَّا تسرف بالورق وارسم صورًا أصغر.

كان أبي مُحِقًّا. لكن مسألة كِبر حجم الورق أو صِغره ليست المشكلة؛ إذْ كان رسم لوحات أصغر بالقلم مسألة أسهل. هكذا رحت أواصل العمل وأقلِّل بالتدريج من مقاس الورق الَّذي زاد استهلاكي له؛ بسبب السرعة النسبيَّة التي أصبحت أنجز بها اللوحات نتيجة حجم الورق الصغير. كما عوَّدت نفسي بعد فترة على رسم خطوط بالغة الدِّقة يتعذَّر على العين المجرَّدة تمييزها، وذلك مِنْ خلال استعمال عدسة مُكبِّرة وتثبيت أجزاء مِنْ ورقٍ بحجم راحة الإبهام في لوح الرسم باستخدام الدبابيس. كنت أستطيع

خلال هذا الوقت فقط الَّذي أقضيه بالتَّركيز في رسم هذه اللوحات، أنْ أكون برفقتها.

عِند نقطةٍ ما انتبهت لشيءٍ غريب. كانت غُرفة السُّطوح التي كان من المُفترض أن تكون هادئة تمامًا، قد غدت ممتلئة بالبشر. لِمَ لَمْ أنتبه لذلك قبل الآن؟ اصطفَّ طابور مِنَ الباب إلى واجهة البيانو، وبدا ممتدًّا حتَّى داخل الرُّواق. كان الَّذي على رأس الطَّابور يضع نقودًا داخل العُلبة (أبي بالطبع) إلى جانب البيانو ويتسلَّم اللوحة التي انتهيتُ من رسمها للتوِّ باحترام كبير. لم أندهش قطّ، بل أحسست كذلك أنَّ هذا الوضع كان قائمًا منذ فترة. كان الطعام قد تحسَّن كثيرًا بالفترة الأخيرة، وتبدَّل البيانو القديم الَّذي كنت أستعمله كمنضدة إلى بيانو آخر جديد ومَهيب. كانت عُلبة أبي قد تحسَّنت كثيرًا هي الأخرى؛ إذْ تغيَّرت من عُلبة كرتون إلى عُلبة مِنَ الجلد الأحمر الأصلي وذات إبزيم. ما لم أكن أعرفه هو أنَّنا كُنَّا قد أصبحنا محلَّ ترحيبٍ كبيرٍ من العالم؛ إذْ ما إن أنْتهِ من رسم لوحة إلَّا وتكون قد بيعت مهما كان عدد ما أرسمه من لوحات. ولم يكن طابور المشترين ينضُب قطّ.

لكن مثل هذه الظروف، عند هذه النُّقطة، لم تكن غير ذات أهمية. كان من الواضح أنَّنا اشترينا حصانًا حقيقيًّا بالنقود التي جنيناها، لكنني لم آبَه. ففي الحقيقة كنت لَمْ أرَ أبي قط يغادر العُلبة منذُ انهيار زواجي ولا مرَّة واحدة، ما أصابني بشكٍّ هائل في هُويَّة الرَّجُل داخل العُلبة، وجعلني أتساءل هل هو أبي الحقيقي أم لا. لكن في الحقيقة كان مصدر حزني هو أنَّه برغم أنَّ المرأة التي أرسمها في لوحاتي كانت دائمًا نفس المرأة، إلا أنَّ

المرأة الحقيقيَّة كانت لا بد شاخت بمرور الزَّمن، ولَنْ أتمكَّن من استعادتها أبدًا. كانت آلام افتراقنا تتجدد بقوَّة كلما خطرت لي هذه الأفكار، فتطفح الدموع من قنواتي الدمعية الضعيفة دون سبب على الإطلاق. آنئذٍ كان أبي يمد يده خارج الصندوق يتدلَّى منها منديل جديد من الحرير يجفف به دموعي. وعلى أي حال، كانت الصور التي أرسمها صغيرة جدًّا لذلك كانت تتبقَّع ما إن تسقط عليها قطرة دمع واحدة وتغدو بلا جدوى.

لم يعُد ثَمَّة من يجهل اسمي الآن بسبب اللوحات التي كنت أرسمها. كما لن ترى موسوعة إلا وتضم مقالًا عن شوبانْ؛ منتج ومُخترع أول طابع بريد في العالم. ومع تقدُّم العمليات البريديَّة إلى جانب تأميمها بالتدريج، اشتهر اسمي كمزوِّر لتلك الطوابع. ويبدو أنَّ هذا هو السبب الأكثر إقناعًا وراء عدم عرض صورتي داخل أي مكتب بوستة. وحده اللون الأحمر؛ لون الصندوق الذِي كان أبي يستخدمه في أيامه الأخيرة، ما بقي مستخدمًا، إلى حدٍّ ما، في صناديق البريد.

خمس دقائق قبل إسدال الستار

– بيني وبينك تهبُّ الآن رياحٌ خانقة. رياحٌ حارقةٌ حِسيَّة تهبُّ حولنا. لا أدري متى بدأت بالتحديد. لكنني أبدو بسبب قوَّة العاصفة وسخونة الجو، كمَن أضاع إحساسه بالزَّمن.

لكنني أدرك أيضًا على أي حال أنَّ اتجاه العاصفة قد يتغيَّر. ستتحوَّل بغتةً إلى رياحٍ غربيَّةٍ باردة؛ ومن ثَمَّ تنسلخ هذه الرياح السَّاخنة بعيدًا عن جلدي كأنَّها سراب، ولن أتمكَّن من تذكُّرها حتَّى. بلى، الرياح السَّاخنة بالغة العنف وهي تُخفي في ثناياها حَدْسًا بنهايتها.

أتساءل عن السبب. لن يكون العثور على تفسير شيئًا مستحيلًا لو بحثت عنه. ورغم ذلك فإن ما يهمُّ هو ما إذا كنتِ ستنصتين لهذا التفسير أم لا. على العموم، أدرك أنَّني أقوم بعرضٍ مسرحيٍّ من بطولة رجل واحد، ولا أريد أن تَمَلِّي. لذا ما رأيك... هل أستمر، أم...؟

- نعم، نعم، لكن اجعله قصيرًا...

- قصير؟ خمس دقائق مثلًا...؟

- أعتقد أنَّها مُدَّة لا بأس بها.

- نحن عاشقان بالطبع كما تعلمين. وما بيننا من حُبٍّ يختلف عن مثيله الَّذي ينمو بالتدريج، ويتحوَّل إلى برج عالٍ من الضباب والتجمُّد حدًّا يبلغ الكمال. حُبّ متناقض يبدأ من النِّهاية... وينشأ من إدراك أنَّه ضائع. لقد عبَّر أحد الشعراء عن ذلك بشكلٍ فريدٍ حين قال إنَّه من الرائع أنْ تُحِب، لكن أن تغدو محبوبًا هو أمرٌ كريه. نحنُ عاشقان يجمع بينهما حُبٌّ يبدأ بضياع الحُبّ؛ وبالتالي، ما من ظلال على الإطلاق. لا أدري هل هذا شيء جميل أم لا، لكنَّ المعذَّبين من المُحبِّين من هذا النوع لا يصيبهم الجزع على أي حال.

- لِمَ ذلك؟

- لِمَ ماذا؟

- ما الغاية مِنَ الاستمرار في الحديث عمَّا راح وانتهى؟

- لم ينتهِ. علاقتنا تبدأ بحبٍّ ضائع. في الواقع، الرياح الحامية تُهبُّ أقوى.

- لأنَّ هذا الصيف حار.

- يبدو أنَّك لم تفهمي الغاية من كلامي. هذه حكاية تحدث الآن بالطبع. وما دمت تسمعينها فأنت ملتزمة بأن تتحولي إلى أحد شخوصها. هناك الآن من يقول لك إنَّه يُحبُّك. يا لها من ورطة فادحة سأقع فيها إنْ لَمْ تلعبي دورك، بصرف النَّظر عن مشقَّته أو سخافته!.

- لِمَ أتساءل؟

- ليست النهاية ما يهمُّ، بل مشاعرك الحقيقية بالرياح الساخنة فوق جلدك. كما أنَّ خاتمة الرواية ليست هي المشكلة، بل الرياح الساخنة ما يهمُّ الآن. ففِيها تُنشر الكلمات والأحاسيس التي كانت غافية نورًا أزرق كأنَّها ذات كهربيَّة عالية الجهد. هذا وقت نادر يمكننا أن نرى فيه بعيوننا الروح وقد آلت إلى مادَّة.

- مُدهش. لن تتأذَّى أبدًا لو غازلتَ امرأةً بتلك الطريقة. لكن نيَّاتك شديدة الوضوح.

- أظنُّ أن نصفها حقيقي. لكننا قد نتوقّف لو فشلت في تصديق النصف الآخر.

- هل تريد الاستمرار؟

- بالتأكيد.

- لديك دقيقتان إضافيتان.

- تُرغمين نفسك على التحمُّل.

- ليتك لا تهدر الوقت.

- لا بأس، سأراعي الوقت؛ إذ لن يعود مرَّة أخرى. ليست لي مكانة تُذكر في قلبك مقارنةً بمكانتك في قلبي. لكن حين أحاول الفرار من ذلك الألم يذوب الزَّمن ببطءٍ شديد. ربما يكون ثَمَّة أمل في أن أحظى بالقليل من السلام والسعادة لو كنت بارعًا بفنيَّات الغَزَل. لذلك أريد أن أشدد على الرياح السَّاخنة التي من الصعب أن تهبَّ، والتي تبدأ بحُبٍّ ضائع. غابات رائعة مِنَ الكلمات وبحار مِنَ الرَّغبة... إنَّ الزَّمن يتوقّف ما إن ألمس بشرتك بأصابعي، ويقترب الخلود. ويعتري التحوُّل جسدي بسبب آلام هذه الرياح الساخنة، تحوُّل لَنْ يختفي حتَّى أموت.

عندئذٍ تبلغ المسرحيَّة نهايتها

دون أنْ يدقَّ الجرس،

إيذانًا بإسدال الستار.

والآن أستطيع الكلام بوضوحٍ وبكل ثقة. لم أكن مُخطئًا، ربما فشلت، لكن لم أكن مُخطئًا. وهذا الفشل ليس داعيًا للندم؛ لأنَّني لم أستمر في الحياة حُبًّا في النتيجة بوجهٍ خاص.

أسمع صوت الباب الأمامي ينغلق.

لقد رَحَلَتْ. لست غاضبًا ولا أحسُّ بالمرارة. كان صوت انغلاق الباب ملآنَ بالتعاطف والإشفاق العميقين. ما من خصومةٍ بيننا ولا نزاع. بل إنَّني أتصوَّر أنَّه حتَّى هي، في حال أمكن ذلك، كانت ستتمنَّى أن تختفي دون أن تستعمل الباب الأمامي. لذلك كانت مُترددة في مسألة إغلاقه. سأدق الباب بالمسامير بعد أن أنتظر عشر دقائق. لا أتوقَّع أن تعود، لكن سأنتظر حتَّى تبتعد بما يكفي كي لا تسمع صوت دقَّات المطرقة.

حين أفرغ مِنَ المدخل، لن يتبقَّى إلا القفل فوق باب دَرَج الطوارئ بالطابق الثَّاني. هكذا لن يجد نور الشَّمس منفذًا يتسلل منه أثناء النَّهار ما دامت النوافذ والفتحات مُغلقة بإحكام بالخشب الحُبَيْبي أو ورق الكرتون. لا ريب في ذلك في هذه الليلة المُعتمة. المبنى بأكمله معزول تمامًا عن العالم الخارجي، وما من مداخل أو مخارج. سأغادر بعد أن تنقضي مهمَّتي. هروب لا يقدر عليه إلا مُعلَّب. أمَّا بالنسبة إلى الجهة التي سأهرب إليها وبأي وسيلة، فسأكتب عن ذلك في نهاية تلك الدَّفاتر.

تمضي عشر دقائق.

انتهيت الآن من دقِّ المدخل بالمسامير. تحقَّق ما كنت أرمي إليه، لكن أثناء ذلك جرحت ظفر إبهامي اليُسرى ونزفت بعض الدماء لكن الألم تبدَّد على الفور.

حين أفكِّر في هذا، في أنَّنا لم نتبادل كلمة واحدة منذُ عدت مِنَ الخارج إلى أنْ غادرت، أشعر ببعض الندم. على أنَّني لم أتخيَّل أنَّ النَّدم كان سيزول لو كنت تكلَّمت معها. كان الأوان الَّذي تكون فيه الكلمات مفيدة قد مضى بالفعل؛ إذْ كان كل مِنَّا يفهم الآخر بمجرَّد تبادل النظرات. كان هذا التواصُل المُطلق ظاهرة غريبة تبدَّت في سيرورة حُبِّنا المتفسِّخ.

كانت ملامحها مشدودة بعض الشيء، أو رُبَّما بدت هكذا بسبب طبيعة الضوء. على أي حال، لم يُمثِّل التغير في تعبير وجهها سوى أهميَّة قليلة بالنسبة إليَّ؛ إذ لم يكن هذا التغيُّر سوى جزء بسيط من التغيير الَّذي أصابها. كان الشيء المهم هو أنَّها ارتدت ثوبًا. أمَّا شكله فلم تكن له أي أهمية هنا؛ إذْ ظلَّت عارية زُهَاء شهرين. وكنت أنا الآخر عاريًا في عُلبتي. كُنَّا نتعرَّى معًا داخل البيت حيث لا أحد سوانا. آنذاك كنا ننزع شارة الاسم وشارة الباب ونشعل الضوء الأحمر عند البوابة؛ فتوقَّف حتَّى الزوار عن المجيء ولو صدفة. هكذا لم يعُد هناك ما يدعو لتعليق يافطة تُعلن إلغاء إجراء الفحوصات الطبيَّة.

كنت ألبس العُلبة وأخرج إلى البلدة مرَّة واحدة فقط كل يوم. أتسكَّع في الشَّوارع كأنني رجل شفَّاف، فأدور كي أُلملِم كل ما نحتاج إليه للاستعمال اليومي ولا سيَّما الطعام، دون أن أخشى التعرُّض للاعتقال طالما لا أرتاد أي متجر أكثر مِنْ مرَّة واحدة كل شهر. لم تكن حياتنا مُرفَّهة، لكن أيضًا لم تكن تنقصنا وسائل الراحة. وكنتُ واثقًا من قدرتنا على الاستمرار في الحياة على هذا المنوال سنوات طوال، حتى ولو لَمْ يكن هُناك سوانا في هذه الدنيا.

كنت أجدُها في انتظاري حين أتسلَّق دَرَج الطوارئ الخلفي وأخلع العُلبة وحذائي في رُواق الطابق الثاني فتأتي راكضةً مِن أسفل. كانت هذه هي اللحظة الأكثر إثارةً خلال اليوم كُلِّه، والتي دائمًا ما ينتصب فيها عضوي ولو لفترة قصيرة. كُنَّا نتمايل وكُلٌّ مِنَّا يحتضن الآخر فلا تستطيع تمرير ورقة بيننا. من ناحية أخرى، كان قاموس مفرداتنا هزيلًا على نحوٍ مُريع. إذْ كنت حين أهمس في أذنها بكلمات عن العبق الَّذي يفوح من شعرها عندما تُقرِّب رأسها من أنفي، ترد بكلمات تصف بها نعومة واستدارة ردفيَّ، ثم تُربِّت فوقهما عدة مرَّات. لكن نادرًا ما كنت آبَه لذلك؛ إذْ منذُ متى كانت الكلمات تكشف عن طبيعة الأشخاص؟ كما أنَّني لم أتخيَّل أنَّ المشرحة القريبة مِنَ الدَّرَج يمكن أنْ تلقي بظلالها بيننا. كُنَّا قد قررنا أن نتجاهل وجودها تمامًا، وحين نجحنا في ذلك لم يعُد للحجرة وجود.

بعد بضع دقائق، ننفصل ونتجه إلى المطبخ في نهاية الرُّواق. لكن رغم انفصالنا كُنَّا نُحافظ على جسدينا متلامسين دائمًا. فكنتُ أقعد عند قدميها مثلًا ولا أكفُّ عن تمرير يدي فوق ساقيها بهدوء ورَويَّة أثناء تقشيرها البطاطس أو فرم الكُرَّاث في الحوض. كان العفَن ينمو خفيفًا على أرضيَّة المطبخ. وكان المطبخ الحقيقي يقع بالطابق التحتاني، أمَّا هذا المطبخ الَّذي شُيِّد في السابق من أجل نزلاء المستشفى، فكان مُهمَلًا وغير مستعمل لحدٍّ كبير. وقد استعملناه من أجل ذلك السبب بالتحديد. ثَمَّة غرفة فارغة بالجهة الأخرى من الرُّواق كانت مناسبة لوضع مُخلفات المطبخ. خضار بائت؛ رؤوس أسماك؛ وأشياء مُشابهة كُنا نحتفظ بها مؤقتًا داخل أكياس بلاستيكيَّة، قبل أن تقتحمها الفئران بحثًا عن الطعام، فتتناثر محتوياتها

بكل ركن على الأرض. وقد بدأت هذه المخلفات في التعفُّن بعد نصف يوم، لتندفع رائحتها النتنة العالقة في كل مرَّة ينفتح فيها الباب أو يوصد. لكن الرائحة لم تكن تزعجنا، إذْ يبدو أنَّ حاسَّة الشمِّ لدينا تشهد تحولًا حين نلمس جسدًا آخر. ومن ثَمَّ أيضًا رُبَّما نكون قد أحسسنا دون وعي واضح أنَّ هذه الرائحة تتيح لنا فرصة مناسبة لنسيان وجود المشرحة. وهكذا لم نكن نتكلَّم إلا عن تقديرنا المتفائل بأنَّ الحجرة لن تمتلئ بالقمامة قبل ستة أشهر على الأقل.

لكن هل كان تقديرنا متفائلًا حقًّا؟ أظنُّ أنَّنا أحجمنا عن الأمل منذُ البداية. الشَّغف هو الدَّافع للانطفاء، لكن رُبَّما كُنا نتعجَّل هذا الانطفاء أكثر مِنَ اللازم. كُنَّا نخشى أن نكفَّ عن حبِّ بعضنا البعض قبل أنْ ننطفئ، لكن في الوقت ذاته لم نكن واثقين من رغبتنا في الاستمرار بنفس الطريقة التي يواصل بها البشر عادة. ولأنَّنا لم نتمكَّن من تخيُّل الأوضاع بعد ستَّة أشهر حين تمتلئ الحجرة بالنُّفايات، فقد واصل كل مِنَّا لمس جزء أو آخر من جسد رفيقه طوال اليوم. كُنا نادرًا ما نخرج من دائرة قطرها ثمانية أقدام، وهي مسافة لا يُمكن تقريبًا رؤية الشَّخص الآخر عندها، لكننا لم نكترث. كُنَّا نشعر أنَّنا نرى بعضنا حقًّا حين نصل في مخيلتينا بين أجزاء كُل مِنَّا، إضافة إلى أنَّ إحساس التحرُّر من أن تكون مرئيًّا كان إحساسًا عظيمًا. كنتُ أذوب أمامها ولم يكن يصدر عنها أي تعليق مسموع خلال تحسُّسها جسدي كاملًا باستثناء تعليقاتها عن ملمس ردفيَّ... سواء بالإعجاب أو النفور. لكن ذلك لم يزعجني؛ إذْ كانت الكلمات نفسها قد بدأت تفقد معانيها. وتوقَّف الزَّمن. ثلاثة أيام؛ ثلاثة أسابيع؛ لا فرق. سينطفئ في لحظةٍ ما بيننا من حُبٍّ مهما اتَّقد.

هكذا لم أرتبك حين انتبهت إلى أنَّه بدلًا مِنْ أن تُهرع نحوي امرأة عارية، كانت المرأة التي تقترب مِنِّي ترتدي ثيابًا وتتطلَّع إليَّ في سُكات. أحسست ببعض من خيبة الأمل التي تراود من يعودون إلى نقطة البداية. وكان عُريي يدعو للرثاء بصورة مُريعة؛ فعدت إلى العُلبة مثل المطرود بلا حول ولا قوَّة سوى انتظار أن تُغادر. كشَّرت ونظرت حولها زاعمةً في الوقت ذاته أنَّها لم تنتبه لوجودي، بل تحاول فحسب أن تتبيَّن مصدر الرائحة النتنة. ألقت نظرة متأنية مِنْ فوق كتفها ومِنْ ثَمَّ انسحبت إلى حجرتها. فعُدت أدراجي إلى قاعة الفحوص الطبيَّة السابقة وأنا أكتم خطواتي. تُرى هل يُمكننا أن ننجح لو بدأنا مرَّة أخرى مِنْ جديد، لَوْ كانت هذه نقطة البداية؟ لا ريب أنَّه من الممكن أن نبدأ من جديد أي عدد من المرَّات. أعتصر أُذنيَّ، وأتنصَّت عليها في الرُّواق بالخارج. ما مِنْ إشارة تدل على أنَّها تتحرَّك. أليس من المحتمل أنَّها تنتظر أن أقترح عليها أن نبدأ من جديد؟ لكن بصرف النَّظر عن عدد المرَّات التي نبدأ فيها من جديد، فإنَّ الزَّمن ذاته؛ والمكان ذاته؛ سيتكرران بكل بساطة.

يبلى قُرص السَّاعة بشكلٍ غير متساوٍ،
والأكثر تآكلا
هو المنطقة حول العلامة الثَّامنة.
المنطقة التي أحدِّق فيها بنظرات وقحة
دون كلل، مرَّتين يوميًّا،
هذه طريقة بالية.
على الجانب الآخر

المنطقة حول العلامة الثانية
نصف رثَّة،
لأنَّ العينين المُغمضتين أثناء الليل
تعبران فوقها دون أنْ تتوقفا.
لو أنَّ هناك من يمتلك ساعة يد تلفت معالمها بنفس القدر،
يكون هو الَّذي، بعد أن أخفق في البداية، يُدير الساعة لفَّة واحدة للوراء.

هكذا يغدو العالم دائمًا مقدار لفَّة ساعة –
والعالم الَّذي يظنُّ أنَّه يراه
لم يبدأ بعد.
زمن مُخاتل،
وحين تتعامد عقارب السَّاعة فوق القرص،
دون أنْ يعلن الجرس موعد رفع الستار،
تكون المسرحيَّة قد بلغت نهايتها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

***

والآن اعترافي الأخير. سمعت في الحقيقة جلبة الباب المؤدِّي إلى حجرتها. إذْ كان من المستحيل أن أسمع صوت الباب الأمامي الَّذي ثبَّتُّه بالمسامير منذ البداية. كان الأخير هو الباب الأكثر إزعاجًا فضلًا عن إغلاقه بإحكام؛

لذلك لا يُمكنها أن تخرج من هذا الجانب، ودَرَج الطوارئ مُوصد. لا بد إذن أنَّها الآن مُحاصرة داخل المبنى حيثُ لا يفصلني عنها إلا تلك البلوزة والتنُّورة اللعينتان. سيزول أثر الثياب لو قُطعت الكهرباء، وسيغدو احتجابها في الظلام مساويًا لتعرِّيها. لا أُطيق أنْ تراني وهي تلبس ثيابًا. ولا فرق بين أن تكون في عتمة أو في رفقة رجل كفيف. سترقُّ مرَّةً أخرى، أمَّا أنا فقد تحررت كُليًّا مِنَ الرغبة في تصديع رأسي بخطة غير جذَّابة لفقءِ عينيها أو ما شابه.

سأحبس العالم في العلبة بدلًا من مغادرتها. لا بد أنَّ العالم أغمض عينيه الآن، وستسير الأمور قطعًا كما أشاء. تخلَّصت مِنَ الأدوات الموجودة داخل المبنى والتي مِنْ شأنها أن تصنع ظلالًا أو أشكالًا كأعواد الثقاب والشموع والولاعات، ناهيك عن البطَّارية.

أفصل التيار الكهربائي بعد فترة وأفتش في حجرتها، دون أن أفضح وجودي عامدًا، ودون أن أتسلل خلسة أيضًا. خلعت العُلبة بالطبع وأنا الآن عارٍ. لم أكن أتوقَّع إلا إشارات ضعيفة تكشف عن وجودها في أعماق العتمة وقَدْ أدهشني ما أصاب الحجرة من تغيير مفاجئ يتناقض جِدًّا مع ما كنت أنتظره. في الحقيقة كنت حيرانَ أكثر مِنِّي مندهشًا. كان الفراغ الَّذي كان يُفترض أنْ يكون غُرفة قد تحوَّل إلى زقاق يُشبه الأزقَّة الموجودة وراء المحالِّ المتاخمة لمحطَّةٍ ما. على الجانب الآخر مِنَ الزقاق أمام المحالِّ نهضت عمارة تضم مكتب عقارات جنبًا إلى جنب صالة خاصة لإيداع الأمتعة. كان الزقاق ضيقًا يتَّسع بالكاد لمرور شخص واحد، وكان في وسع من يرى المكان حتَّى دون دراية خاصَّة به أن يفترض من الطوبوغرافيا

والاتجاه أنَّه زقاق سدَّ على مشارف محطَّة قطار. كان زقاقًا لن يدخله إلا من يريد التبوُّل.

كان الممرُّ مسدودًا بحُزَم مِنْ خراطيم المياه؛ ومرمدة مصنوعة من أسطوانة معدنيَّة؛ وعُلب كرتون مُكدَّسة؛ وصفٍّ مِنْ نحو خمس مزهريات «بونساي» بدأت تجفّ؛ ودرَّاجات قديمة. أقول لنفسي لماذا تاهت داخل مكان كهذا؟ وحتَّى لو افترضنا أنَّها كانت تريد أن تحصل على علبة كرتون؛ هل كانت ستسرق عُلبة من هُنا وتحملها إلى مكان آخر؟

تقدَّمت أشقُّ طريقي عبر النُّفايات، وبلغت دَرَجًا صغيرًا ضيقًا من الإسمنت عند النهاية المسدودة. لم يكن الدَّرج غائرًا بل زهاء خمس درجات. لم أصدِّق ما رأيت حين وصلت إلى القاع؛ إذْ كانت تبرز شرفة خرسانيَّة متينة. أتخيَّل أنَّ خُطط بناء جسر علوي تغيَّرت أثناء البناء فتركوا تلك الشرفة على حالها كما هي الآن.

نزلت إلى الشُّرفة. اشتدَّت العاصفة فجأة، وترددت مِنْ بعيد أصوات بناء السِّكَك الحديدية أثناء الليل. شابَ السماءَ لونٌ أرجوانيّ محمر، كان بلا ريب انعكاس أضواء النيون في الشَّوارع على السحب. أتقدَّم خطوة أخرى، وبغتة يختفي كل شيء أمامي، وأرى قارعة الطريق أسفل قدميَّ بعشرين أو خمسة وعشرين قدمًا. أحسُّ أنَّني داخل مصعد بناء مُعلَّق في قلب هيكل عقار لم ينتهِ البنَّاؤون من بنائه. بين جدارين خرسانيين يذرفان دموعًا كأنَّها رَوَث طائر.

لا بد أنْ أعثر عليها. لكن ما من مكانٍ آخر يمكن أن أتَّجه إليه من هُنا؛ فهذا المكان جزء من فضاء مُغلق على أي حال. رغم ذلك، تُرى

أين اختفت؟ أنظر تحتي بحذرٍ شديد، لكنَّها كانت مُظلمة فلم أرَ شيئًا. ماذا سيحدث لو حاولت التقدُّم خطوة أخرى؟ أصابني الفضول، لكنني كنت أعرف أنَّ العثور عليها لن يكون أقرب من الآن. فعمومًا كانت كل الأطراف داخل العقار ذاته.

آه؛ بلى؛ قبل أنْ أنسى، ثَمَّة إضافة أخرى مهمة. من المهمّ جِدًّا أثناء اِعْتِمار العُلبة التأكُّد من ترك الكثير من الفراغات الصالحة للكتابة. كلَّا، ستتبقَّى دائمًا فراغات بيضاء؛ ذلك أنَّك لن تستطيع أبدًا أن تغطِّي الفراغات كافَّة مهما واظبت على الكتابة. هذا الأمر يُدهشني دائمًا؛ لكن الكتابة في الحقيقة فراغ على نحوٍ ما. وستبقى دائمًا على الأقل مساحة تكفي لكتابة اسم ما فيها. لكن لو أنَّك لا تريد أن تصدِّق هذا؛ فلا فرق.

تبدو العُلبة ظاهريًّا في الواقع مجرَّد متوازي سطوح قائم بريء وبسيط، لكنَّها تتحوَّل إلى متاهة تضم مئات من الألغاز المترابطة فيما بينها حين تنظر إليها من الدَّاخل. وهي تخلق كُلَّما زادت مقاومتك لها، كأنَّها جلد إضافي ينمو خارج الجسد، منعطفات جديدة تضيفها إلى المتاهة تضفي مزيدًا من التعقيد على نظامها الدَّاخلي.

الشيء المؤكَّد الوحيد هو أنَّها؛ هي التي لا أثر لها في الوقت الحالي، تختبئ في مكانٍ ما داخل هذه المتاهة. هي لا تهرب بالضرورة، بل لا تستطيع أن تعثر عليَّ. أقول هذا بوضوح وثقة. لست نادمًا. الأفكار كثيرة، وما من ريبٍ في أنَّ وجود الحقيقة ينبغي أن يكون على قدر تلك الأفكار.

أسمع صَفَّارة سيارة إسعاف تقترب.

كرونولوچيا

1920

7 مارس 1924: وُلِدَ آبي كيميفوسا (كوبو) في طوكيو. تنتقل أسرته إلى مكودينْ (شنيانغ حاليًّا) حيثُ عمل أبوه طبيبًا بكليَّة الطبِّ الإمبراطوريَّة في منشوريا.

1940

أبريل 1940: يلتحق كوبو آبي بمدرسة سييجو الثانويَّة في طوكيو.

سبتمبر 1943: يلتحق بالقسم الطبِّي في جامعة طوكيو الإمبراطوريَّة.

ديسمبر 1944: يشعر آبي بدنُوِّ هزيمة اليابان، ويُزيِّف شهادة طبيَّة تُتيح له مغادرة طوكيو والعودة إلى مكودينْ في منشوريا.

21 ديسمبر 1945: يُتوفَّى أبوه جرَّاء الكوليرا.

نوفمبر 1946: يقوم آبي برحلة إلى اليابان توفِّر له مادة لروايته التي صدرت عام 1957 *Kemonotachi wa kokyô o mezasu* (الوحوش تتجه للوطن).

مارس 1947: يتزوَّج الرَّسَّامة يامادا ماتشيكو.

مايو 1947: ينشر على نفقته الخاصة *Mumei shishû* (مجموعة شعريَّة مجهولة).

يناير 1948: ينضم للجماعة الطليعيَّة *Yoru no kai* (اتحاد الليل) مع النَّاقد الأدبي هانادا كيووتارو (1909 – 1974) والرَّسَّام أوكاموتو تارو (1911 – 1996) والكاتب هانيا يوتاكا (1909 –1997) حيثُ تعرَّف إلى الماركسيَّة والسرياليَّة.

مارس 1948: يتخرَّج في القسم الطبي بجامعة طوكيو الإمبراطوريَّة.

أكتوبر 1948: ينشر كتابه *Owarishimichi no shirube ni* (حتَّى اليافطة عند نهاية الطريق) بمطبعة شنزنباي.

20 أبريل 1949: ينشر قِصَّته القصيرة *Dendrocacalia* التي تلقَى استحسانًا بوصفها «الاستجابة الأولى والأعظم لصلوات الحركة الطليعيَّة».

1950

يناير 1950: تظهر قصصه *Akai mayû* (شرنقة حمراء) و *Kôzui* (الفيضان) و *Mahô no chôku* (الطَّبَاشير السِّحْري) و *Jigyô* (المشروع) في مجلَّة نينجنْ.

مارس 1951: ينضم للحزب الشُّيوعي الياباني.

أبريل 1951: تفوز قِصَّته «شرنقة حمراء» بجائزة أدب ما بعد الحرب في دورتها الثَّانية.

28 مايو 1951: ينشر كتابه *Kabe* (الجدار) ويضم الرِّوايتين القصيرتين: *S. Karuma-shi no hanzai* (جريمة السَّيد س.كاروما) و *Baberu no tô no tanuki* (بائع برج بابل المتجوِّل)، فضلًا عن قصصه القصيرة «شرنقة حمراء» و«الفيضان» و«الطباشير السِّحري» و«المشروع».

يوليو 1951: يحصل الجدار على جائزة أكوتاجاوا في دورتها الخامسة والعشرين، وهي واحدة من أرفع الجوائز الأدبيَّة في اليابان وتُمنح مرتين سنويًّا.

نوفمبر 1951: ينشر *Chinnyûsha* (الدُّخلاء) في مجلَّة *Shinchô*. تُعدُّ هذه القِصَّة القصيرة سلفًا لمسرحيته *Tomodachi* (أصدقاء).

مارس 1953: ينشر *R62-gô no hatsumei* (الاختراع هـ62) في مجلَّة *Bungakukai*.

أكتوبر 1953: النصّ السينمائي لـ *Kabe atsuki heya* (غُرفة سميكة الجدران) ينتقد تعسُّف محاكم جرائم الحرب.

فبراير 1954: مولد ابنته نيري.

1954: ينشر رواية *Kiga dômei* (تحالف الجوع) في *kodansha*.

ديسمبر 1954: تظهر مسرحيته *Seifuku* (البِزَّة النظاميَّة) في *Gunzô*.

مارس 1955: ينشر القصة القصيرة *Bô* (عَصا) في *Gunzô*.

يونيو 1955: عرض مسرحيته *Doreigari* (صيد العبيد).

أبريل 1956: يحضر مؤتمر الكُتَّاب في تشيكوسلوفاكيا. يُسافر عبر البلقان وألمانيا الشرقية وفرنسا قبل أن يعود إلى اليابان في يونيه.

يناير- أبريل 1957: تنشر مجلَّة *Gunzô* روايته (الوحوش تتجه للوطن) مسلسلةً.

فبراير 1957: ينشر كتابه (السَّفر عبر أوروبا الشَّرقيَّة: خلفيَّة عن أزمة المجر) في *kodansha*.

نوفمبر 1957: بثّ مسرحيته *Bô ni natta otoko* (الرَّجُل الَّذي تحوَّل إلى عَصا) في هيئة الإذاعة والتلفزيون اليابانيَّة وتحصل على جائزة *Geijutsusai shôrei*.

ديسمبر 1957: تنشر *Heibonsha* وهي واحدة مِنْ أرفع دُور النشر اليابانيَّة أول كُتب آبي من المقالات النقديَّة (يد الحاسبة في عقل الوحش).

يونيه 1958: عرض مسرحيته *Yûrei wa koko ni iru* (الأشباح هُنا) وتفوز بجائزة *Kishida* للدراما.

يوليو 1958 - مارس 1959: تنشر مجلَّة *Sekai* رواية الخيال العلمي *Daiyon kanpyôki* (في عصر الجليد 4).

1960

يونيه 1960: تنشر دار شينشوشا روايته *Ishi no me* (العين الحجريَّة).

سبتمبر 1960: ينشر *Chichindera yapana* في مجلَّة بونجكوكايي (العالم الأدبي) وتُعدُّ سلفًا لروايته (امرأة في الرِّمال).

يناير 1961: ينشر *Tanin no shi* (وفاة غريب) في مجلَّة جونزو.

أغسطس 1961: يُعلن آبي مع سبع وعشرين شخصيَّة أدبيَّة أخرى، عن اعتراضه على سياسات حزبيَّة مُحددة.

ديسمبر 1961: يفوز فيلمه السينمائي *Otoshi ana* (الفَخّ) بجائزة اتحاد كُتَّاب السيناريو.

فبراير 1962: يتبرأ مِنَ الحزب الشيوعي الياباني.

يونيه 1962: ينشر روايته الأشهر *Suna no onna* (امرأة في الرِّمال) في دار شينشوشا.

نوفمبر 1962: يبثُّ راديو أساهي *Hoero!* (عواء) ويربح جائزة *Geijutsusai*.

يناير 1963: تفوز روايته *Suna no onna* (امرأة في الرِّمال) بجائزة *Yomiuri* للأدب.

يناير 1964: ينشر *Tanin no kao* (وجه الآخر) في مجلَّة جونزو.

يناير 1964 – مارس 1965: ينشر *Enomoto Buyo* مسلسلة في مجلَّة *Chūōkōron* الشَّهريَّة.

فبراير 1964: يُعرض فيلمه السينمائي *Suna no onna* (امرأة في الرمال)، ويفوز بجائزة لجنة التحكيم الخاصة في مهرجان كان السينمائي الدَّولي.

نوفمبر 1964: تنشر دار شينشوشا مجموعة مِنْ أعمال آبي تحمل عنوان: *Mukankei no shi* (موت غير ذي صلة).

يناير 1965: تُعرض مسرحيته *Omae ni mo tsumi ga aru* (أنت أيضًا اقترفت الخطيئة).

أكتوبر 1965: تنشر دار كودانشا مجموعة مِن مقالات آبي النقديَّة بعنوان: *Sabaku no shiso* (أفكار في الصحراء).

ديسمبر 1965: تُنشر طبعة منقَّحة من *Owarishi no michi no shirube ni* (إلى اليافطة عند نهاية الطريق).

يناير 1966: تنشر دار *Chūōkōron* مجموعة آبي القصصية *Kaabu no muko* (وراء المنحنى).

يوليو 1966: اكتمال النسخة السينمائية من رواية وجه الآخر.

فبراير 1967: نشر مجموعة من كتابات آبي بعنوان: *Ningen sokkuri* (بشري تمامًا).

مارس 1967: عرض مسرحيَّة *Tomodachi* (أصدقاء). يفوز آبي بجائزة تانيزاكي جونيشيرو.

سبتمبر 1967: تنشر دار شينشوشا رواية *Moetsukita chizu* (الخريطة الخربة).

سبتمبر 1967: عرض مسرحيَّة *Enomoto Buyo*.

أبريل 1968: يكتمل فيلم الخريطة الخربة - نشر المجموعة القصصيَّة *Yume no tobo* (حلم الهروب).

سبتمبر 1969: تنشر دار شينشوشا مسرحية *Bo* (عصا) المؤلفة من ثلاثة فصول.

1970

يناير 1970: تنشر دار شينشوشا *Abe Kobo gikyoku zenshu* (المسرحيات الكاملة لكوبو آبي).

سبتمبر 1970: تنشر دار دايكوشا *Abe kobo shu* (مجموعة من كتابات كوبو آبي).

فبراير 1971- يونيه 1975: تنشر مجلة نامي مقاله *Shuhen koko* (رحلة عبر الهامش) مسلسلًا.

سبتمبر 1971: تنشر دار شينشوشا مسرحية *Mihitsu na koi* (إهمال مُتعمَّد).

نوفمبر 1971: يُنتج آبي ويعرض مسرحيَّة *Gaidobukku* (دليل). دار تشوكورون تنشر مجموعة مقالات *Uchinari henkyo ron* (داخل الحدود).

مايو 1972- يوليو 1973: تنشر دار شينشوشا الأعمال الكاملة لآبي على نحو غير لائق (15 جزءًا).

يناير 1973: تشكيل مُحترف كوبو آبي للدراما.

مارس 1973: دار شينشوشا تنشر *Hako otoko* (المعلَّب).

مايو 1973: تنشر دار شينشوشا مسرحيَّة *Ai no megane ha iro gurasu* (نظارات الحب مِن زجاج ملوَّن). وتنشر دار *Chuo koronsha* مجموعة

نقاشات دارت بين آبي والمثقَّف والمؤرِّخ والكاتب الياباني أمريكي المَوْلِد دونالد كيني بعنوان: *Hangekiteki ningen* (المناهضون للدراما).

أبريل 1974: تنشر دار شينشوشا مجموعة من النقاشات بعنوان: *Hasso no shuhen* (على هامش المعنى). يُنتج ويعرض نسخة مُنقَّحة من مسرحيَّة «أصدقاء».

أكتوبر 1974: دار شينشوشا تنشر مسرحيَّة *Midoriiro no sutokkingo* (الجوارب الخضراء).

نوفمبر 1974: يُنتج آبي ويعرض مسرحية «الجوارب الخضراء» ويفوز عنها بجائزة يوميوري الأدبيَّة.

مايو 1975: تنشر دار شينشوشا مسرحية *Ue! Shin doreigari* (مطاردة العبد الجديد) وينتجها آبي ويقوم بعرضها في الشهر ذاته. تمنحه جامعة كولومبيا درجة الدكتوراه الفخرية.

نوفمبر 1975: تنشر مجلَّة *Nami* «لقطات أحلام» *Yume no sunappushotto shu*. تنشر دار شينشوشا مجموعة مقالات *Warau tsuki* (قمر ضاحك).

أكتوبر 1976: يُنتج آبي ويعرض مسرحيَّة *Annaijin* (الدليل).

يونيو 1977: يُنتج آبي ويعرض مسرحية *Imeiji no tenrankai* (معرض الصور).

ديسمبر 1977: تنشر دار شينشوشا روايته *Mikkai* (موعد سري)، وفي العام نفسه يصبح عضوًا شرفيًّا بالأكاديميَّة الأمريكيَّة للفنون والعلوم.

يناير 1978: افتتاح معرض آبي للصور الفوتوغرافيَّة *Kamera ni yoru sosaku noto* (دفتر أحوال الكاميرا).

يونيه 1978: آبي يُنتج ويعرض مسرحية *Imeiji no tenkrankai hitosarai* (خاطفو معرض الصور).

أكتوبر 1978: آبي يُنتج ويعرض مسرحية *S.karma-shi no hanzai* (جريمة السيد س. كارما).

يناير 1979: يصطحب آبي فرقته المسرحيَّة إلى الولايات المتحدة ويُنتج

ويعرض مسرحيَّة *Kozo wa shinda* (الفيل الصغير مات).

يونيه 1979: يحضر لقاء لاهتي الدَّولي للكُتَّاب في فنلندا، ويلقي كلمة عن الأدب المُعاصر.

سبتمبر 1979: اكتمال العمل السمعي-البصري «الفيل الصغير مات».

نوفمبر 1979: دار سورينشا تنشر *Abe kobo no getijo – 7 nenkan no ayumi* (مسرح كوبو آبي- خطوات السنوات السبع).

1980

يناير 1980- ديسمبر 1981: مجلَّة *Geijutsu Shincho* تنشر صور ومقالات «سرقة المدينة» مسلسلة.

فبراير 1980: مجلَّة شينشو تنشر القصَّة القصيرة *Yupukeccha* (صائد يوبو).

يونيو 1980: دار *Chūōkōron* تنشر مجموعة مقالات آبي *Toshi e no kairo* (طريق غير مباشر للمدينة).

نوفمبر 1984: دار شينشوشا تنشر رواية *Hakobune sakuramaru* (فلك ساكورا).

أبريل 1986: مجلَّة *Sekai* (عالم الشباب) تنشر مقال آبي *Kureoru tamashii* (روح الكريول).

سبتمبر 1986: دار شينشوشا تنشر مجموعة المقالات واللقاءات الصحفيَّة *Shi ni isogu kujiratachi* (حيتان تندفع نحو الموت).

أكتوبر 1986: دار سورينشا تنشر نصوصًا سينمائية مُختارة لكوبو آبي.

ديسمبر 1989: المُخرج السويدي أندرسون يصوِّر فيلمه «أصدقاء» المأخوذ من رواية آبي *Tomodachi*.

1990

يناير- يوليو 1991: شينشو تنشر رواية *Kangaru noto* (دفتر الكانجارو) مسلسلة.

ديسمبر 1991: دار شينشوشا تنشر رواية «دفتر الكانجارو».

يناير 1993: شينشو تنشر القصة القصيرة *Samazama na chichi daiichiwa-shometsu* (آباء شتّى، القصّة الأولى-الانقراض). **وفاة آبي صباح الثاني والعشرين من يناير نتيجة أزمة قلبيّة.**

فبراير 1993: شينشو تنشر القصة القصيرة *Samazama na chichi dainiwa-zaisei* (آباء شتّى، القصّة الثّانية- البعث).

أبريل 1993: شينشو تنشر الرواية غير المكتملة *Tobu otok* (رجل طائر).

نوفمبر 1993: دار *Herumesu* تنشر مجموعة المقالات *Mogura nikki* (يوميات خُلد).

يناير 1994: دار شينشوشا تنشر رواية آبي التي لم يكملها «رجل طائر».

يوليو 1997: دار شينشوشا تبدأ في نشر الأعمال الكاملة لكوبو آبي في ثلاثين مُجلّدًا.

المترجم في سطور

مجدي عبد المجيد خاطر

- كاتب ومترجم من مصر. نُشرت ترجماته بالمركز القومي للترجمة، والهيئة المصرية العامَّة للكتاب بالقاهرة، ودار أزمنة في الأردن، ودار كلمات للنشر في الشارقة بالإمارات العربية المتحدة، والمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، وسلسلة كتاب الدوحة الذي يصدر عن وزارة الثقافة والرياضة بدولة قطر. إلى جانب العديد من الصحف والمجلات المصرية والعربيَّة، منها أخبار الأدب وعالم الكتاب في مصر، ومجلَّة الدَّوحة في دولة قطر والثقافة العالميَّة في دولة الكويت.
- وُلِد بالإسكندرية 1976.
- بكالوريوس علوم وتربية - قسم رياضيات 1998. باحث دكتوراه في فلسفة التربية بجامعة المنصورة.
- سافر إلى المملكة المتحدة في بعثة تدريبيَّة بجامعة إدنبره عام 2004.
- ترجم لسلسلة عالم المعرفة؛ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب؛ دولة الكويت. «صناعة السَّعادة: كيف باعت لنا الحكومات والشركات الكُبرى الرفاهية» ويليام ديڤيز. 2018.
- ترجم رواية «إفطار عند تيفاني» لترومان كابوتي. صدرت طبعتها الأولى عن دار أزمنة للنشر والتوزيع. الأردن. 2011. والطبعة الثانية عن دار كلمات للنشر في الإمارات العربية المتحدة عام 2018.

- ترجم للمركز القومي للترجمة في القاهرة: «1876» رواية جور فيدال، 2014. و«هوليوود» رواية جور فيدال، 2015. و«واشنطن» رواية جور فيدال، 2019. «عالم الرياضيات العجيب» چين أكياما وماري جورويز. 2018. و«سيرة الآنسة چين بتمان»، رواية، أرنست چيمس چينز، 2020.
- ترجم لسلسلة الجوائز بالهيئة المصرية العامَّة للكتاب في القاهرة: «أن نصبح أغرابًا» رواية لويز دين، 2011. «حكاية أوزوالد: لُغز أمريكي» نورمان ميلر) في جزءين 2012). «انهيار رجل» رواية مايكل توماس، الجزء الأول 2016؛ الجزء الثاني 2017.
- ترجم لدار كلمات للنشر بالشارقة في دولة الإمارات العربية: «حرب أمريكيَّة» رواية الكاتب المصري المقيم بالولايات المتحدة عمر العقَّاد. 2018. «نمط غير شائع» قصص الممثل الأمريكي الحائز على الأوسكار توم هانكس. 2020.
- ترجم في سلسلة «كتاب الدَّوحة» عن وزارة الثقافة والرياضة بدولة قطر: «فنُّ الكتابة» مقالات للكاتب الاسكتلندي روبرت لويس ستيڤنسون. يناير 2020.
- له: «مجرَّد شكل» مجموعة قصصيَّة. المجلس الأعلى للثقافة. 2005.

قيد النشر:

- عصر مُظلم جديد: التقانة ونهاية المُستقبل، چيمس برايدل. سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت.
- في أثر الملوك والغُزاة: جيرترود بيل وأركيولوچيا الشرق الأوسط، ليزا كوبر. المركز القومي للترجمة، القاهرة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

المُعَلِّب

كوبو آبي

يمزج الكاتب الياباني كوبو آبي؛ مؤلّف الرواية الشهيرة امرأة في الرمال، الاستيهامات بالنثر الطبيعاني ليخلق رواية تذكرنا بكتابات كافكا وبيكيت. حيث يتخلّى البطل المجهول لهذه الرواية الفريدة؛ البطل الغريب والمستفز، عن هُويّته وزخارف الحياة العادية كي يعيش داخل صندوق واسع من كرتون يضعه فوق دماغه.

وهكذا ينطلق في شوارع طوكيو ويُخربش بجنون فوق جدران غُلبته كتابات تصِف العالم في الخارج كما يراه، أو رُبّما كما يتخيّله. عالمٌ هش يضم رجلًا مسلّحًا ببندقية رش مصمم على أن يُطلق عليه الرصاص؛ وممرضة شابّة مُغرية مَنذورة للتجرُّد من ثيابها؛ وطبيب يرغب في أن يغدو هو نفسه مُعلّبًا.

رواية المعلّب آية من الإبداع الخالص وحكاية رمزيّة شديدة الجاذبية عن طبيعة الهُويّة ذاتها.

telegram @soramnqraa

تصميم الغلاف: عبد الرحمن ال

دار العين للنشر
Elain Publishing House

9 789774 906305